

النظم القرآني

مقدمة الرعد

تأليف

محمد بن سعيد الدبل
مكتبة العامة العربية



طبع على نفقة الشيخ

راشد بن ناصر الجملوع

النظم القرآني

في

سورة الشعراء

تأليف

محمد بن سعد الدبل
كلية اللغة العربية



النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ

و
سُورَةُ الرَّعْدِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَدِّمَةٌ :

موضوع البحث - أهدافه - منهجه
مصادره - خطة البحث

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . والصلوة
والسلام على سيدنا ونبينا محمد الذى بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على
الدين كله ، وأنزل عليه كتاباً مبيناً بالفصح لسان وأعذب بيان .

ونسألك اللهم عوناً وتوفيقاً فيما نحن بصدده من النهوض بهذا العمل العلمى
فى خدمة كتابك الكريم ، والكشف عن أسرار إعجازه .

وبعد : فلقد تخيرت سورة الرعد لهذه الدراسة المتواضعة .

فلقد عهد غير بعيد ، وأنا أحس إحساساً عجيباً ، بما ضمنه الله تعالى هذه
السورة الكريمة التى بسط فيها كثيراً من آياته الدالة على وحدانيته ، وعظيم
قدرته فى ذلك الطراز العالى من جودة النظم ، وحسن السبك ، وروعة
التصور ، وما اشتملت عليه من الوعد والوعيد ، ومن الترييب والترهيب
فى ذلك الأسلوب المحكم البديع .

ولقد كان إحساسى بهذه السورة صدى لإحساسى بالقرآن الكريم ،
ونموذجاً لما وقر فى قلبى من التعلق بكتاب الله تعالى .

وتوافرت الآمال فى خدمة كتاب الله وجعلت تزداد يوماً بعد يوم ،
منذ تخصصت فى الدراسات العربية ، ومنذ انخرت فى دراساتى العليا إلى
دراسة البلاغة العربية وإلى علم الأدب ونقده .

وإذا هذه الآمال التى كانت أشبه بالحلم العميق اللذيذ تصبح بعون الله
وتوفيقه حقيقة ماثلة تطبع آثارها على هذه الكليات التى سطرتها فى هذا البحث .

ويعينى أن أذكر فى هذا التقديم أن الموضوع الذى تخبرته للدراسة ،
وهو سورة الرعد كان موضوعاً بكرأ لم تعرض له إلا كتب التفسير والتأويل
فى جملة ما عرضت له من تفسير كتاب الله تعالى من أوله إلى آخره . بنهجها
المألوف الذى يكشف عن معانى الألفاظ ، واستخراج العبر والأحكام

من آياته الشريفة . وعند مقاربتى إنجاز هذا البحث وقفت على كتاب أله الأستاذ - عبد الرحمن حسن جنبكه الميدانى ، ورأيت من واجبي قراءة هذا الكتاب الذى كان موضوعه . سورة الرعد ، وانتهيت من قراءته إلى البون البعيد بن منهجى فى الدراسة وغايتها ، ومنهج صاحب ذلك الكتاب وغاياته من تأليفه ، ذلك أننى عمدت إلى موضوع واحد ، ولكنه فى الوقت نفسه موضوع كبير إذ هو تعمق فى دراسة « النظم القرآنى » والإبانة عما يمتاز به ذلك النظم العجيب فى تلك السورة الكريمة فى حين أن الكتاب المذكور توسع فى الشرح والتفسير ، وأبان فى عبارات موجزة عن وجوه البلاغة فى هذه السورة .

أما المصادر التى استعنت بها فأهمها كتب التفسير على مختلف مناهجها وتباين رجالها ، وأضفت إلى هذه المصادر ما وسعته ثقافى الألفية ، وثقافى الأدبية ، والبلاغية التى حصلتها من الكتب المملودة فى هذا الشأن ، وما وقفت عليه من أعمال كبار العلماء ، وبالإضافة إلى ذلك استعنت بطائفة من المراجع الإضافية التى تتصل بموضوع بحثى . وقد أثبت جميع هذه المصادر والمراجع فى ثبت مفصل فى آخر هذه الدراسة .

أما المنهج الذى سرت عليه فإنه منهج تغلب عليه الدراسة الفنية الجمالية التى تستثير الأنواق ، وتنتهى إلى الأحكام الفنية ، وبالإضافة إلى ذلك كان منهج المقارنة واحداً من المناهج التى ألزمتنى بها طبيعة البحث .

وسبرى المتفحص لهذه الدراسة أنها أملت بكثير من النواحي التى تتصل بنظم الكتاب الكريم ، وبأسرار الإبداع فى مفرداته المختاره ، وتراكيبه المحكمه ، ثم معانيه الجلييلة ، وما يمكن أن يستخلص منها من العبر .

فإذا وجد القارئ شيئاً يتصل بتفسير القرآن المجيد ، ومحاولة إدراك مقاصده الجلييلة ، ومراميه الشريفة ، فإن ذلك لم يكن المرمى الذى نشطت له فإن هنالك من كتب التأويل والتفسير ما يستطيع أن ينهض بهذا الغرض . وإنما كان جل قصدى إلى البحث عن النظم فى أروع صورة فى كتاب الله تعالى ، فإذا كان لغة وألفاظها وتراكيبها حاض غير قابل من العناية فإنها

في حقيقتها ليست عناية لغوية بقدر ما هي عناية بالإمعان في النظر إلى كتاب الله وتذوق لحكم آياته ، ومحاولة لإدراك سر الإبداع في الاستعمال القرآني للغة العرب ، وللتعرف على ما يمتاز به هذا الاستعمال البديع الذي تقصر البلاغة بمحدودها المعروفة عن استيعابه ، والإحاطة بأطرافه ، وذلك ما بذلت فيه جهد الطاقة .

وكثيراً ما كان تذوق للغة القرآن مغرباً بالمضي في الدراسة والإفاضة فيها ، وإذا أنا أمام خضم زاحر بآيات الإعجاب والإبداع التي تشحذ الذهن وتسحر القلب ، ولكن لكل شيء غاية ، ولكل أول نهاية ، فاجتزأت بما يسر الله في هذه الصفحات لعل في قليلها ما يغني عن الكثير الذي لا حدود له .

وقد اقتضت طبيعة الموضوع ، ومنهج دراسته أن يسير البحث على تنظيم هذا الجهد في تمهيد تناولت فيه مظاهر العناية بالدراسات القرآنية عند المساحين قديماً وحديثاً . ويتألف هذا التمهيد أربعة نصوص هي لباب البحث على النحو التالي :

الفصل الأول : في معنى النظم ، ووجوه الإعجاز في الكتاب الكريم

الفصل الثاني : عناصر النظم في سورة الرعد .

الفصل الثالث : التصوير البياني في سورة الرعد .

الفصل الرابع : خصائص النظم في سورة الرعد ، وغيرها من سور القرآن الكريم .

وأنهت الدراسة بخاتمة أوجزت فيها خلاصة الجهد الذي بذلته سائلاً الله تبارك وتعالى ، التوفيق والسداد فهو نعم المولى ونعم النصير .

محمد بن سعد الدبل

الرياض ١-١-١٤٠١ هـ

تمهيد

الدراسات القرآنية

ومظاهر العناية بها قديماً وحديثاً

القرآن الكريم كتاب الله ومعجزة نبيه وهو المنبع الأول لجميع الأعمال التي تتصل بالعقيدة الإسلامية ، وأحكام الشريعة بما يدخل فيها من العبادات والمعاملات وما يتصل بنظام الأسرة والمجتمع ، وحق الفرد على الجماعة . وواجهه نحو نفسه ، ونحو غيره ممن يحيا بينهم ، وكل ما يتصل بمبادئ الأخلاق وقواعد السلوك وسائر الفضائل التي تميز الإنسان على كل ما خلق الله ، وترفعه على غيره درجات ، وعلى الجملة فإن القرآن الكريم هو جامع العقيدة والعبادة والفضائل وكل ما يتصل بتوجيه البشر نحو الغاية المثلى التي يتطلعون إليها ، وهي السعادة التي ينشدها الناس في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

* * *

وقد كان الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم إمام هذه الأمة القائد والقدوة الحسنة والمعلم الأول الذي اقتدى به المسلمون فحاكوه في الفضائل التي جمل بها ربه ، وفي العمل بالأحكام التي نزلت بها شريعته وفي كل ما يحتاجون إلى إدراكه ومعرفة من أسباب الهداية إلى سبيل الرشاد

وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحي فكان القرآن هو الإمام الذي يأتى به المسلمون ويرجعون إليه في كل أمر فيه صلاح لمعاشهم ومعادهم ، رجع المسلمون إلى كتاب الله محاولون إدراك ما خفى عليهم من مقاصده ومرامي ، ويستخرجون منه أصول عقيدتهم وأحكام دينهم ويبحثون في طبيعة القرآن للوقوف على أسرار عظمته وأسباب إعجازه فقد عرفوا أنه المعجزة الكبرى لنبيهم صلى الله عليه وسلم ، وكذلك التمسوا من القرآن أفصح ما عرف من لغة العرب في مفرداتها وتراكيبها ، وفي مظاهر الإبداع التي يختص بها الفن الأدبي الذي برعوا فيه منذ كانت لهم حياة على وجه الجزيرة .

ولذلك كان الكتاب الكريم قبله الفقهاء ، وكان إدراكه غاية أهل التفسير والتأول ، وكان جماله وتفوقه البياني مجال بحث البلغاء والناقدين وكانت مثله العليا في المعاملة والأخلاق والسلوك مجالاً للمفكرين من علماء الأخلاق وعلماء الاجتماع ، ونجتزى في هذا المقام بتلك الكلمات القصيرة التي جعلت القرآن الكريم يجذب إليه عقول العلماء والمفكرين في كل واد من أودية الفكر وتستثير أذواق القادرين على تذوق فنون الكلام والموازنة بين روائعه ليخلصوا إلى الغاية التي ينشدونها ، وهي إثبات إعجاز الكتاب الكريم .

ويعيننا في هذا المقام أن نشير إلى أن هذه العناية الكبرى بالقرآن لم تنقطع طوال ذلك الزمن منذ أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زماننا وستظل تلك العناية موصولة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فإن أسرار ذلك الكتاب لا تنفده وكنوزه المخبوءة لا تنتهي ، وستظل الإنسانية تفتش في ذلك الكنز لتستخرج منه كل يوم جديداً يغذى العقول ويهز المشاعر ، ويثير الأذواق ، ومن الطبيعي أن تخلف تلك الجهود الموصولة التي بذلها العلماء والعارفون في خدمة كتاب الله تعالى تراثاً حياً يعز على الإحصاء ففي حقل التفسير تزخر المكتبة القرآنية بأمهات الكتب التي منها ما أظهر عناية خاصة بشرح أي الذكر الحكيم وما يعرض فيها من معنى لفظ أو بيان عظة أو سرد خبر . كتفسير بن كثير والراغب الأصفهاني في مفردات القرآن وغيرها .

ومنها ما اختص بذكر أسباب النزول وبيان الناسخ والمنسوخ والحكم والمتشابه والمطلق والمقيد والمكي والمدني وتفسير آيات الأحكام .

وبيان أنواع القراءات عند من غنى بضبط لغات القرآن وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه .

ومن العلماء من اهتم بالنواحي الإعرابية كمحب الدين أبي البقاء العكبري في وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ، وابن خالويه في كتاب

« إعراب ثلاثين سورة من القرآن » ومنهم من وجه عنايته إلى التفسير البلاغي كالزمخشري في « الكشاف » وعبد القاهر الجرجاني ، والقاضي الباقلاني في مسألة النظم ودلائله .

• • •

وكان من أبرز ما عُنيت به الدراسات القرآنية قديماً البحث في البيان والإعجاز حتى كان القول في البيان مندرجاً تحت القول بالإعجاز . يقول أبو هلال العسكري في كتابه « الصناعتين » : « وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ... » .

« وقد كان البيان وهو من أقدم علوم البلاغة وكان اسمه يطلق على ما يراد منها جميعاً متأثراً في نشأته وتطوره إلى حد بعيد بهذا العامل الديني الجديد . فهو بذلك معدود من جملة العلوم الإسلامية لإبرازه ما في القرآن الكريم - وهو كتاب العقيدة الإسلامية وآياتها المعجزة - من وجوه الجمال التي يمتاز بها عن سائر كلام البشر » (١) .

ولذا تجرد العلماء للعناية بتلك الظاهرة ووسعوا مجال البحث فيها ، نلاحظ ذلك فيما تناوله بعضهم وخصه بالبحث والتأليف كالذي في « تأويل شكل القرآن لابن قتيبة » ت ٢٧٦ هـ ، « وحجج النبوة » للمحافظ ت ٢٥٥ هـ وتناوله المفسرون كالذي في « جامع البيان للطبري » ت ٣١٠ هـ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة » ت ٢٠٨ هـ ومعاني القرآن للفراء (٢) .

• • •

(١) البيان العربي للدكتور بدوي طبانه ص ١٨ ، ٢٠ ط الرابعة .

(٢) الإعجاز البياني لبنت الشاطي ص ١٥ ط دار المعارف بمصر .

وهناك نشاط ملحوظ في دراسة بلاغة القرآن الكريم فقد بذل العلماء جهوداً كبيرة في التعرف على بلاغة كتاب الله « ولم يكن اهتمامهم إليها أمراً يسيراً فهم قد اعترفوا أن وجوه البلاغة في القرآن يصعب تحديدها لكن هذه الصعوبة لم تمنعهم من محاولة استنباط ما استطاعوا استنباطه من وجوه البلاغة القرآنية حتى اهتدوا إلى معرفة الكثير من نواحي الحسن في القرآن والخصائص التي يمتاز بها سواء كان ذلك من ناحية النظم والتأليف أم كان ذلك من ناحية المرامي والأغراض . نلمس تلك الجهود عند كثير من الخبراء لأنبي الحسن على بن عيسى الرماني « ت ٣٨٦ هـ » وبيان إعجاز القرآن « للخطابي » « ت ٣٨٨ هـ » الذي عالج فيه موضوع البلاغة بذكر الأقسام الثلاثة للكلام المحمود . مقررأ أن بلاغة القرآن قد أخذت من كل قسم حصة ومن كل نوع شعبه ، مناقشاً بعض وجوه البلاغة القرآنية إذ يقول : « وأما ما عابوه من الحذف والاختصار في قوله سبحانه « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » (١) فإن الإعجاز في موضعه وحذف ما يستغنى عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة وإنما جاز حذف الجواب في ذلك وحسن لأن المذكور فيه يدل على المحذوف والمسكوت عنه من جوابه ولأن المعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به والحذف في مثل هذا بلغ من الذكر لأن النفس تذهب في الحذف كل مذهب (٢) وحصر الأمثلة والوجوه البلاغية في كتاب الخطابي قد يخرج بنا إلى الاستطراد ولذا سترجئه إذ سيأتي الكلام على رأيه مفصلاً عند الحديث عن النظم وأنه وجه من وجوه الإعجاز .

والنظم من صميم الأبحاث البلاغية التي أولاهها العلماء عناية فائقة وفي الذروة منهم عبد القاهر الجرجاني « ت ٤٧١ هـ » أو « ٤٧٤ هـ » الذي استقى من جميع الينابيع التي سبقته واستنار بآراء الذين كتبوا قبله في إعجاز القرآن

(١) سورة الرعد الآية ٣١ .

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٤٧ تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ط د م

وبلاغته ولم يكن مقلداً لمن سبقه أو عاصره ، ويعد كتاباه « أسرار البلاغة » ، ودلائل الإعجاز » من أمهات الكتب المبتكرة العميقة في الدراسات البلاغية وخاصة فيما يتعلق ببلاغة القرآن وفصاحته والقول في فكرة النظم . تلك الفكرة التي أكدها عبد القاهر ونادى بها وفلسفها بأسلوبه المنطقي وبفكره الواعي مما لا نجد مجالا لتفصيله في هذا المدخل الموجز .

وقد تناول عبد القاهر في كتابيه كثيراً من الموضوعات والأبواب البلاغية وعالج مسائلها وقضاياها ، وعنى بالمعاني ومكانتها في أي عمل أدبي وهو بذلك يكشف عن أسرار بلاغة القرآن وأسباب إعجازه . وليس في الإمكان أن نحصى المسائل البلاغية والأدلة القرآنية التي ساقها هذا العالم في ثنايا دراسته القيمة . وسنذكر بعض الأمثلة له عند الحديث عن النظم وأنه وجه من وجوه الإعجاز . والذي يهمننا في هذه العجالة هو اهتمام عبد القاهر وعنايته القصوى بالبلاغة والإعجاز القرآني التي كانت ذروة لجهود الأعلام من العلماء الذين سبقوه فعنايته قائمة على تحليل النص والكشف عن أسرارهِ ولطائفهِ والاستشهاد عليه من كلام أئمة البلاغة العربية نثرها وشعرها حتى عدت طريقته الطريقة التحليلية النفسية التي تسمو بالدوق في مدارج البلاغة وفن القول .

• • •

ومن جملة من عنى بالدراسات البلاغية القرآنية الإمام فخر الدين الرازي « ت ٦٠٦ هـ » في كتابه « نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز » « وهذا الكتاب واضح التأثير بما كتب عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، ومن الممكن القول بأن الدراسة المستفيضة والبحث المبسوط في هذين الكتابين اختصر في هذا الكتاب .

وأكثر ما كتبه الرازي في خطبته في فضل علم البيان وأثره في الأدب في إثبات إعجاز القرآن منقول نقلا يكاد يكون حرفياً مما كتب الجرجاني في مقدمة أسرار البلاغة كما أن أسلوب عبد القاهر وأفكاره في الأدب

والبيان واضحة كل الوضوح في المباحث التي عالجها الكتاب ، وفي هذه الخطبة أشاد الرازي بجهود عبد القاهر في علم البيان فهو الذى استخرج أصول هذا العلم وقوانينه ورتب حججه وبراهينه وبالغ في الكشف عن حقائقه والفحص عن لفظه ودقائقه وصنف في ذلك كتابين لقب أحدهما بدلائل الإعجاز والثاني بأسرار البلاغة وجمع فيهما من القواعد العربية والدقائق العجيبة والوجوه العقلية والشواهد النقلية واللطائف الأدبية والمباحث العربية ما لا يوجد في كلام من قبله من المتقدمين ولم يصل إليها غيره من العلماء الراضين ، ولا يؤخذ عليه إلا أنه أهمل رعاية ترتيب الأصول والأبواب وأطنب في الكلام كل الأطناب ، ويعترف بأنه التقط من الكتابين معاهد فوائدها ومقاصد فوائدها غير أنه راعى الترتيب مع التهذيب والتحرير مع التقرير وضبط أوابد الإجماليات في كل باب بالتقسيمات اليقينية ويجمع متفرقات الكلم في الضوابط العقلية من الاجتناب عن الأطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل (١) .

• • •

وكذلك تأثر ابن الزمكاني « ت ٦٥١ هـ » في كتابه « البيان في علم البيان » المطاع على إعجاز القرآن « بعبد القاهر وكتابه دلائل الإعجاز الذى وصفه ابن الزمكاني بأنه جمع فأوعى وأنه فك قيد الغرائب بالتقييد ، وهدم سور المضلات بالتسوير المشيد حتى عاد أسهل من النفس .. » ثم يأخذ ابن الزمكاني على كتاب عبد القاهر بأنه واسع الخطو كثيراً ما يكرر الضبط ، فقيد للتبويب طريد من الترتيب يمل الناظر ويعشى الناظر والمتأمل يلحظ التناقض الواضح في أسلوب ابن الزمكاني فهو أسلوب مصنوع نقض في آخره ما بنى في أوله ليجد ذريعة إلى هذا التأليف الذى سهل الله تعالى جمع مقاصده وقواعده وضبط جوامحه وطوارده ، مع فرائد سمح بها الخاطر وزوائد نقلت من الكتب والدفاتر .

(١) انظر البيان العربى للدكتور بدوى طبانه ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ ط الرابعة .

ويتضح لنا أن دلائل الإعجاز هو أصل كتاب التبيان بزيادة ما سمع به الخاطر ، وما نقل من الكتب والدفاتر (١) .

على أن هذين الكتابين لم يبلغ واحد منهما ما بلغ عبد القاهر في كتابه : « لأن الرازي وابن الزمكاني اتجاهاً قاعدياً جافاً فأبعدا البلاغة العربية عن طريقها الطبيعي الذي يقوم على التدقيق وتنبيه الإحساس إلى أسرار الجمال في فن القول ومكنا لهذا الاتجاه الذي غلب على بلاغة المتأخرين فأحالتها إلى قواعد تحفظ وأقسام تخصي .

• • •

وللقاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى « سنة ٤٠٣ هـ » أثر جليل يدل على حذق الباقلاني للبيان والبلاغة القرآنية . ذلك الأثر هو كتابه « إعجاز القرآن » الذى أفاض القول فيه عما يوجه إلى القرآن من المطاعن التى يريد بها أصحابها الغرض من شأن الآية الكبرى للنبوة المحمدية ، مع ذكر المؤلف جملة من وجوه إعجاز القرآن عند بعض العلماء ويعيننا في هذه العجالة اهتمام الباقلاني وعنايته بالدرس البلاغى للقرآن الكريم فقد أفاض في الحديث عن بدائع القرآن وساق الأمثلة من آياته وعنى بمعالجة فكرة النظم في كثير من الآيات بل طبقها على سورتين كاملتين هما سورتا غافر وفصلت .

إلى غير ذلك من الآثار عند القدماء التى خدمت القرآن وكشفت عن أسرار إعجازه وبلاغته « كالجمان في تشبيهات القرآن لابن نايقا البغدادي » ت ٤٨٥ هـ ، وبدائع القرآن وتحرير التحبير لابن أبى الأصبع المصرى « ت ٦٥٤ هـ » وكتابه بديع القرآن « كتاب فريد في بابيه حيث جاء في فترة سبقها نضج في الدراسات القرآنية ، فحاول ابن أبى الأصبع أن يفيد من جهود سابقه ويجعل من كتابه مادة تطبيقية لآيات القرآن على ما عرفة من فنون البيان والبديع » (٢) .

(١) المصدر السابق ص ٣٥٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٥ ، ٦٦ .

وقد توافرت الدراسات القرآنية وهى فى ما هيئها معين لا ينضب تستقى أمثلتها وشواهدا من القرآن الكريم وآثار السابقين « كالصناعتين لأبى هلال العسكري » ت ٣٩٥ هـ « وسر الفصاحة لابن سنان الحفاجى والمثل السائر لابن الأثير والطراز للعلوى .

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نجمل مظاهر العناية بالدراسات القرآنية عند القدماء فيما يلى :

١ - « إن المتكلمين اتخذوا دراسة البيان أساساً اعتمدوا عليه فى دراسة إعجاز القرآن وفهم معانيه ومعرفة أحكامه ، وطرق الاستدلال بأساليبه وتعابيره على إثبات الإعجاز والرد على منكريه أو المتشككين فيه .

٢ - إن هذه الدراسات لم تقتصر على الناحية اللفظية وحدها ولا على الناحية المعنوية وحدها ، بل هى دراسة موضوعية لا تقف عند النظرة الكلية التى تلقى فيها الأحكام عامة ، دراسة واسعة عميقة تتناول الأسلوب بأوسع معانيه فتدرس اللفظ مفرداً ، وتتناول الجملة ونظم العبارة كما تتناول دلالة اللفظ ودلالة العبارة على المعنى .

٣ - أن أصحاب هذه الدراسات نهجوا فيها منهجاً موضوعياً جديداً يعتمد اعتماداً كبيراً على أسلوب الموازنة بين النصوص الماثورة وبين الأسلوب القرآنى .

٤ - أنهم جددوا فى دراسة البيان العربى بما استخرجوه من القرآن الكريم من فنون بيانية رائعة أضافوها إلى جهود من سبقهم . وكانت دراسة عملية يثار فيها جانب العقل والتفكير ، وتستثار ملكة الملاحظة وتدريب المواهب حتى كانت دراساتهم صورة حية للدقة فى التفكير ، والدقة فى التعبير ثم طبقوا هذه المعارف على آيات الكتاب الحكيم تطبيقاً يشهد لهم بالذوق المستنير والإدراك الكامل (١) .

• • •

(١) المصدر السابق ص ٧١ ، ٧٢ .

وكما فاضت مكتبة الدراسات القرآنية بآثار السلف سارت الطبقة التي خلفتهم في ذلك الطريق الذي رسموه . فرأينا لقيفاً من العلماء في العصر الحديث يجردون أنفسهم ويسخرون أقلامهم لخدمة تلك الدراسات التي نشأ عنها صرح جديد في الدراسات القرآنية . وعلى الرغم من أن جهود المعاصرين في ذلك تعد امتداداً لما خلفه أسلافهم فإن ما أضافوه لا يعدم روح التفكير السليم والذوق الرفيع ، ومن جملة تلك الدراسات المعاصرة على سبيل المثال لا الحصر : كتاب « إعجاز القرآن » للمرحوم مصطفى صادق الرافعي الذي درس فيه إعجاز القرآن وبلاغته دراسة موضوعية تناول فيها الإطار والمضمون لآيات الكتاب الكريم مبيّناً سمو المعنى في كل آية يسوقها وشدة تألف الحروف وانسجامها مع كل لفظة تبني عليها . وأمثلة ذلك الجهد قارة في موضعها من الكتاب .

وهناك أثر جليل من آثار الدراسات القرآنية المعاصرة للمجاهد الشهيد سيد قطب وهو تفسيره « في ظلال القرآن » الذي نهج فيه منهجاً أدبياً رائعاً . وفسر جميع سور القرآن على نمط رفيع من الأسلوب وكذلك كتاباه : التصوير الفني في القرآن ، ومشاهد القيامة في القرآن .

ولنقف قليلاً من كتابه « التصوير الفني في القرآن » إذ موضوعه وثيق الصلة ببحثنا هذا ، إن طريقته في هذا الكتاب طريقة تقوم على التحليل لنصوص الآيات واستخراج عناصر الجمال فيها والجمع بين البلاغة والنقد إذ يقول في فصل منه تحت عنوان « كيف فهم القرآن » : « أخذ التفسير ينمو ويتضخم ابتداء من أواخر القرن الثاني للهجرة ولكن هذا النمو بدلاً من أن يبحث عن الجمال الفني في القرآن وتناسقه مع الجمال الموضوعي البالغ حد الكمال ، أخذ يفرق في مباحث فقهية وجدلية ونحوية وصرفية وتاريخية وأسطورية ! وبذلك ضاعت الفرصة التي كانت مهياً للمفسرين لرسم صورة واضحة للجمال الفني في القرآن وربطها بالكمال الموضوعي الذي يتجلى فيه » .

ثم يسوق الأمثلة من القرآن موضحاً فيها طريقة التعبير والتصوير منجياً باللائمة على السابقين الذين صرفوا جهدهم عن استخراج عناصر الجمال في

التعبير القرآني فيقول : « انظر إلى التعبير الجميل في قول الله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم . . . » هذا التعبير الذي يرسم صورة حية للخرى في يوم القيامة ويصور هؤلاء المجرمين شخوصاً قائمة تكاد تبصرها العين لشدة وضوحها وتسجيل هيأتها « ناكسوا رؤوسهم » وعند من ؟ عند ربهم » ثم هذه الصورة للهول لا تساوى من باحث بلاغى إلا أن يقول : « وأصل الخطاب أن يكون لمعين وقد يترك إلى غير معين وهو في القرآن كثير كقوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم » وتستمر التعبيرات المتداولة عن قوم إلى قوم آخرين حول هذا الشاهد وأشباهه من القرآن الكريم . « وتطوى تلك الصورة الفنية الحية وتنتهى عند علماء البلاغة إلى القول : « تضعيفاً لحلم التي تناهت في الظهور (١) ويمكن القول : بأن تفسير سيد قطب وكتابه التصوير الفني ومشاهد القيامة كلها تنبع من روح واحدة وتتجه وجهة واحدة في العناية بالدرس القرآني هي الوصول إلى فهم الصورة الفنية في القرآن » .

وبين أيدينا كتاب قيم يعد من المؤلفات الجليلة النفع في الدراسات القرآنية المعاصرة ذلك هو كتاب « النبأ العظيم » للدكتور محمد عبد الله دراز . وهو نظرات جديدة في القرآن الكريم عالج فيها المؤلف بلاغة القرآن وإعجازه وتناول كغيره من الباحثين اللفظة القرآنية والتركيب واستخراج الأسرار البلاغية في القرآن كالذي نجده في قوله : « دع عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية إنها « مقحمة » وفي بعض حروفه إنها « زائدة » زيادة معنوية ودع عنك قول الذي يستخف كاهن « التأكيد » فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة . . . أجل دع عنك هذا وذاك فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها إنما هو ضرب من الجهل مستوراً أو مكشوفاً بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن وخذ نفسك أنت بالفوص في طلب أسرار البيان وقولاً سيداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف (٢)

(١) انظر تحليل الآية في التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ٢٨ .
(٢) انظر النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٣٠ ، ١٣١ ط الثالثة ١٣٩٤ هـ
مطبعة الكويت .

ويعرض المؤلف متحدثاً عن القرآن الكريم في بعض من آياته وسوره ثم يتوج بحثه بحديث مفصل عن سورة البقرة .

ومن جملة الدراسات القرآنية المعاصرة كتاب « البيان العربي » للدكتور بدوى طبانة . وهو دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى . تناول فيه المؤلف بعض الآثار في الدراسات البلاغية قديماً وحديثاً وخصه بحديث مفصل عن القرآن الكريم تحت عنوان « البيان والإعجاز » وتناول بالعرض والتحليل بعض مناهج الدراسات البلاغية مقررأ « إن القرآن الكريم على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة ، يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب والتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد ، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف (١) » .

كما بين المؤلف مدى اهتمام الباحثين بالدراسات القرآنية فيما يتعلق بالقرآن كلمة كلمة وجملة جملة مع ضرب الأمثلة ومناقشتها . وأن القول بإعجاز القرآن كان هو البذرة التي غرسها العلماء فأخرجت دوحة وارفة الظلال في تاريخ التفكير الإسلامى والعربى تتمثل في علوم البلاغة .

ومن بين كتب الدراسات القرآنية المعاصرة كتاب « من منهل الأدب الخالد » لمحمد المبارك الذى يعتبر دراسة لاستجلاء بعض الأسرار البلاغية في القرآن ، وكتاب التفسير البيانى لبنت الشاطىء وكتاب من بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوى . ونكتفى بذكرها منعاً للاستطراد ولأنه سيأتى الحديث عن بعضها وعن غيرها مما سبق ذكره حين نعرض للحديث عن النظم وأنه أحد وجوه الإعجاز .

ويمكن تلخيص عنايه الباحثين في الدراسات القرآنية الحديثة فيما يلى :

١ - اتجاه هم المعاصرين إلى جميع ما قيل في الإعجاز من أقوال السابقين بطريقة فذة في التناول والعرض والبرهنة والاحتجاج والجددة في المناقشة .

(١) انظر البيانى العربى للدكتور بدوى طبانة ص ٦١ ط الرابعة .

٢ - أن معظم هذه الدراسات جمعت بين الدراسة النظرية بتتبع أقوال السابقين وبين الدراسة التطبيقية باستعراض آيات الذكر الحكيم وتحليلها واستخراج عناصر الجمال الفني فيها .

٣ - إن هذه الجهود جمعت بين النقد والبلاغة بليضاح أسرار القرآن البلاغية التي أغفلها السابقون وإدامة النظر في وحدة القرآن الفنية كما في التصوير الفني ومشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب .

٤ - إلحاح المعاصرين في دراساتهم القرآنية على ذكر آيات التحدى ودراساتها دراسة فنية تحليلية ، وإداتهم النظر في فكرة النظم وما يختص منها بنظم القرآن وتجليتهم هذه الفكرة في كثير من الآيات ، وعنايتهم الفائقة بتحقيق التراث القرآني وجمع بحوثه المتفرقة .

* * *

الفصل الأول معنى النظم

- ١ -

القرآن الكريم نور الله في الأرض ، والمعجزة الخالدة للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم تحدى به العرب قاطبة ، ومفهوم المعجزة أنها : أمر خارج للعادة خارج عن طوق البشر مقرون بالتحدى سالم من المعارضة ، يظهره الله على يد رسله ، وأنها : أمر خارج عن حدود الأسباب المعروفة يؤيد الله بها من يصطفيه من عباده لحمل رسالته إلى البشر ، لتكون شاهداً على صدقه .

وقد أودع الله في كتابه الكريم كل ما فيه صلاح أمر الآدميين وما ينفعهم في معاشهم ومعادهم ، فكان طبعياً أن يشتمل على وجوه كثيرة في الإعجاز .

وقد أكثر العلماء والدارسون . من البحث عن وجوه إعجاز القرآن وخلفوا تراثاً ضخماً يشتمل على ما اهتموا إليه من هذه الوجوه ، منهم من زاد ومن نقص ، ومنهم من قصر جهده على البحث في الدرس القرآني ليدمج الحجاج الواهية فيما يوجه إلى القرآن الكريم من شبه ومطاعن في ألفاظه ومعانيه ، وأحكامه وإعجازه . ولم يزل القرآن حياً متجدداً يفوق طاقة الدارسين .

والمتتبع لوجوه الإعجاز وآراء العلماء فيها يجد بعضها يتداخل أو يتقارب فمثلاً من عد غرابة الأسلوب وجهاً ، والفصاحة وجهاً ، والبلاغة وجهاً ثالثاً ، والتأثير في السامعين وجهاً رابعاً نستطيع أن نجعل كل هذه الوجوه مما له علاقة بالأداء والبيان تحت وجه واحد هو الإعجاز البياني ، وكل مثل ذلك في الغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلية إذ يجمعها الإعجاز الغيبي .

وفي استطاعتنا أن نجتمع الوجوه التي ذكرها السابقون ، وتناولها اللاحقون
بالبحث والزيادة تحت خمسة وجوه هي :

١ - الإعجاز البياني .

٢ - الإعجاز العلمي .

٣ - الإعجاز الغيبي .

٤ - القول بالصرقة .

٥ - الإعجاز بالنظم .

وهذه نبذة مريضة عن كل وجه :

الإعجاز البياني : وينتظم الأسلوب الفريد الذي يتميز به القرآن الكريم
على سائر كلام البشر شعراً ونثراً ، بانتقاء الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن
المعاني قصد الإيضاح والتأثير ، وقد تواضع العرب قديماً وحديثاً على أن
للقرآن أسلوباً خاصاً به مغايراً لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف
حتى كان من خصائص هذا الأسلوب الفريد تعمده الطريقة التصويرية في
التعبير ، والتناسق بين المدلول والعبارة ، وارتفاع التفاوت في طبيعته الزاهية
وثوبه القشيب ، وتلك الخصائص جذيرة بالتأمل والتدبر لذا جعلها الله مناراً
على مصدر القرآن ومعلماً يستدل به على كونه من عند الله تعالى « أفلا يتدبرون
القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

وقد انتظم هذا الوجه من الفصاحة أعلاها ومن البلاغة أشرفها ، يقول
الإمام الخطابي ت ٣٨٨ هـ : « إن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في نسبة
البيان متفاوتة ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية فيها البليغ الرصين
الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ومنها ومنها . . . وهذه أقسام الكلام

• يرى بعض العلماء المعاصرين . القول : بالإعجاز التشريعي ، وخلاصته : أن القرآن
دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال ، وسيظل إلهامه التشريعي
قريباً لإعجازه العلمي وإعجازه اللغوي إلى الأبد ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث في العالم أثراً
غير وجه التاريخ .. راجع ذلك مفصلاً في . باحث في علوم القرآن لمناع القطان .

المحمود فحازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصبة وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة فانتظم له بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفى الفخامة والعدوبة وكان منها آية بينة للنبي الكريم ودلالة واضحة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه (١) .

الإعجاز العلمى : « وقد سلك القرآن الكريم في هذا الوجه طريقة الاستدلال على خالق الكون ومنشئه استدلالاً فطرياً يتناسب مع جميع العقول والأفهام فتحدثت آياته عن كل ما يحيط بالإنسان من عجائب هذا الكون تحدث عن الأرض والسماء ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وعن الجبال والبحار والرياح والنبات والحيوان ، وعن الإنسان نفسه ذلك الآدمي الذي يسخر تلك المخلوقات فيما يزود به معاشه بقدره الخالق الحكيم كما أشار القرآن إلى حقائق أმაظ اللثام عن الحكمة من وجودها ، وأشار إلى حقائق تارة بالتلميح ، وتارة بالتصريح ، ومرة بالإجمال ، وأخرى بالتفصيل ، وهو بهذه الطريقة لا يخرج عن هدفه الأساس الذي هو هداية الناس إلى الصراط المستقيم فليس القرآن كتاب كيمياء أو كتاب فلك وطبيعة ولا ينبغي أن نتوقع منه أن يسوق لنا الحقائق العلمية مفصلة كاملة كما يفعل أى مرجع علمي مختص ، ولكنه يسوق الآيات الدالة على وجود الله تعالى طالباً التدبر والتفكير والإيمان :

« قل أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها روافد من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج » .

الإعجاز الغيبي : ووجه اشتغال القرآن الكريم على أنباء الغيب مما كان خافياً على النبي صلى الله عليه وسلم ولم يشهد حوادثه ولم يحضر وقتها ، ولم يكن على علم بتفصيلات تلك الحوادث ولم يقرأ كتاباً في ذلك ، ويدخل في

(١) انظر إعجاز القرآن للخطابي ص ٧ ورسالة إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم

هذا المفهوم كل ما ورد في القرآن عن بداية نشأة الكون . . وما وقع وحدث منذ خلق الله السماوات والأرض حتى بعث الله في الأميين رسولا نعم ما وقع وحدث من عظيمة الأمور ومهمات السير ، وكذلك يشمل ما غاب عن النبي صلى الله عليه وسلم في وقته من الحوادث التي كانت تحدث ويخبر بها بطريق الوحي كإخبار الله له بما يدبره اليهود والمنافقون ، ويشمل الأخبار عن الأحداث في مستقبل الزمان وبالتالي « يشمل غيب الماضي وغيب الحاضر . وغيب المستقبل فعن الأول يقول القرآن الكريم : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

وعن الثاني يقول الله تعالى :

« ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحبك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير » وعن غيب المستقبل يقول تعالى : « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » . وقد حدث ما أخبر به القرآن الكريم ، فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك وهزم الفرس في بضع سنين ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ممن حضر هذه الحرب وعرف سبب الغلب (١) .

ومن وجوه الإعجاز عند بعض الفرق من أهل الكلام : القول بالصرقة فقد رافق القول بإعجاز القرآن الكريم ، بل كان هذا الرأي هو الباعث الأول للبحث في وجوه الإعجاز وأول من قال به وذهب إليه أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام فقد « ذهب إلى أن الله سبحانه صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقاً للعادة » .

وقال المرتضى من الشيعة إن معنى الصرقة أن الله سلب العرب العلوم

(١) انظر رسالة إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ .

التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن . فكأن مراد المرتضى من هذا المعنى أن العرب بلغاء يقدرّون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني إذا لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم (١) . وما قاله بين الخلط لا قبل لعاقل به فإن العرب أهل علم بالفطرة وليس غيرهم ممن أخذ عنهم بأقدر وأعمق في العلوم ولا بأوسع في التفكير . وهم المتحدون الأولون وغيرهم داخل في جملتهم بل التحدى لعموم من خلق الله من الجن والإنس .

* * *

ومثل هذا الرأي قال به ابن سنان الخفاجي في كتابه « سر الفصاحة » إذ يقول : « وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه (٢) » .

والمتتبع لأقوال أهل الصرفة يلتقي مذهبين أحدهما لطائفة تقول : بصرف الإرادة والتوجه إلى المعارضة ولو توجه العرب لاستطاعوا معارضة القرآن والثانية تقول بسلب العلوم ولو توجه العرب لما استطاعوا .

ونبرأ إلى الله سبحانه عن كل ما قالوا فجميع ما ذهبوا إليه محط آراء فاسدة ونفوس خبيثة وعقول سقيمة لا تعرف إلا الجدل والمكابرة والعناد . فكتاب الله سبحانه مفتوح الدفتين لمن أراد التدبر والتفكير لم يصرف عن التبصر فيه أحد لكن من حدثته نفسه بمعارضته سيقضي العمر في طلب المجال فالله سبحانه يقول : « قل لأن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » والقرآن كلام الله

(١) انظر إعجاز القرآن للرافعي ص ١٦٢ ط الثامنة مطبعة الاستقامة القاهرة .

(٢) انظر رسالة إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص ٢٨٥ .

العزير الحكيم لا قوة خارقة ولا حكمة بالغة إلا له فثبت الإعجاز لعدم قدرة الثقلين ونقص طاقتهم البشرية وسبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض .
الإعجاز بالنظم : وهذا الوجه يجب أن نفصل القول فيه إذ هو محك هذا البحث وصميمه . عارضين لطائفة من أقوال العلماء والمتكلمين ممن تناوله بالبحث والدراسة .

ولا شك أن المتأمل في حروف القرآن الكريم وكلماته لا يجد فيها شيئاً خارجاً عن المألوف المتداول في لغة العرب قديماً وحديثاً ، وعندما نتلوا آيات الله نشعر أن للعبارة القرآنية كيانه خاصاً يبني عليه تركيب الجملة لرسم معالم الصورة الفنية للنظم القرآني الفريد الذي لا يتفاوت ولا يتباين .
« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

وبعد هذه الإشارة إلى أهم الأقوال التي قيلت في وجوه الإعجاز نخلص إلى أنه ليس لباحث أن يقصر وجوه الإعجاز على ما ذكره السابقون . فإن القرآن الكريم « معجز في تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره الإنساني ومعجز كذلك في حقائقه ، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء فهي باقية ما بقيت (١) » .

وإذ قد وعدنا سلفاً بتفصيل القول في الإعجاز بالنظم وعرض لطائفة من أقوال العلماء في ذلك فلنتبين مفهوم « كلمة النظم » واستعمالها عند أصحاب اللغة وعند علماء البلاغة والأدب والمتكلمين وبعدها نشير إلى ما ذكرنا .

— ٢ —

إذا تتبعنا مادة « نظم » ومشتقاتها في معاجم اللغة وجدنا أن العرب استعملت هذه المادة في معنى التأليف وما يرادفه ، فقد جاء في « لسان العرب » :

١ — النظم : التأليف — نظمه ينظمه نظماً ونظاماً ، ونظمه فانظم وتنظم .

(١) انظر إنجاز القرآن للرافعي ص ١٧٥ الطبعة الثامنة — مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

- ٢ - ونظمت اللؤلؤ : أى جمعته فى السلك والتنظيم مثله ، ومنه نظمت الشعر وتنظمت ، ونظم الأمر على المثل .
- ٣ - وكل شئ قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته .
- ٤ - النظم : المنظوم وصف بالمصدر .
- ٥ - النظم : ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما واحده نظام .
- ٦ - ونظم الحنظل : حبه فى صيصائه (١) .
- ٧ - النظام : ما نظمته فيه الشئ من خيط وغيره ، ونظام كل أمر ملاكه والجمع أنظمة وأنظيم ونظم .
- ٨ - النظم : نظمك الخرز بعضه إلى بعض فى نظام واحد كذلك هو فى كل شئ حتى يقال : ليس لأمره نظام أى لا تستقيم طريقته .
- ٩ - النظام : الخيط الذى ينظم به اللؤلؤ وكل خيط ينظم به اللؤلؤ أو غيره فهو نظام وجمعه نظم قال الشاعر :

• مثل الفريد الذى يجرى متى النظم (٢) •

- ١٠ - الانتظام : الاتساق ، وفى حديث أشراف الساعة « وآيات تتابع كنظام بالقطع سلكه » .
- ١١ - النظام : العقد من الجوهر والخرز وغيرهما وسلكه خيطه .
- ١٢ - النظام : الهدية والسيرة . ومنه ليس لأمرهم نظام أى ليس له هدى ولا متعلق ولا استقامة ، وما زال على نظام واحد أى عادة .
- ١٣ - تناظمت الصخور : تلاصقت .
- ١٤ - والنظامان من الضب : كشيتان منظومتان من جانبي كليتيه طويلتان .

(١) الصيصاء : حب الحنظل الذى ليس فى جوفه لب . انظر لسان العرب ص ٥١ ج ٧ .

(٢) النظم : جمع نظام والنظام الخيط الذى ينظم به اللؤلؤ . لسان العرب ص ٥٧٨ مادة نظم .

١٥ - ونظاما الضبة وأنظاماها : كشيّتان وهما خيطان منتظمان بيضا
يبتدآن جانبها من ذنبا إلى أذنبا، ويقال : في بطنها أنظامان من بيض وكذلك
أنظاما السمكة . حكى عن أبي زيد « أنظومتا الضب والسمكة » وقد نظمت
ونظمت بالتشديد ، وانظمت وهي ناظم ومنظم ومنظم ذلك حين تمتلئ من
أصل ذنبا إلى أذنبا بيضا، ويقال نظمت الضبة بيضا تنظيماً في بطنها ونظمها
نظماً وكذلك الدجاجة انظمت إذا صار في بطنها البيض .

١٦ - والانظام : نفس البيض المنظم كأنه منظوم في سلك .

١٧ - والانظام : من الحرز خيط قد نظم خرزاً ، وكذلك أناطم
مكن الضبة .

١٨ - ويقال جاءنا نظم من جراد ، وهو الكثير .

١٩ - ونظام الرمل وأنظامته : صفرته وهي ما تعقد منه .

٢٠ - ونظم الحبل سكه وعقده .

٢١ - ونظم الخواص المقل ينظمه شكه وظفره .

٢٢ - والنظام شكائك الحبل وخلله .

٢٣ - وطعنه بالرمح فانتظمه أى اختله .

٢٤ - وانتظم ساقيه وجانيبه كما قالوا : اختل فواده أى ضمها بالستان
وقد روى :

• لما انتظمت فواده بالمطرد •

قال أبو زيد : « الانتظام للجانبين والاختلال للفواد والكبد » وقال
الحسن في بعض مواعظه : « يا ابن آدم عليك بنصيبك من الآخرة فإنه يأتي
بك على نصيبك من الدنيا فتنتظمه لك انتظاماً ثم يزول معك حيثما زلت » .

٢٥ - وانتظم الصيد : إذا طعنه أو رماه حتى ينفده . وقيل : « لا يقال
انتظمه حتى يجمع رميتين بسهم أو رمح » .

٢٦ - والنظم : الثريا على التشبيه بالنظم من اللؤلؤ . قال أبو ذؤيب :

فوردن والعميق مقعد رابيء الظرباء فوق النظم لا يقتلع

٢٧ - والنظم أيضاً : الدبران الذى يلى الثريا (١) .

وأورد الزمخشري فى أساس البلاغة :

١ - نظم وانتظم رواه بسهم وطعنه فانتظم ساقيه أو جبينه قال الأفره :

تجلى الجمجم والأكف سيوفنا ورماحنا بالطنن تنتظم الكلى

٢ - وجاءنا نظم من جراد . ونظام منه صف .

٣ - ونظمت النخلة : قبلت اللقاح ، وخردلت إذا لم تقبل .

٤ - نظم يقال نظمت الدر ونظمته ، ودر منظوم ومنظم ، وقد انتظم وتنظم ، وتناظم . وله نظم منه ونظام ونظم ، ومن المجاز نظم الكلام ، وهذا نظم حسن . وانتظم كلامه وأمره .

٥ - وليس لأمره نظام ، إذا لم تستقم طريقته ، وتقول هذه أمور عظام لو كان لها نظام .

٦ - وهذان البيتان ينتظمهما معنى واحد .

٧ - ونظمت الضبة والسمة ونظمت فهى ناظم ومنظم امتلات من البيض فى بطنها أنظامان وهما الكشيتان ، وأنظام (٢) .

وفى المعجم الوسيط ورد من معانى مادة « نظم » :

١ - نظم الأشياء : ألفها وضم بعضها إلى بعض .

٢ - وانتظم الشيء تألق واتسق .

٣ - والنظام : الترتيب والاتساق .

(١) لسان العرب المجلد الثانى عشر ص ٥٧٨ ، ٥٧٩ لابن منظور طبعة دار صادر . بيروت .

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ص ٦٤١ طبعة دار بيروت .

٤ - ونظم القرآن : عبارته التي تشمل عليها المصاحف صيغة ولغة « (١) »

وفي المصاحف للجوهري :

١ - المنظمة والتنظيم : تأليف أجزاء متآزرة لأداء غرض معين .
أو المجموع المؤلف على هذا النحو .

٢ - والمنظمة والتنظيم : سلوك الطرق والأسباب العلمية في إنشاء
الوحدات الإدارية لمشروع ما ، وتحديد الاختصاصات وتوزيعها ، وربط
الإمكانات المادية والمالية والبشرية والتنسيق فيها لتنفيذ المشروعات العامة .

٣ - المنظمة والتنظيم : فن يرمى إلى تنظيم المعرفة منهجياً على أسس
منطقية (٢) .

وأورد الفيروز ابادي في القاموس المحيط :

١ - النظم : التأليف وضم شيء إلى شيء آخر ، والمنظوم ، والجماعة
من الجراد ، وثلاثة كواكب من الجوزاء ، وأثرى ، والذبران .

٢ - ونظم اللؤلؤ ينظمه نظاماً ونظاماً ، ونظمه ألفه وجمعه في سلك فانتظم
وتنظم .

٣ - وانتظمه بالرمح . اختله .

٤ - النظام : كل خيط به اللؤلؤ ونحوه ، جمعه أنظمة ، وأنظيم ، ونظم .

٥ - النظام : ملاك الأمر ، والسيرة ، والهدى والعادة .

٦ - ونظاما السمكة والضب ، وإنظامهما ، بالكسر ، وأنظمتاهما
بالضم خيطان منظومان بيضا من الذنب إلى الأذن .

٧ - الإنظام : نفس البيض المنتظم ، ومن الرمل ما تعقد منه كظامه ،
وكل خيط نظم خرزاً .

(١) المعجم الوسيط الجزء الثاني ص ٩٤١ .

(٢) انظار المصاحف للجوهري المجلد الثاني ص ٥٨٤ .

٨ - النظام : لقب إبراهيم بن سيار النظام ، ومحمد بن عبد الجبار الشاعر الأندلسي (١) .

وفي جمهرة اللغة لابن دريد :

١ - النظم : نظمك الخرز وغيره ، ونظم ينظم نظاماً ونظاماً ونظم تنظيماً .

٢ - النظام : كل شيء منظوم .

٣ - النظم : كواكب في السماء تسمى النظم ، وهي من نجوم الجوزاء .

٤ - ويقال : انتظمت الصيد : إذا لحقته أو رميته حتى تنفذه . وقال بعضهم لا يقال انتظمت حتى تجمع بين رميتين بسهم أو برمح (٢) .

وفي تهذيب اللغة للأزهري :

١ - النظم : نظمك الخرز بعضه إلى بعض في نظام واحد ، كذلك هو في كل شيء حتى يقال ليس لأمره نظام أى لا تستقيم طريقته ، حتى يقال : طعنه بالرمح فانتظم ساقيه أو جنبه .

٢ - النظامان من الضب : كشيتان من الجانبين منظومتان بيضا من أصل الذنب إلى دبرة الأذن ، وكذلك الإنظامان . يقال : في بطنها إنظامان من بيض وكذلك إنظاما السمكة ، يقال : نظمت فهي منظم ، ونظمت فهي ناظم وذلك حين تمتلئ من أصل أذنها إلى ذنبها بيضا ، وكذلك الدجاجة تنظم .

٣ - ويقال : نظمت الضبة بيضا تنظيماً في بطنها . ونظمتها نظاماً .

٤ - الإنظام من الخرز خيط قد نظم خرزاً وكذلك أناظم مكن الضبة .

٥ - وقال الكسائي : جاءنا نظم من جراد وهو الكبير .

٦ - والجماعة نظم .

٧ - النظمة : كوكب الثريا (٣) .

(١) القاموس المحيط للفيروزابادي الجزء الرابع ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) جمهرة اللغة لابن دريد الجزء الثالث ص ١٢٥ .

(٣) تهذيب اللغة للأزهري الجزء الرابع ص ٣٩١ .

تلك المعانى التى استقصيناها من أهم معاجم اللغة للفحص عن مادة «نظم»
توضح المعنى الأصلى الذى كان العرب يستعملون فيه هذه المادة .

وهذا المعنى يبدو فى ظاهره متعدداً فهو يتناول الماديات والمعنويات
كما مر معنا ، إذ أن من معانى النظم عند العرب نظم اللؤلؤ فى الخيط والخيط
نفسه ، ومنه معنى الاتساق والائتلاف بين الأمور المعنوية كقولهم : النظم
الشعر الحسن ، والنظم المنظوم وصف بالمصدر ونظام كل أمر ملاكه ومنه
ليس لأمرهم نظام أى لا تستقيم طريقته .

وأهم تلك المعانى يدور حول معنى الاتساق والائتلاف . وما ذكره
أولئك اللغويون يعيد إلى الأذهان ما ذكره قدامة بن جعفر فى كتابه نقد الشعر
« عن الائتلاف بين اللفظ والمعنى وبين اللفظ والوزن وبين المعنى والقافية (١) »
وهذا يعيننا على رد تلك المعانى إلى المدلول الأصلى لمادة «النظم» الذى يوحى به
مفهومها وهو الاتساق والائتلاف والتناسب بين الأجزاء فإن نظم اللؤلؤ
فى الخيط يستوجب التناسب فى أحكام الصنعة ل يبدو العقد سليماً فى مظهره ،
وكذلك نظم الكلام يتطلب دقة الأحكام ووضع كل لفظة بجانب أختها
صنيع ناظم اللؤلؤ وحائك الخيوط .

وإذا أردنا تتبع معنى هذه المادة عند الأدباء والبلاغيين وجدنا لهذه
اللفظة معانى كثيرة بعضها يتحد مع المعنى الذى بينه اللغويون ، وبعضها يرمى
إلى معنى آخر .

فهى عند الجاحظ ترد مرادفة للتأليف ، نلاحظ ذلك المعنى فى معرض حديثه
عن القرآن إذ يقول : « إن الرسول صلى الله عليه وسلم تحدى البلغاء والخطباء
والشعراء بنظمه ، وتأليفه » .

وعنده فى بعض المقامات الأخرى ترد بمعنى « البيان والإنشاء » (٢) .

(١) انظر نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ٢٤ مطبعة السعادة بالقاهرة . تحقيق كمال
مصطفى ،

(٢) نظرية عبد القاهر فى النظم للدكتور درويش الجندى ص ٢٣ مطبعة الرسالة .

وعقد أبو هلال العسكري في « الصناعتين » باباً سماه « حسن النظم » بين فيه معنى النظم بأنه : « التأليف والرصف والضم » ، إذ يقول : « وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها ، وتمكن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعنى المعنى ، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها ، وتضاف إلى لفقها . وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيرها منها ، وصمرفها عن وجوها ، وتغيير صيغها ومخالفة الاستعمال في نظمها .

ويستطرد أبو هلال في شرح معنى النظم ، وأنه جودة الرصف وحسن السبك بضرب الأمثلة قائلا :

فمن سوء النظم المعازلة ، وأصلها من قولهم : تعازلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى ، وعازل الرجل المرأة كذلك . ومن المعازلة قول الفرزدق :

تعال فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحيبان

وقوله :

إلى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره

وقوله :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

قال : ومن الكلام المستوى النظم ، الملتئم الرصف قول بعض العرب :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً ؟ كأنك لم تجزع على ابن طريف
ففي لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

والمنظوم الجيد ما خرج مخرج المشور في سلاسته وسهولته واستوائه وقلة ضروراته ، من ذلك قول بعض المحدثين :

وقوفك تحت ظلال السيوف أقر الخلافة في دارها
كانك مطلع في القلوب إذا ما تناجت بأسرارها (١)

وأمثلة أبي هلال كافية في إيضاح ما أورده عن معنى النظم الذى منه حسن السبك ، وجودة الرصف ، والثام أجزاء الكلام فإن ما ذكره من الأبيات لا تكاد تجد فيها ما يخرجها عن النظم الحسن التأليف .

ونجد معنى النظم عند ابن سنان الخفاجى « ت ٤٦٦ هـ » ضم الشيء إلى الشيء ، وهذا يخالف ما ذكره أبو هلال عن معنى هذه المادة ، إذ أن النظم بمعنى ضم الشيء إلى الشيء يدخل فيه كل كلام منظوم خاضع لقوانين الأسلوب العربى أو غير خاضع ، كما سنلاحظ ذلك عند الحديث عن معنى النظم عند عبد القاهر الجرجاني وتتبع قوله فيه .

والنظم عند عبد القاهر : نظير النسيج والصياغة والبناء والوشى والتحجير مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض ، ولذا يجىء النظم عنده بمعنى الترتيب ، ترتيب الألفاظ فى العبارة على حنو ترتيب معانيها فى الذهن ، بل النظم فى حقيقته عند عبد القاهر ترتيب للمعاني فى النفس ، فلا بد أن يكون الهدف من هذا الترتيب صورة وصنعة إذ لا يكون ترتيب فى شيء كما يقول عبد القاهر - حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة ، وهذا القول يقضى بنا إلى تتبع فكرة النظم عند هذا العالم إذ هى محور بحوثه البلاغية والنقدية ، فامعناها وما مفهومها عنده .

زيادة على ما مر ذكره عن معنى النظم عند عبد القاهر نلاحظ أن من معانيه أيضاً « التعليق » إذ يقول : « وليت شعري كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى .

ومعنى القصد إلى معانى الكلم أن تعلم السامع شيئاً لا يعلمه ، ومعلوم أنك

(١) انظر الصناعتين لأبي هلال ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ مطبعة الحلبي بتحقيق

عل البجاوى ومحمد أبى الفضل إبراهيم .

أياها المتكلم لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تسكلمه بها فلا تقول خرج زيد لتعلمه معنى خرج في اللغة ومعنى زيد كيف ؟ ومحال أن تسكلمه بالفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف ولهذا لم يكن الفعل وحده من دون الاسم ، ولا الاسم وحده من دون اسم آخر أو فعل كلاماً . وكنت لو قلت « خرج » ولم تأت باسم ، ولا قدرت فيه ضمير الشيء أو قلت زيد ولم تأت بفعل ولا اسم آخر ولم تضمره في نفسك كان ذلك وصوتاً تصوته سواء « (١) .

* * *

وفكرة النظم عند عبد القاهر تقوم على أسس ومعالم من أبرزها علم النحو لاشتماله على الألفاظ والتراكيب إذ يقول : « النظم توخى معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام » ومعاني النحو إذا هي التي تعلق بها الفكر وهي تمثل العلاقات بين معاني الكلم في النفس وإليها ستند ترتيب هذه المعاني في النفس ، « ولا تصور أن يكون للفظه تعلق بلفظة أخرى من غير أن يعتبر حال معنى هذه مع معنى تلك وبراعى هناك أمر يصل إحدهما بالآخرى كمرعاة كون « نيك » جواباً للأمر في قوله : « قفانيك » .

وكان تعتمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيداً له أو بدلاً منه أو تنجي باسم بعد تمام كلامك على أن يكون التالي صفة أو حالاً أو تمييزاً أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى : أن يصير نفياً ، أو استفهاماً ، أو تنمياً فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر ، فنجيئهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف . وعلى هذا القياس . ذلك هو معنى النظم فلا نظم في الكلم ولا ترتيب إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه (٢) .

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٣١٤ ، ٣١٦ ونظرية عبد القاهر في النظم للدكتور درويش

الجندي ص ٥٣ .

(٢) نظرية عبد القاهر في النظم للدكتور درويش الجندي ص ٥٤ مطبعة الرسالة .

ويمضي عبد القاهر في شرح فكرة النظم قائلا ما معناه : « إذا كان النظم درجات يمكن أن ترد إلى درجتين أساسيتين ، الأولى : لا تكاد تتعدى مرحلة الصبحة والصواب ، والأخرى تتعدى هذه المرحلة إلى مناط الفضيلة » فليس النظم على كلتا الدرجتين كما يقول عبد القاهر إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل منها بشيء ، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد .. وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : إن تخرج أخرج ، وإن خرجت خرجت وإن تخرج فأنا خارج وأنا خارج إن خرجت ... وفي الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص مغناه فينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من مواضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصول موضع الواو من موضع الفاء .. إلخ .. ويتصرف في التعريف والتشكيك والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له « هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغى له ، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظمه أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وكان مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ، وإلا وجدت ذلك الوصف يدخل في أصل من أصول النحو ويتصل بباب من أبوابه .

ودرجات النظم التي لا تتعدى دائرة الصحة إلى دائرة الفضائل والمزايا مرجعها عند عبد القاهر حسن التخير في دائرة الحدود التي حدها النحو وإلى اهتمام الناظم إلى الأولى والأفضل وما يلائم المقام من معاني النحو .

وإذا حسن تخير معاني النحو في الكلام وتوخى الملائم منها للمقام اتحدت أجزاء الكلام ودخل بعضها في بعض واشتد ارتباط ثان منها بأول ووضعت في نفس السامع وضعا واحداً لا تفرق فيه فكان حال القائل لمثل هذا الكلام حال الباني يضع يمينه هنا في حال ما يضع ييساره هناك .. وليس لما من شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره وقانون يحيط به « (١) » .

وهكذا يفصل عبد القاهر في فكرة النظم على ما هو معروف في علم النحو من أن الكلام اسم وفعل وحرف وللتعليق بينها طرق معلومة ، ويتوسع في مفهوم هذه الفكرة فيجعل « الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيها بينها حكم من أحكام النحو فلا يتصور فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره، ويرى أن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته من ذلك قول الله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » . فالمزية الجلييلة في هذا لا ترجع إلى مجرد الاستعارة ولكنها ترجع إلى المحجىء بالاستعارة على طريق ما يسند فيه الفعل إلى الشيء ... إلخ .

وإذا كان هناك من ملاحظة على عبد القاهر في شرح فكرة النظم وجعلها بسبب وثيق من النحو « فذلك أنه لم يقف عند معاني النحو بين أسرارها ووجوه جمالها في معظم ما عرضه من الأمثلة ، فإذا كان قد ذكر فيها جاء به من الأمثلة أن النظم هو توخى معاني النحو . فإنه لم يشرح معنى هذا التوخي ولا سر جماله ، فهل كانت المسألة من الوضوح عند عبد القاهر إلى درجة لا تحتاج منه إلى شرح وتبيين . كيف ؟ وهو يهدف منها إلى الإقناع بإعجاز القرآن بنظمه وهل يقتنع منكر الإعجاز بأن نقول له أن الكلمة مبتدأ وتلك خبر عنها وهذا فعل وذلك فاعل له (٢) . ؟

(١) نظرية عبد القاهر في النظم للدكتور درويش الجندي ص ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٠ مطبعة الرسالة .

(٢) عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية للدكتور أحمد بدوي ص ١١٦

ولا شك أن عبد القاهر في كلامه هذا إنما يقصد كلام البشر الذين يتوخون مثل هذه المقاصد ويتعملون لها ويؤلفون كلامهم على حذوها .

وليس كذلك القرآن الكريم الذى لا تعمل فيه لأنه تنزيل من رب العالمين ينتظم التراكيب ومعانيها من غير حاجة إلى ما يحتاج إليه البشر في نظم العبارة أو تأليفها .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام « أن فكرة النظم عند عبد القاهر ابتدأت بنظرة فلسفية في اللغة حيث تحدث عن دلالات اللفظ وحكمه في المواضع ، وتأثيره مفرداً ومركباً ، ثم انتهى إلى الذوق الشخصى الذى هو المرجع الأخير لكل باحث ودارس (١) » وهذه الفكرة عنده ترتكز على دعائم ثلاث : اللفظ ، المعنى ، الذوق .

« وعنده أن دراسة النظم لا تقف عند أمر الصحة وعدمها بل تتعدى إلى الجودة . وبعبارة أخرى : يمزج عبد القاهر النحو بما سماه البلاغيون فيما بعد علم المعاني » (٢) .

وقبل أن نتجاوز فكرة النظم عند عبد القاهر إلى غيره ، يجدر بنا أن نشير إلى أن هذه الفكرة لم يكن عبد القاهرة مخترعاً لها ومبتكراً ، ولكنه بسط القول فيها وألبسها ثوباً قشياً ، فقد سبقه إليها : أبو عبد الله محمد ابن زيد الواسطى (ت ٣٠٧ هـ) الذى ألف كتاباً سماه : « إعجاز القرآن في نظمه » وهذا الكتاب مفقود لا يذكر عنه الباحثون شيئاً سوى اسمه . واسم صاحبه ، إلا ما كان من « الرافعى » في كتابه « إعجاز القرآن » إذ يقول عن كتاب الواسطى : « ولا نظن الواسطى بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ ، كما بنى عبد القاهر في « دلائل الإعجاز » على الواسطى . والرافعى بهذا القول كالمطلع على الكتاب ذاته ، ولست أذكرى على أى شيء اعتمد ؟

(١) انظر كتاب : في الميزان الجديد للدكتور محمد مندور ص ١٨٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٩ .

ومن سبق عبد القاهر إلى فكرة النظم : الجاحظ في كتابه المفقود «إعجاز القرآن بالنظم» ، وكذلك أبو هلال العسكري في الصناعتين حيث عقد باباً خاصاً بالنظم تحت عنوان «الباب الرابع في البيان عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك» (١) .

ومن سبق عبد القاهر القاضي عبد الجبار صاحب المغنى ، بل «إن فكرة النظم قد ظهرت واضحة في الصراع الذي أثاره امتزاج الثقافات وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ، ودفاع حملة العربية عن تراثهم الخالد ومنه ثقافتهم النحوية .

ومن مظاهر هذا الصراع : تلك المناظرة الحادة التي قامت بين أبي سعيد السيرافي النحوى (ت ٣٦٨ هـ) وبين أبي بشر متى بن يونس في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات (٢) !

• • •

وأخيراً قد عرضنا في هذا الفصل لبعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، وتقصينا المعاني لمادة «نظم» عند اللغويين ، والبلاغيين ، والأدباء .

ومما تجدر الإشارة إليه : أن هذه المادة حين دخلت البحوث البلاغية أصبحت نظرية لها أصولها ، وقوانينها كما رأينا ذلك عند عبد القاهر الجرجاني وكما أوقفنا عليه جهود العلماء المعاصرين ممن تناولها بالبحث والدراسة .

ومن خلة من تناولها من الباحثين المعاصرين : الدكتور درويش الجندي في كتابه : «نظرية عبد القاهر في النظم» الذي بين فيه المعالم التي رسمها عبد القاهر لفلسفة هذه النظرية . وكنت أتطلع إلى شرح واف يبرز تلك المعالم ويكشف عن غوامضها للدارسين الذين قد يلتبس على بعضهم مقصد

(١) انظر الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٦٧ تحقيق على البجاوى ومحمد أبي الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي .

(٢) انظر البيان العربي للدكتور بدوى طبانه ص ٢١٩ الطبعة الرابعة .

عبد القاهر من كل فكرة يسوقها ، لما يتميز به أسلوبه من تداخل وقوة قد تحجب عن الأذهان ما يرى إليه هذا العالم النحرير ، غير أن ما كتبه الدكتور « درويش الجندى » ما هو إلا عود على بدء ، بل مجرد نقل وحشر شواهد معظمها من دلائل الإعجاز .

وكان مما يتطلبه البحث في كتاب « نظرية عبد القاهر في النظم » أن يقفنا صاحبه على تتبع مادة « نظم » واستخلاص معانيها عند العرب من معاجم لغتهم ، مع سياق الأمثلة من غير شواهد عبد القاهر ثم التعرض لها بالتحليل والتعليق حتى تكتمل معالم النظرية ، وتصيح شاهد عيان للدارسين .

ومما نفقد فيه تلك المعالم : ما كتبه الدكتور : أحمد أحمد بدوى عن عبد القاهر في سلسلة « أعلام العرب » وهو يعرض لفكرة النظم عنده . إذ لم يزد على ما ذكره عبد القاهر شيئاً سوى تتبع آرائه من غير تحليل أو استقصاء ، ولا شك أن عملاً كهذا يصم البحث العلمى ، ويصيب آراء الدارسين بالعمم ، ألم تر أن الكاتبتين معاصران ، وأن أحدهما قد أخذ عن الآخر ؟ فأى زيادة ، أو ابتكار ذكره أحدهما عن نظرية النظم عند عبد القاهر سوى استقصاء آرائه وإعادة أمثلته وشواهد له كان النظم معلق بتلك الأمثلة ، وتلك الشواهد .

والآن نعرض طائفة من أقوال بعض العلماء في الإعجاز بالنظم ونتناول بعض ما قالوه بشيء من التفصيل ، وليكن أول من نؤمى إليه عبد القاهر الجرجاني لشدة تمكنه من فكرة النظم ، ومناداته بها .

عبد القاهر الجرجاني ورأيه في الإعجاز بالنظم :

نحن الآن مع شيخ البلاغة ، وإمامها الذى رفع قواعدها وأحكم بناءها ، « ورأيه في الإعجاز بالنظم قائم على التربية الفنية . تربية الذوق والإحساس والشعور ، وذلك بممارسة أى نص أدبى أو قرآنى . حتى إذا ما ألف الذوق

النقد مارس النص القرآني باحثاً عن الجمال فيه. ففي نظمه يكمن سر إعجازه (١) :
 إذا كان عبد القاهر يقرر أن تربية الذوق إحدى الدعائم التي يعين
 على إدراك سر الإعجاز بالنظم في القرآن . فما دليله على ذلك ؟ . إننا نجد
 الدليل واضحاً فيما يسوقه من الآثار الأدبية والنصوص القرآنية مفسراً ومحللاً
 اقرأ قوله في دلائل الإعجاز : « إنكم تتلون قول الله تعالى :
 « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون
 بمثله » وقوله عز وجل « فأتوا بعشر سور مثله » وقوله : « بسورة
 من مثله » .

فقولوا الآن : أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن
 يتحدى العرب أن يعارضوا بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذي
 جاءهم من قبله التحدى .

ولابد في الجواب من « لا » لأنهم إن قالوا يجوز أبطلوا التحدى من حيث
 أنه — كما لا يخفى — مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف ، ولا تصح المطالبة
 بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوماً للمطالب
 ويبتل ذلك دعوى الإعجاز أيضاً (٢) .

هذا الوصف الذي يمهّد به عبد القاهر . أيكون في اللفظة المفردة ؟
 أم في التركيب ؟ أم في المعاني ؟ أم في الحركات والسكنات ؟ أم في المقاطع
 والفواصل ؟ أم فيما يجد من صورة بديعة مبنية على استعارة أو تشبيه ؟ .
 إذا امتنع إعجاز لدى عبد القاهر بهذا كله فيما ذا يكون ؟ . إن الإشارة إلى
 الممهّد به لا يعين على فهمه إلا فحصه بتذوق النظم وحلاوته فيالنظم والتأليف
 يكون الإعجاز وليس هذا الأمر إلا في القرآن .

وهذا شاهد على ما ذكره عبد القاهر ، وذهب إليه في الإعجاو بالنظم
 إذ يقول : في كتابة دلائل الإمعجاز : « هل تشاك إذا فكرمت في قولة تعالى :

(١) انظر إعجاز القرآن البيهقي للكتوريد حفي محمد شرف ص ١٠٢ مطابع الأهرام.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٤٦ طبعة المراهي .

« وقيل يا أرض ابلى ماءك وباسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين ». فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذى ترى وتسمع . أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضاً ببعض . وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ؟ وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها ، وأن الفضل نتائج ما بينها وحصل من مجموعها ؟

إذا شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه ، وهى فى مكانها من الآية ؟

قل « ابلى » ، واعتبرها وحدها . من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها . وكيف بالشك فى ذلك ؟ ، ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم كان النداء « يا » دون « أى » نحو يا أيتها الأرض ، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : ابلى الماء ، ثم أن اتبع نداء الأرض ، وأمرها بما هو من شأنها . نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل : « وغيض الماء » فجاء الفعل مبنياً للمفعول ، وتلك الصيغة تدل على أنه لم يفيض إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : « وقضى الأمر » ، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو « استوت على الجودى » ، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة ، والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة « قيل » فى الخاتمة « بقيل » فى الفاتحة .

أفترى لشيء من هذه الخصائص التى تملوك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هبة تحيط بالنفس من أقطارها ، تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى فى النطق ، أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب (١) ؟

(١) انظر دلائل الإيجاز ص ٣٢ ، ٣٣ طبعة المرافى .

وبمثل هذا الأسلوب التحليلي الرائع يصل عبد القاهر إلى ما يريد من تقرير ما أسلف ، من أن الشأن للنظم كاملاً ، ولا شيء من الاعتبار للفظ وحده قبل أن يدخل في هذا النظم المعجز ، ولا شك أن تحليل عبد القاهر للآية الكريمة تحليل خبير بدرجات الكلام هداه إليه فكر ثاقب ، وبصيرة نيرة . وذوق سليم .

ويشير الدكتور بدوى طبانة في كتابه « البيان العربى » إلى أن عبد القاهر في عرضه لهذه الآية - نسي فضل الألفاظ المختارة فهناك قبل هذا النظم ، وهذا التلازم الذى فصله ، وهذا الوضع للكلمات على هذا النسق العجيب تخير لكل لفظ ، ولا شك أن هنالك ألفاظاً غير هذه الألفاظ كان يمكن أن تؤدى بها هذه المعانى ، ولكن الفضل يظهر فى التخير والانتقاء المبني على تفضيل لفظ على لفظ آخر (١) .

ولو أردنا استقصاء الأمثلة والشواهد التى ساقها عبد القاهر من القرآن الكريم ومأثور كلام العرب لأفضى بنا ذلك إلى الاستطراد . وما ذكره من ذلك قار فى مواضعه من كتابيه : أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز يمكن لأى باحث الوقوف عليه .

والآن نتجاوز عبد القاهر إلى غيره من العلماء ممن سبقه ، ومن جاء بعده ورأى الإعجاز بالنظم .

لعل من أقدم القائلين بالإعجاز بالنظم « أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ » (ت ٢٥٥ هـ) الذى ألف كتاباً عن إعجاز القرآن فى نظمته ، غير أنى لم أجد هذا الكتاب ، وكل ما يذكره عنه الباحثون « اسمه فقط » ويستخرجون رأى الجاحظ ، وقوله فى الإعجاز بالنظم من بين ثنايا كتبه على طريقته فى - الاستطراد ، والخروج من مسألة إلى أخرى ، وخلاصة ما يراه فى الإعجاز بالنظم يتضح من قوله الذى نقله المبرد فى هامش كتابه « الكامل » « إن محمد صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلاقة لها فى العقل كموقع فلق البحر من العين .

(١) انظر البيان العربى للدكتور بدوى طبانة ص ٢٢٧ الطبعة الرابعة .

وذلك قوله صلى الله عليه وسلم لقريش خاصة والعرب عامة مع ما فيها من الشعراء ، والخطباء ، والبلغاء ، والدهاة ، والحكماء ، وأصحاب الرأي والمكيدة والنظر في العاقبة : إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي ، وصدقتم في تكذبي . قال الجاحظ : ولهم بعد ذلك أصناف النظم ، وضروب التأليف . كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس . ثم هم بعد ذلك التحدى عرفوا عجزهم ، وأن ما طلب منهم لا يتيها لهم فرأوا الإضراب عن ذكره ، والتغافل عنه أسلم لهم في هذا الباب (١) .

ومن رأى الجاحظ في الإعجاز بالنظم قوله : « وفي كتابنا الذى يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد . ما سوى ذلك من الدلائل التى جاء بها (٢) » .

كما أن الجاحظ قد فطن إلى أن لألفاظ القرآن ميزة أزيد على غيره من حيث النظم ، وهى : إتيان بعض ألفاظه مقترنة متصاحبة . لا تكاد تفرق . كالصلاة والزكاة ، والجوع والخوف ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس (٣) .

وهذه الفطنة تدلنا أيضاً على رأيه وقوله بالإعجاز بالنظم ، وهذا محصل ما قاله في هذا الصدد .

وإلى جانب اهتمام الأدباء وأهل اللغة بإبراز مزايا النظم القرآنى وأسلوبه تعرض أهل الحديث والفقه للرد على الشبهات التى أثبتت حول أسلوب القرآن ونظمه ، وبلاغته .

وفي جملة أولئك ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في كتابه « تأويل شكل القرآن » الذى يعد من الآثار الجليلة التى خدمت لغة القرآن ، وأسلوبه وقد غنى فيه بالحجاز ، وتوسع في مفهومه ، والذى يهمننا منه في هذا المقام رأيه في الإعجاز بالنظم . إذ يقول في مقدمة كتابه :

(١) : (٢) ، (٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ص ١٩ طبعة دار الفكر ، وإعجاز البيان للدكتور حنن محمد شرف ص ٢٣ ، ٢٦ مطابع الأهرام ، وأثر القرآن في تطور النقد العربى للدكتور محمد زغلول سلام ص ٨١ الثانية دار المعارف .

« الحمد لله الذى نهج لنا سبل الرشاد ، وهادانا بنور القرآن ، ولم يجعل له عوجاً . بل نزله قيماً مفصلاً بيناً . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وقطع بمعجز التأليف أطماع الكائدين ، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلمين ، وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة ، ومسموعاً لا تمجه الآذان . وغضاً لا يخلق على كثرة الرداد . وعجيباً لا تقضى عجائبه . ومفيداً لا تنقطع فوائده وجمع الكثير من معانيه فى القليل من لفظه (١) » .

هذا ملخص بعض أقوال ابن قتيبة فى الإعجاز بالنظم ، ولم يزل الميسدان فسيحاً لغيره فهذا الرمانى (ت ٣٨٦ هـ) فى رسالته النكت فى إعجاز القرآن ينصح عن رأيه قائلا ضمن باب عقده تحت عنوان « باب التلاوم » : « التلاوم نقيض التنافر ، والتلاوم تعديل الحروف فى التأليف ، والتأليف على ثلاثة أوجه : وذلك بين لمن تأمله والتلاوم فى التعديل من غير بعد شديد يظهر بسهولته على اللسان ، وحسنه فى الأسماع وتقبله فى الطباع . فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الإعجاز » .

ويقول الرمانى وهو يناقش الوجوه التى ذكرها فى الإعجاز : إن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة . منها الشعر ، ومنها السجع . ومنها الخطب ، ومنها الرسائل ، ومنها المنشور الذى يدور بين الناس فى الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة (٢) » .

وقد ساق الرمانى مقارنة بين قول الله تعالى : « ولكم فى القصص حياة »

(١) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٠ ، ورسالة فى الإعجاز للدكتور مصطفى مدلم ص ٧٣ .

(٢) انظر النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ص ٨٧ ، ٨٨ وما بعدها تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام مطبعة دار المعارف بمصر ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرمانى والخطاين وعبد القاهر .

وبين القول المأثور عن العرب : « القتل أنى للقتل » وهذه المقارنة من صميم قوله بالإعجاز بالنظم .

وبعد الرماني نلتقي بأبي سليمان حمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) في رسالته : بيان إعجاز القرآن لتقف على رأيه في الإعجاز بالنظم .

قال بعد أن عدد بعض وجوه الإعجاز التي ذهب إليها بعض العلماء : « إن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة » . . . إلى آخر ما ذكره عن أوصاف الكلام المحمود ، والكلام المذموم وبعده ينفذ إلى القول بالإعجاز بالنظم على حد قوله :

« ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً ، وأشد تلاوفاً وتشاكلاً من نظمه فتفهم الآن ، واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني من توحيد الله عزت قدرته ، وتنزيهه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته ، من تحليل ونحریم ، وحضر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها . واضعاً كل شيء في موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه . مودعاً أخبار القرون الماضية .

وبعض الخطابي قائلا : « ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم . فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته (١) » .

ومن بين من قال بإعجاز القرآن بالنظم أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) وشاهد ذلك قوله في « الصناعتين » وإنما يعرف إعجاز القرآن من جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته . في حسنه وبراعته ، وسلاسته ونصاعته ، وكمال معانيه وصفاء ألفاظه (٢) وبهذا القول وبما سبق ذكره عن

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر ص ٢٤ ، ٢٥ .

تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلا .

(٢) انظر « بحث العناية بالدراسات القرآنية في هذا المبحث » .

أبي هلال يرى أنه يقرر إعجاز القرآن في بلاغته المتميزة بالنظم البديع ، وحسن التأليف وجودة التركيب ، ولم يذكر أن أبا هلال ألف كتاباً خاصاً عن إعجاز القرآن ، وإنما قيد الوصول إلى إدراك علم البلاغة والفصاحة بالوصول إلى إدراك أسرار إعجاز القرآن الكريم ، وهذا ما قدم به كتابه الصناعتين (١) .

وعبر تلك الجولة السريعة نلتقي بالقاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى ورأيه فى الإعجاز بالنظم .

لقد كان من جليل مؤلفات هذا العالم كتابه « إعجاز القرآن » والإعجاز بالنظم عنده يرجع إلى وجوه منها :

ما يرجع إلى الجملة ، « وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه . واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظم جميع كلام الناس ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم » .

ومنها : « إن له أسلوباً يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتادة » .

ومنها اشتماله على الفصاحة والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة من غير اختلاف . « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ، ويتضح هذا الوجه من أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ، ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها من قصص ومواعظ ، واحتجاج وحكم ، وأحكام وأعدار وأنذار ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف . فى الوقت الذى ترى فيه اختلاف كلام الخطيب المصقع ، والشاعر المفلق . على حسب اختلاف هذه الأمور

ويمضى الباقلانى فى استقصاء الأدلة على إعجاز القرآن بالنظم فيقول :

(١) انظر مقدمة الصناعتين لأبى هلال ص ٧ تحقيق على الجاوى وأبى الفضل إبراهيم . طبعة الحاسب .

« ومنها نظمه البديع الذى وقع موقعات فى البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن والإنس . . فالجن يعجزون عن الإتيان بمثله كعجز الإنس ، ويقصرون دون بلاغته كقصور الإنس تماماً بتمام » وهذا الوجه قد سبق إليه الباقلانى . ولكنه أربى على من سبقه بإيراد الأدلة من القرآن الكريم ومناقشتها وعرض المقارنات الكثيرة فى ذلك . بل قد فصل القول فى نظم سورتي غافر وفصلت ، وبين دلالاته على ذلك بالتفسير والتحليل . فلنتقف معه على هذا الشاهد العظيم من سورة غافر . وهو يعرض لنظم الآية الكريمة :

« فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش ياقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يومهم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١) » .

قال الباقلانى : « قف على هذه الدلالة ، وفكر فيها ، وراجع نفسك فى مراعاة معانى هذه الصفات العالية ، والكلمات السامية ، والحكم البالغة والمعانى الشريفة ، تعلم ورودها عن الإلهية ، ودلالاته على الربوبية وتحقق أن الخطب المنقولة عن الخطباء ، والأخبار الماثورة عنهم فى كلماتهم القصيدة قد باينت الآية الكريمة .

فأى خاطر يتشوق إلى أن يقول :

« يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يومهم بارزون » .

وأى لفظ يدرك هذا المضمار ؟ وأى حكيم يهتدى إلى ما لهذا من الغور ، وأى فصيح يهتدى إلى هذا النظم ؟

ثم استقرىء الآية إلى آخرها . واعتبر كلماتها ، وراع بعدها قوله تعالى :

(١) سورة غافر الآية ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

« اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب » .
من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث . على قربها ، وعلى خفتها في النظم
وموقعها من القلب . . . (١) » .

وبنحو هذا الأسلوب التحليلي ، واستقصاء وجوه الإعجاز بالنظم عند
الباقلاني يتضح رأيه فيه .

ولصاحب المغنى القاضي عبد الجبار الهمداني المعترى رأى في الإعجاز
بالنظم ، ومذهبه في الاعتزال لا يمنعنا من الوقوف على رأيه في الإعجاز
بالنظم . فما قاله في هذا المضمار جدير بالإشارة ، والغالب على من سبق ذكرهم
من العلماء الأخذ بمذهب المعتزلة ، وعذرى في تتبع أقوالهم في الإعجاز بالنظم
أنهم فرسان هذا الميدان دون سواهم .

ألف عبد الجبار كتابه « المغنى » وخصص الجزء السادس عشر منه
لل كلام على إعجاز القرآن ، وبيان سره في ربط العبارات . واختصاصه
برتبة في الفصاحة ، ولورد على منكرى الإعجاز على طريقة المتكلمين .

وخلاصة رأيه في الإعجاز بالنظم « أن القرآن الكريم جاء بطريقة فذة
في النظم ، والتأليف مختصة برتبة في الفصاحة معجزة ، وأنه باعتبار الأمرين :
الطريقة الفذة في النظم ، والاختصاص برتبة الفصاحة يكون الإعجاز (٢) » .

وما أكثر العلماء الذين قالوا بالإعجاز بالنظم كابن الزمكاني والزرکشی
حتى السكاكي صاحب العلوم المنطقية والعقلية ، ومن بينهم الرازي والأولوسي
في المحدثين ، والرافعي ، ومحمد دراز ، وسيد قطب ، في المعاصرين .
وما قالوه في هذا المضمار قار في مؤلفاتهم يمكن لأي باحث الرجوع إليه .

* * *

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥١ وما بعدها تحقيق أحمد صقر مطبعة دار المعارف
(٢) انظر الإعجاز البياني لبنت الشاطي ص ٩٥ والمغنى لعبد الجبار الجزء السادس عشر
ص ٣١٦ وما بعدها مطبعة دار الكتب بمصر .

وبعد أن عرضنا لطائفة من أقوال أولئك العلماء حول الإعجاز بالنظم
يجدر بنا أن نلقى على ما قالوه نظرة سريعة فاحصة .

باستعراض أقوال أولئك الباحثين في الإعجاز بالنظم نرى طائفة منهم
قد اتجهت وجهة واحدة . ولخصت وجه الإعجاز بالنظم على نحو ما استقر
عليه رأى عبد القاهر الجرجاني .

ونرى طائفة أخرى صاغت هذا الوجه ألواناً وصوراً بلاغية ، وعملت
جاهدة على سرد الأدلة ، والاستشهاد بالآيات القرآنية ولم تأت بمجديد حول
ما أعادته كرة أخرى إلا ما كان من ابن أبي الأصبغ فقد ذكر أنه استخرج
من قول الله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك » نحواً من عشرين فتناً من
البديع لم يسبقه أحد إلى استخراجها . إذ يقول في كتابه « بدائع القرآن » :
وما رأيت ولا رويت في الكلام . . كآية من كتاب الله تعالى استخرجت
منها أحداً وعشرين ضرباً من البديع وعددها سبع عشرة لفظة .

وطائفة ثالثة اكتفت بسرد آراء السابقين ، حتى في الكثير من شواهدهم .
كما أن مما يسترعى النظر . أن هؤلاء الإعلام في جملة أقوالهم حول الإعجاز
بالنظم ، لم يتجاوزوا به حد اللفظ والتركيب ، إلا ما كان من عبد القاهر
الجرجاني ، والرماني . فقد نبها على حسن تأليف الحروف المتلازمة وإن ذلك
مدرك بالحس ، وزاد عبد القاهر في إدراك أسرار الإعجاز بالنظم : دعامة
الذوق السليم .

كما أن من بينهم من راح يزجي المقارنات ، والموازنات بين كلام
البشر ، وكلام الله جل وعلى . كما صنع ذلك الباقلاني في موازنته بين
لامية امرئ القيس وتحليلها ، وبين بعض من الآيات الكريمة .

وعلى الرغم من أنه لا يقصد بهذه الموازنة سوى الوصول إلى القول
بالإعجاز بالنظم فما أغناه عن هذه الموازنة لارتفاع المفاضلة بين كلام الله
سبحانه ، وكلام البشر ، ولأن القرآن في الذروة العليا من كل كلام فهو

من عند الله وكفى . ومثله صنيع الدكتور أحمد أحمد بدوى فى كتابه من
« بلاغة القرآن » (١) .

ولم يفصل أحد من هؤلاء الأعلام القول بالإعجاز بالنظم فى سورة
بعينها ، فشاهدتم فى التطبيق والتحليل تأتى عرضاً من بين بعض السور
والآيات إلا ما كان من الباقلانى فى تفصيله القول فى نظم سورتي غافر وفصلت

* * *

(١) انظر من بلاغة القرآن لأحمد أحمد بدوى ص ٣٨٨ الطبعة الثانية مطبعة نهضة مصر .

الفصل الثاني عن صغر النظم في سورة الرعد

- ٢ -

لم يرغب عن الباحثين من علماء الأدب ونقاده أن الأدب يؤثر فينا باجتماع
عنصرية الأصليين : اللفظ والمعنى . وإن كانت الحقيقة أن اللفظ والمعنى
مثلان تمثيلا كاملا ما يراد نقله إلى المتلقى فكراً وعاطفة أو انفعالا ، أو تخيلا ،
أو تصويراً فهماً في الحقيقة شيء واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر إلا كما
تفارق الروح الجسد فتركهم مواء لا حياة فيه ، ولا يستدل على الروح إلا إذا
كانت متحيزة في ذات من الذوات أو جسد من الأجساد .

والفائدة كلها منوطة بالجملة والتركيب ، أما أجزاء هذا التركيب فإنها
لا تغني وحدها .

ولكن مما لا شك فيه أن الكل تتكون قيمته بقيمة الأجزاء التي تكون
منها هذا الكل ، فإن البناء لا يكون سليماً قوياً قادراً على الحياة إلا بسلامة
الدعائم التي أقيم عليها ، وسلامة اللبنة التي تتكون منها .

ومن هذا المنطلق تكلم أكثر علماء البلاغة في قيمة الألفاظ المفردة ، لأن
سلامة الكل تتبع سلامة الجزء فرب لفظة غريبة أو وحشية كدرت عبارة
طويلة ، وذابت بسمات الحسن والجمال الذي اجتمع في كثرتها .

ومنذ قديم وجدنا من العلماء من تكلم في اللفظ الأدبي في حال إفراده ،
وجعل له صفات ومعالم تتأكد بها جودته ، ويفضل بها غيره من سائر
الألفاظ . ومن هؤلاء الباحثين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٢٥هـ)
الذي صرح بمذهبه في تفضيل اللفظ ، وتقدير العبارة ، وغالى في هذا التفضيل

حتى لقد ذهب إلى أن « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة وزن الكلمة ، وتمييز اللفظ ، وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك (١) » .

وقد اعتنق رأى الجاحظ كثير من علماء الأدب منهم أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) إذ قال : ليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في جودة اللفظ ، وصفائه ، وحسنه وبهائه ... (٢) وهو بهذا ينقل رأى الجاحظ نقلاً يكاد يكون حرفياً .

ومن هؤلاء النقاد الذين يقلّدون اللفظ المفرد ، ويجعلون له صفات ذاتية قديمة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) (الذي يرى أن مقياس الحسن للفظ أن يكون سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة . . . (٣)) ومن أشاد باللفظة المفردة ، وجعل لها خصائص تميزها بالحسن ، وتقبّح إذا فقدت تلك الخصائص ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) الذي تناول في كتابه « سر الفصاحة » اللفظة المفردة من أدنى جزئياتها من الصوت ، والمخرج والحرف ، وجعل لهذه اللفظة المفردة الجودة ثمانية أوصاف هي :

- ١ - أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج .
- ٢ - أن يكون لتأليفها في السمع حسن ومزية .
- ٣ - أن تكون غير متوعدة ولا وحشية .
- ٤ - وأن تكون غير ساقطة عامية .
- ٥ - أن تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة .

(١) انظر الحيوان للجاحظ ص ٤٤٤ الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ تحقيق فوزي عطوي مطبعة شركة الكتاب اللبناني . بيروت .

(٢) انظر الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٦٣ ، ٦٤ الطبعة الثانية تحقيق علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي .

(٣) انظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبي للدكتور بدوي طبائنه ص ١٩٣ الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ المطبعة الفنية الحديثة .

٦ - وأن لا تكون قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره .

٧ - أن تكون معتدلة غير كثيرة الحروف .

٨ - أن تكون مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل ، أو ما يجري مجرى ذلك (١) .

ومع أن ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) قد أنحى باللائمة على الخفاجي بأنه في كتابه « سر الفصاحة » قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف ، والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة إلى ذكره (٢) مع ذلك شغل كلام ابن الأثير عن اللفظة المفردة ، وصفات حسنها ، وأسباب قبحها جزءاً كبيراً من أول دراسته في كتابه « المثل السائر » ، فقد نعت اللفظة المفردة بكثير من الأوصاف وجعل ألفة الكلمة وجريانها في اللغة الأدبية من الأسس التي تقوم بها الألفاظ ، وتستحق المزية والتقدير ، واعترف بالتفاوت بين الألفاظ التي يظن أنها من قبيل المترادف . فهو يقرر أن أرباب النظم والنثر من صناع الكلام غرّبوا اللغة باعتبار ألفاظها فاخترّوا الحسن من الألفاظ واستعملوه ، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحسن اللفظة سبب في استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ، وذلك سبب يدعو إلى وصف اللفظة المفردة بالفصاحة ، ولذلك يرى أن الفصيح من الألفاظ هو الحسن ، ويقول إن هذا من الأمور المحسوسة التي شاهدها من نفسها ، لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات ، فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر منه هو القبيح ، ويضرب لذلك مثلاً بأن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب وينفر منه ، وكذلك يكره نهيق الحمار ، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس .

• • •

(١) ، (٢) انظر ذلك مفصلاً في البيان العربي للدكتور بدوي طبانه ص ١٩٤ ، ٢٠٦ .

الطبعة الرابعة المطبعة الفنية الحديثة ١٣٨٨ هـ .

ويستمر ابن الأثير في الشوط إلى مداه في حسن الألفاظ المفردة وقبحها ، وبرى أن لفظة « المزنة » « والديمة » حسنة يستلذها السمع ، وأن لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع ، وهذه اللفظات الثلاث من صفة المطر وهي تدل على معنى واحد ، ومع هذا فإنك ترى لفظتي « المزنة » و « الديمة » وما جرى مجراها مألوفة الاستعمال ، وترى لفظ البعاق وما جرى مجراه متروكاً لا يستعمل ، وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة ، أو من كان غير ذى ذوق سليم (١) .

وإذا كان هذا الاتجاه نحو تقدير اللفظة المفردة ، والحكم عليها بمقتضى الحروف التي تألفت منها ، وجرس أصواتها على السمع . أى جعل الكلمة المفردة ذات خصائص ذاتية تجعلها حسنة أو قبيحة إذا كان هذا يمثل رأى طائفة كبيرة من النقاد والعلماء فإن هناك رأياً مقابلاً لهذا الرأى ، هو رأى عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) الذى يصرح « بأن الكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يفيد بها الكلام غرضاً من أغراضه في الأخبار ، والأمر والنهى ، والاستخبار ، والتعجب ، وتؤدى في الجملة معنى من المعانى التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة ، وليس بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون إحدهما أدل على معناها الذى وضعت له من الأخرى (٢) .

وليس العبرة عند عبد القاهر باللفظ في ذاته ، وإنما العبرة بالنظم ، ودليل ذلك قوله : « فقد اتضح إذاً اتضحاً لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة المعنى التي يليها . أو ما أشبه ذلك مما ليس له تعلق بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر . . . » (٣) .

* * *

(١) المصدر السابق ص ٢٧٣ .

(٢) انظر دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٥ الناشر محمد رشيد رضا .

(٣) انظر دلائل الإعجاز لعبد القاهر ص ٣٣ طبعة المراجعى .

ولا شك أن تعصب عبد القاهر لفكرة النظم التي اعتنقها وشرحها في كتابيه « أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز » على ذلك النحو الذي أشرنا إليه من الآراء الجيدة في تقدير حسن الكلام ، فإننا لا نستطيع أن نجحد قيمة اللفظة في ذلك النظم . الذي هو ضم كلمة إلى كلمة ، ولا نجحد أن اللفظ الجميل يزداد جمالا بحسن موافقته لما جاوره من الألفاظ ، وهذا التجاوز هو الذي يكشف عما فيه من جمال ويبين عن صفات الحسن الكامنة فيه ، ولا نستطيع أن نقر عبد القاهر على كل ما ذهب إليه ، وكذلك نختلف مع أولئك الذين يجعلون للألفاظ المفردة ذلك الاعتبار إذ لا بد من مراعاة اللفظة المفردة ، بأجرامها ، ومقاطع حروفها ، والدقة في انتقائها ، ومراعاة توافر الحسن في جميع جزئياتها ومن ثم طريقة وضعها في الترتيب بحيث تتلاءم مع ما قبلها وما بعدها ولا نقلل من قيمتها على حساب النظم ، لأن الألفاظ هي اللبنة الأولى للآفاق بهن تتكون الجملة وشبه الجملة في تأدية المعنى المراد .

وكذلك نعطي الجملة قيمتها من حيث مراعاة حسن الجوار ووضع كل جملة بجانب اختها ونعطي المعنى قيمته حيث لا غموض ولا لبهام ولا تعمية ولا ألفاظ .

إذا تبين لنا أن المزية في النظم وأنه لا بد من مراعاة الدعائم التي يقوم عليها وهي اللفظ مفرداً والجملة مركبة والمعنى مسوقاً . فلنطبق تلك المزية ولنستظهر بعض أسرار هذا النظم وعناصره في سورة الرعد تلك السورة التي آثرنا أن تكون محور الدراسة في هذا البحث . « والتي من أهدافها غرس عقيدة التوحيد في النفوس وانتزاع ما يخالف تلك العقيدة من الضمير والدعوة إلى العمل الصالح المكون للإنسان المذهب الكامل ، الناهض بالجماعة بسن شريعة الإسلام من عند الله » (١) وتجليه طبيعة النبوة والرسالة . « مطوفاً بالقلب البشري في مجالات وآفاق وآماد وأعماق إذ تعرض الكون كله في شتى مجالاته في السموات المرفوعة بغير عمد ، والأرض المبسوطة ، وما فيها من حركة وسكون كل ذلك لإقرار عقيدة التوحيد في النفوس .

(١) انظر من بلاغة القرآن لأحمد أحمد بدوي ص ٢٣٠ الطبعة الثانية . مطبعة نهضة مصر .

وهي من أعاجيب السور القرآنية التي تأخذ في نفس واحد وإعجاب واحد من بدنها إلى نهايتها ، تفعم النفس وتزحم الحس بالصور والظلال والمشاهد والحوالج (١) ، وهي سورة مكية غير آيتين هما قول الله تعالى : « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد » وقوله تعالى : « ويقول اللذين كفروا لست مرسلنا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » فإنهما مدنيتان وعدد آياتها خمس وأربعون وقيل ثلاث وأربعون وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف (٢) .

وكان من واجبتنا في هذه الدراسة المتخصصة لهذه السورة الكريمة أن نلم ببديع نظمها وعجيب تركيبها ومحكم فواصلها ورائع صورها لولا أن تتبع ذلك كله واستقرأه لفظاً لفظاً وتركيباً تركيباً وفاصلة فاصلة وصورة صورة من الآمال البعيدة عن طوق البشر ، إذ أنه لا تكفي فيها الإشارات السريعة ، أو اللمحات الخاطفة ، ولكنها تحتاج إلى النظرة العميقة ، والفحص الدقيق عن كل حرف من الحروف ، أو صورة من الصور ، ولذلك يجد الباحث نفسه مضطراً إلى أن يجتزئ بالقليل ليدل على الكثير . وكما قيل : « حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق » .

ولذا سنعرض لخصائص نظم تلك الألفاظ والحروف في طائفة من آيات السورة الكريمة ، متفحصين كيف التحمت لبنات هذه الآيات ؟ انتظم من مجموعها ذلك العقد الفريد في أجمل صورة حية كل ذرة في خليتها وكل خلية في عضوها ، وكل عضو في جهازه ؟ حتى يبرز اللفظ وقد أخذ مكانه المقسوم وفق خط مرسوم .

فإن دراسة أى نص قرآني تتطلب الوقوف عند لبناته الأولى التي هي المفردات ، لتبين مدى الإصابة في اختيارها ، ومدى تمكنها في موضعها من

(١) انظر ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الخامس ط بيروت ص ٦٣ ، ٤ ، ١١٠ .

(٢) انظر تنوير المقاس من تفسير ابن عباس لأبي طاهر محمد بن يعقوب الاسترأبادي .

خلتها وقوة ربطها بأخواتها . « وكلما ازداد الدارس تعمقاً في فهم النص القرآني ، واستجلاله لا بد أن يقف أمام جلال القرآن الكريم ليدرك معه لماذا أعجب العرب وهم أصحاب اللسن والبيان عن الإتيان بسورة من مثله .

والآن لنتتبع الآيات من قوله تعالى : « المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . إلى قوله تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات . . الآية » .

ولنقف أمام جلال تلك الألفاظ وروعها ، ولنلحظ أن أول ما يطالعنا في بدايتها تلك الفاتحة العجيبة « المر » التي لم يزد أن قال العلماء عنها ، وعن غيرها من فواتح السور بمثلها . أنها سر هذا القرآن ، وهي مما استأثر الله بعمله .

وحول فواتح السور ذكروا : أن خلتها عشرة أنواع من الكلام منها : « الثناء على الله سبحانه » كما في سورة الكهف « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً » والأنعام وغيرها مما ابتدئ بهذا النوع ومنها الاستفتاح « بالنداء » كيا أيها المزمل ، ويا أيها المدثر ، والاستفتاح بالجميل الخبرية « يسألونك عن الأنفال » ، « براءة من الله » « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » « قد أفلح المؤمنون » والاستفتاح بالقسم « والصفات صفها » « والذاريات ذوراً » « والطور » « والنجم » ، والاستفتاح بحروف الهجاء كما في سورة البقرة وآل عمران ، والقصص ، والنمل ، ومريم ، والرعد وغيرهن إلى آخر ما ذكروه عن جملة هذه الأنواع ، وأحصوه « ولم يكتف بعضهم بالقول عن حروف الهجاء أنها سر هذا القرآن ، أو هي مما استأثر الله بعلمه بل كثروا حديثهم عنها وهذه طائفة من الأقوال التي ذكروها قالوا : « إن الحروف المقطعة في أوائل السور بمثابة أدوات التنبيه والغرض من استعمال هذه الحروف إثارة انتباه السامع إلى ما يراد القاؤه إليه .

(١) انظر الإنجاز البياني لبنت الشاطي ص ٧ مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م .
(٢) انظر البرهان للزركشي ص ١٦٤ وما بعدها الطبعة الثانية الجزء الأول مطبعة الحلبي بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم .

وإذا نظرنا في فاتحة سورة الرعد . ألقينا أربعة أحرف هي الألف . واللام والميم . والراء . ولا شك أن مثل هذا الاستعمال أكثر لفتاً للنظر وإثارة الانتباه مما جرت العادة باستعماله ، وذلك أن المألوف على السمع يمر دون أن يحرك في النفس ساكناً أو يوقظ في الفكر نائماً أو ينبه به غافل فإذا طرق السمع جديد غير مألوف في أساليب الكلام تحرك الساكن وتنبه الغافل .

ومن هنا فقد جاءت فاتحة سورة الرعد من تحقيق التنبيه التام بما لا يزيد عليه . وقل مثل ذلك في السور الأخرى التي نهجت هذا المنهج من الفواتح وذكروا أن الحروف المقطعة التي ابتدأت بها بعض السور : « بيان لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها . ودليل ذلك أن السور المفتحة بالحروف المقطعة يذكر فيها دائماً الانتصار للقرآن الكريم وأنه الحق الذي لا شك فيه وأنه الكتاب المعجز وغيره دونه .

فهذه سورة البقرة افتتحت بألف . لام . ميم . وبعدهن يأتي قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وهذه سورة آل عمران والأعراف ويونس وهود وهذه سورة الرعد : ألف . لام . ميم . را . وبعد تلك الحروف يأتي قول الله تعالى : « تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق » ومما نلاحظه في فاتحة سورة الرعد « أنها بدأت بحروف من جنس ما ورد فيها . وهذا البدء آية في التناسب . بل لقد ختمت حروف فاتحتها بحروف الراء وفي هذا تحقيق للتناسب التام في جوهر السورة العام الذي كثيراً ما يضطلع به هذا الحرف كما في ذكر البرق والرعد » « ورفع السماوات بغير عمد وبسط الأرض وبث الثمرات وجريان الأنهار » .

(١) انظر سورة الرعد . دراسة أدبية وفكرية ولادوية لعبد الرحمن حبنكة الطليعة الأولى

١٣٩١ هـ .

(٢) انظر أضواء البيان للشنقيطي . مطبعة المدني ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .

(٣) انظر الإتيان للسيوطي : ٢ ص ١١٢ ، ١١٣ الطبعة الثانية ١٣٤٣ هـ المطبعة الأزهرية الأزهرية بمصر .

قال أحمد بن فارس : وأقرب القول في ذلك وأجمعه قول بعض علمائنا إن أولى الأمر أن يجعل هذه التأويلات كلها تأويلاً واحداً فيقال : إن الله افتتح السور بهذه الحروف لإرادة منه الدلالة بكل حرف منها على معان كثيرة لا على معنى واحد فتكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحاً للسور وأن يكون كل واحد منها مأخوذاً من اسم من أسماء الله تعالى ، وأن يكون الله جل ثناؤه قد وضعها هذا الموضع قسماً بها وأن كل حرف منها في آجال قوم وأرزاق آخرين ، وهى مع ذلك مأخوذة من صفات الله جل وعز في أنعامه وأفضاله ومجده وأن الافتتاح بها سبب لأن يستمع إلى القرآن من لم يكن يستمع ، وأن فيها إعلاماً للعرب أن القرآن الدال على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو بهذه الحروف المتعالة بينهم دليل على كذبهم وعنادهم وجحودهم وأن كل عدد منها إذا وقع في أول سورة فهو اسم لتلك السورة وهذا هو الجامع للتأويلات كلها من غير إطراح لواحد منها ، وإنما قلنا هذا لأن المعنى فيها لا يمكن استخراج علة من حيث يزول به العذر ولأنه المرجع إلى أقاويل العلماء ولن يجوز لأحد أن يعترض عليهم بالطعن وهم من العلم بالمكان الذى هم به ولهم مع ذلك فضيلة التقدم ومزية السبق والله أعلم ، بما أراد من ذلك .

ومن جملة ما قالوه عن فواتح السور . بحروف الهجاء أنها أسماء لسورها وهى سر القرآن وهى مما استأثر الله بعلمه . إلى أهم ما قالوه وأن كان لا يعدو أن يكون اجتهداً ، ولذلك نجد أكثرهم يتحرزون عند الكلام على مدلول تلك الحروف التى بدئت بها بعض سور القرآن فتراهم يصرون على ذكر هذه العبارة « الله أعلم بمراده بذلك » تجنباً لمزائق الاجتهاد . ومن هنا لا نؤثر رأياً على رأى مما قالوه بل نظم أنفسنا إلى أولئك الذين بالغوا في الاحتياط فقالوا الله أعلم بمراده .

ر (١) انظر الصحاح في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها : لأبي الحسين أحمد بن فارس ص ١٢٤ مطابع بدران . بيروت ١٩٦٤ م تحقيق مصطفى الشويخي .

بعد هذه اللمسات حول فاتحة السورة ، نمضي مع الآيات متفحصين المفردة القرآنية في كل آية مما ذكرنا ، لننظر مدى ما تميزت به من جمال وقعها في السمع ، واتساقها الكامل في السياق ، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى . بل إننا بحاجة ماسة إلى التريث والتدبر فلعلنا ندرك شيئاً من سر إيثار لفظة على أخرى ، ووجه ارتباطها بما قبلها وبما بعدها .

فلنأخذ مثلاً لفظة « أنزل » من قوله تعالى : « والذي أنزل إليك من ربك الحق » ، ولنتأمل مخارج حروفها في القرب والبعد ، كيف جاءت بهذا التناسق في الإيحاء بأمر المنزل ؟ الذي أضنى على جلالة قدره ، وعلو مكانته بناء تلك اللفظة للمجهول !! وأضف إلى تلك اللفظة ما بعدها من ألفاظ في قوله تعالى : « إليك من ربك الحق » وتأمل تلك الإضافة إلى ضمير المخاطب في لفظة « ربك » ففي ذلك تكريم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وسمو بعبوديته لله وحده ، وانظر إلى تعريف « الحق » باللام ، ثم محبوه ختاماً لأمر المنزل وهو القرآن ، وراع لفظة « يؤمنون » في آخر الآية . ما بالها اختيرت على « يعقلون » أو يتفكرون ؟ ما ذاك إلا أن الإيمان بهذا وبين نزل من عنده ، وبين نزل عليه هو مطلب الآية الكريمة ، وفي الذروة من هذا الإيمان المطلوب ، الإيمان بالله خالق كل شيء ، وإذا حسن اختيار « يؤمنون » على غيرها مما ذكر وتخير ما شئت من لفظ في قوله تعالى : « الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ويهجر الشمس والقمر . . . الآية » وأطلق لنفسك العنان للحديث عن تلك الألفاظ ووظائفها وسماتها تجددك لا تبغ معشار ما تحدثت عنه من مدلول ومعنى .

إليك لفظة « رفع » تأمل لم أوثر التعبير بها على سمك أو بني أو أسس ما ذاك إلا لأجل تكامل الصورة العجيبة التي رسمتها الآية عن مشهد هائل في العلو ولفظة رفع ينطوي تحتها معنى السمك والبناء والتأسيس فهي أشمل وأوسع في المعنى وأليق في وصف هذا البناء المحكم الذي تراءى في كنهه

العظمة معبرة عنها ظلال رفع لابی أو أسسس أو سملك ، ولا سيما وقد ذكر معها في السياق لفظ الجلالة « الله » على حد قوله سبحانه : « الله الذي رفع السماوات » وهكذا يمكن إثبات لفظة على أخرى في السياق القرآني فأن ترى التعبير مثلاً بلفظة « بنى » جئ به في موضع آخر من غير أن يذكر معه لفظ الجلالة كما قال تعالى في سورة ق « أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا » وفي سورة الذاريات : « وَالسَّمَاءِ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » .

وخذ من الآية أيضاً لفظة « ترونها » لم عبر بها دون تنظرونها أو تشاهدونها ذلك لأن صيغة « ترونها » تحمل معنى الرؤية الكاملة التي لا يحجبها ما يبدد النظر بمنة ويسرة لو جاء التعبير « يينظرونها » أو « تشاهدونها » ، وإنما الرؤية هنا مسطرة على ملكوت السموات للتدبر ، والتفكر وللجمع بين الرؤية هنا مسطرة على ملكوت السموات للتدبر ، والتفكر وللجمع بين الرؤية الحسية والرؤية العلمية المؤدية إلى اليقين ، ولا يبق بهذا المعنى لفظ « تنظرونها » أو تشاهدونها .

هذا بالإضافة إلى ما تنسم به لفظة « ترونها » من رقة وسلاسة وسماحة ومثل هذه الصفات مقطوع بوجودها في ألفاظ القرآن مع صفات الفخامة والحزالة ، والقوة ، فالبحث عنها تحصيل حاصل ، وإنما المهم البحث عن الأمرار التي بها صار القرآن مستجمعا لتلك الصفات كلها .

وإليك لفظة أخرى في سياق آخر تلك صيغة « سخر » من قول الحق سبحانه « وسخر الشمس والقمر ... الآية » .

إنها لفظة موحية بالقوة والعظمة من خلال ظلالها وبنيتها إذ جاءت بلفظ الماضي المضعف ، فهي كبيرة في مدلولها ، قوية في بنيتها ذلك لأنها بجانب الحديث عن آيتين كبيرتين عظيمتين ، هما الشمس والقمر فاخير التعبير بها على غيرها مما يؤدي معنى « التسخير » « كإمر » ، أو « جعل » أو « ذلل » لأن الآية هنا ترسم مشهداً عظيماً فيه منافع جليلة لعموم المخلوقات ، ومثل هذه المنافع مجتمعة تقصر في أدائها لفظة أمر . أو جعل . أو ذلل . فأنت

تلاحظ في آية أخرى حيث كان الحديث عن نعمة واحدة هي الإضاءة وتبديد الظلمة والعتمة ، أنه كفى في هذا المعنى ما هو دون التسخير مبنى ومعنى ذلك هو لفظ « جعل » من قوله تعالى : « وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجاً » وإذا أزلت أزلت النظر في لفظة سخر وجدت أنها سبقت للحديث عن نعم كثيرة تفيدها الشمس والقمر مسخرين من عند الله في الشمس وطاقاتها الحرارية منافع للإنسان والحيوان والنبات وفي القمر زينة الكون وتبصير الناس بضبط المواقيت والحساب وفيهما معاً دلالة لمن أراد التفكير في ملكوت الكون تدعو إلى الإيمان بخالقه ومبدعه وفي الإيمان طمأنينة لنفس المؤمن في الحياة الدنيا وثواب من الله في الحياة الأخرى ومن ذا الذي لا يطمع في الحصول على تلك المنافع ؟ ومن ذا الذي ليس بحاجة إلى منافع الشمس والقمر تلك المنافع التي لم يف في التعبير عنها لفظ غير صيغة سخر .

ولننض الآن مع الآية الكريمة بحثاً عن الألفاظ كيف انتسقت وعلى أى هيئة جاءت ، إليك قوله تعالى : « يدبر الأمر يفصل الآيات » إنك إزاء صيغتين لفعلين مضارعين هما يدبر ويفصل وفي التعبير بهما على تلك الهيئة ما يفيد التجدد والحدوث والاستمرار لأن تسخير الشمس والقمر وما يجرى معهما في العالم العلوى وما يفيد بهما العالم السفلى كل ذلك في حركة دائبة ونهى وتدبير لا ينقطع ولا يفتر مع طول الزمن وتعاقب الأيام وأعظم من ذلك ، مجئ الفعل « يدبر » يليه لفظ مفرد هو مفعوله ، وهو لفظة « الأمر » من قوله تعالى : « يدبر الأمر » ثم مجئ الفعل « يفصل » وبعده مفعول به جمع ، وهو « الآيات » من قوله تعالى : « يفصل الآيات » ذلك لأن التدبير يكون في شأن واحد ، والتفصيل يكون في أكثر من شأن وإذا جاء المفعول في السياق الأول بلفظ المفرد ، وجاء المفعول في السياق الثاني بلفظ الجمع . بالإضافة إلى التغيير حتى لا يسير الكلام على نمط واحد لأن هذا التغيير مدعاة لنشاط القارئ والسامع . واستمع لقول الحق جل

تناوّه : « وهو الذى مد الأرض . . إلى قوله : يغشى الليل والنهار » ، وتأمل ذلك التعبير البديع بلفظ مد . وجعل . ويغشى ، فتلك ألفاظ سهلة فى مبنائها قوية فى معناها ، والذى يسترعى النظر هنا هو إثارة التعبير « مد » دون بسط . أو وسع أو دحا . أو خلق . أن فى اختيار « مد » على غيرها من مرادفها لدلالة على بعد أقطار الأرض وسعتها ، ودلالة على قدرة الله على تذليلها لكافة المخلوقات ، ولا يؤدى تلك المعانى لغض أشمل من « مد » كبسط ونحوه مما ذكر إذ قد يترأى للسامع أن البسط ، أو التوسعة كانا فى جهة دون أخرى .

ولكن لما قال سبحانه « وهو الذى مد الأرض » دلنا هذا النظم على عظم القدرة على خلقها وبسطها من جميع جهاتها ، والحظ الفعل « جعل » وما تضيفه ظلاله على معنى الإيجاد الذى لا يعجز الله وقوعه فى أى وقت وفى آية بقعة من الأرض بل هو أهون عليه ، وافطن للفظه « كل » فى قوله : تعالى : « ومن كل الثمرات » وتأمل ما تحمله تلك الصيغة من الدلالة على العموم المطلق بجانب الفعل « جعل » الذى لم يحدث تكراره خدشاً فى تناسق الآية ، بل جميع الألفاظ جاءت رتبية الجرس . والإيجاء فى تناسق بديع مع لفظه « مد » السابقة عليها . ثم تدبر لفظه « يغشى » كيف لاءمت موقعها إذ جاءت بجانب لفظه « الليل » لما توحى به حروفها من معنى للظلمة فهى غشاء سائر لضوء النهار .

واستشعر بديع تلك الصورة العجيبة التى رسمتها ظلال الألفاظ التالية من قوله تعالى : « قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل » . والذى يعيننا هنا هو الوقوف على الألفاظ . كيف التأمت ، وتناسقت ؟ أما الكلام على الجانب التصويرى فسيأتى مفصلاً فى موضع آخر من هذه الدراسة .

تأمل لم وصفت هذه القطع « متجاورات » ؟ ولم اقتصر على ذكر الأعناب من بين سائر صنوف الفواكه ؟ ثم لم الجمع فى لفظ جنات وأعناب

والأفراد في لفظ « زرع » والجمع في لفظ « نخيل » ؟ إنه نظم بدع محكم نسج إطاره من ألفاظ ذات رصف عجيب ، فلفظة جمع بجوار اختها ، وبينهما مفرد لم يبيح حولا عن مكانه ، ولم ينب عن قرينه ، ناهيك بسر الاختصار على لفظة « أعناب » واختيارها على غيرها من سائر أنواع الفواكه ففي ذلك إيماء إلى أن من عنده أدنى تفكير لابد أن ينظر إلى هذا اللون من النعم ، في حجمه وطعمه ، وشكله الشفاف ، الذي يحمل قطرة من الماء ثم يصبح من أشهى ما يتناوله البشر .

وتأمل التعبير بصيغة « تفيض ويزداد » وصيغتي « الكبير المتعال » من من قوله تعالى : « يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » أى ألفاظ أوفى في أداء المعنى من « تفيض ويزداد » .

لم يأت التعبير : بتنقص بدل « تفيض » وتنمو بدل « تزداد » تأمل بإمعان أن خلقة الجنين في الرحم متوارية مغمنة في الخفاء عن الأنصار لا يعلم أحد من البشر كنه هذه الخلقة ، وما يعتريها من تقلبات إلا الله خالق كل شيء . ولفظة « تفيض أكد في أداء المعنى ، وأبعد في الإحاطة بما يجري للجنين . من التعبير « بتنقص » توحى بذلك حروف « تفيض المضفية صفة الجزالة على اللفظ ، أما التعبير « بيزداد » فليس هناك لفظة أليق منها بمكانها لأن المتأمل قد يلمس من وراء مدة الجنين بعد طولها ما يعينه على رعاية الحمل والتلطف في الإشراف على الجنين وعلى أمه حتى يزداد سلامة كلما ازداد خلقه .

أما قوله : « الكبير المتعال » فليست هناك ألفاظ أجزل ، وأفخم ، وأعمق في التدرج بوصف الذات العلية ، بالكبرياء ، والعلو المطلق منهما ، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئا عن لفظة « المتعال » إلا أن يفسرها بها وكفى

وتأمل لطائف التعبير بلفظة « مستخف » دون مخفف ، وسارب دون ذاهب أو سائر ذلك لما تحمله لفظة « مستخف » من كثافة في المعنى على

أكل وجهه تقصر دونه لفظة مخفف ، أو يثقي . ولا شك أن الزيادة في المبني تدل على الزيادة في المعنى .

ومما يستوقف المتأمل مقابلة « مستخف بسارب تلك اللفظة التي بظلمها تعطى زيادة في المعنى على مبناها ، فظلمها ظل خفاء ، أو قريب منه . ولكن الحركة فيها هي المقصودة في مقابل الاستخفاء ... » فتم التقابل العجيب الذي يدركه كل من يملك أدنى ذوق بأجواء التعبير يضاف إلى ذلك إثارة القرآن الكريم لهذه الألفاظ العالية التي لم تبتلها السنة عامة أصحاب اللغة .

وانظر لحسن التناسب بين الألفاظ في قوله : « وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال » وراع حسن الجوار بين لفظة « شديد » ولفظة المحال ، وقوة الترابط بينهما ، إذ لما كانت لفظة « المحال » توحى بالقوة في مدلولها ومعناها ، تقدمتها لفظة ملائمة لهذا المدلول فجاء التعبير « شديد » دون عسير أو شاق مثلاً ، وهذا كله عن الألفاظ مفردة فكيف بأسرار النظم في التراكيب ؟

• • •

وإذا كان هنالك خلاف في تقدير اللبنة الأولى في العمل الأدبي ، وأعني بها اللفظة المفردة بين عبد القاهرة وغيره من النقاد الذين أشرنا لم إلى آرائهم فيما سبق ، فإننا لا نجد أثراً لهذا الاختلاف في مزية التركيب ، أو التأليف ، أو النظم الذي تضم فيه هذه اللبنة بعضها إلى بعض حتى تفيد الغرض الذي من أجله تصاغ العبارة — فإن أولئك الذين أشادوا باللفظة المفردة لم يستطع واحد منهم أن ينكر فضل التأليف ، أو النظم ، أو التركيب ، أى أنهم جميعاً ياتقون مع عبد القاهرة ، في اعتبار قوة التركيب ، وحسنه ، وتنسيقه وأنه صاحب الأثر الأوفى في تقدير الكلام .

فإذا كان قدامة بن جعفر مثلاً . قد وصف اللفظة المفردة بما أصفنا من الأوصاف فإنه يولى النظم الذي يسميه « بالائتلاف » عناية كبيرة ، فيقرر

(١) انظر غلال القرآن لسيد قطب الجزء ١٣ ص ٧٧ الطبعة الخامسة طبعة بيروت .

أن اللفظة قد تحسن من حيث هي لفظة مفردة ، فإذا نظر إليها مؤتلفة أي منظومة مع معناها ، ومع وزنها ، ومع ما تقتضيه قافية البيت في الشعر اكتسبت مزية أخرى ، أو أصابها شيء من القبح .

ويطلق قدامة كلمة « النعوت » على المحاسن التي يفيدها الكلام من هذا الائتلاف ، ويعمل في متابليها العيوب ، وليس يسمح المجال في هذا المضمار ببسط تلك النعوت أو العيوب كما أوردها .

وكذلك ضياء الدين بن الأثير . الذي نراه بعد أن أفرد الألفاظ المفردة بالبحث عن أسباب حسنها أو أسرار قبحها يتكلم طويلا عن التركيب .

وإذا كنا قد أفردنا بالإشارة بعض الألفاظ المفردة في طائفة من آيات السورة ، وذكرنا شيئاً مما تمتاز به على غيرها من مرادفاتنا ، فليس يفوتنا أن ننبه إلى أن السياق كان له أبعد الأثر في تنخير هذه الألفاظ على النحو الذي أشرنا إليه ، فهذه الألفاظ وحدها في غاية السمو كما فصلنا ، وازدادت جمالا وجلالا بنظمها في التركيب الجملي الذي اقتضاها دون غيرها .

وليس ما يفتش عنه النقاد هو محصل ما يصل إليه الكاتب أو الشاعر في صناعته من الجودة وعدمها قوة وضعفا ، لأن نظرهم إلى القرآن الكريم في أسلوبه لا يختلف بحال من الأحوال فهو آية في السمو ، والجودة ، والإعجاز البياني ، « وإذا كان الكلام يتركب من ثلاثة حروف هي من الأصوات ، وكلمات هي من الحروف ، وخل هن من الكلم فسر الإعجاز في نظم القرآن الكريم هذه الأنواع كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة التي قامت به فألفاظه كيفما أدرتها ، وكيفما تأملتها ، وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ومن أي جهة وافقتها فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة ، والحلاوة البادية ، والانسجام العذب » « وإذا صارت اللفظة مركبة فإن لتركيبها حكماً غيرها مفردة وذلك لانه يحدث من أثر التركيب فوائد من التأليفات والامتزاجات ، حتى ليخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست

تلك التى كانت مفردة « وإذا فأسرار بدائع التركيب كامنة فى النظم
فلنبحث عن هذه البدائع فى النص الكريم من قوله تعالى : « أمر تلك
آيات الكتاب . . . الآيات حتى قوله : وما دعاء الكفارين إلا فى ضلال »
ولنتفحص الأسباب التى من أجلها قدم جزء ، وآخر جزء ، ولماذا حذف
هنا وأثبت هناك ؟ ولم جاء التعريف هنا وهناك التنكير ؟ ولم استعمل الخبر
فى موضع الإنشاء ، ولم عبر بالمجاز مرة وبالحقيقة أخرى ، وكيف حسن هنا
التشبيه ، وراق فى موضع الجناس ، إلى غير ذلك من مباحث تتصل بشأن
التركيب والمعنى فى الجملة والجملتين . »

وقبل أن نفصل القول فى روعة نظم هذه الآيات ، أرى من الواجب أن
نعمل الأغراض والمقاصد التى نرى إليها .

وأول ذلك افتتاح السورة بما يلخص موضوعها كله ، ويشير إلى خلة
قضايها فبعد الانتصار للقرآن الكريم ، وأنه حق لا مرية فيه يبدأ سياق
الآيات فى استعراض آيات القدرة ، وعجائب الكون . الدالة على قدرة
الخالق ، وحكمته وتدبيره الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة . أن يكون
هناك وحى لتبصير الناس ، وأن يكون هناك بعث ونشور ، وحساب وجزاء .

ويستمر السياق فى تفصيل آيات القدرة ، فتعرض السماوات مرفوعة
بغير عمد ، معروضة على الأنظار هائلة فى شكلها وعلوها دون دعائم تقوم
عليها ، ومن هذا المنظور الهائل ينتقل السياق إلى ما هو أعظم هولاً ، إلى
المغيب الذى تتقاصر دونه المدارك والأبصار ، من قوله تعالى : « ثم استوى
على العرش » و تضح لكل ذى عين وعقل مدى قدرة الله المحيط بكل شئ .
فع الاستعلاء والتسخير تقترن الحكمة والتدبير . كل يجرى لأجل مسمى ،
إلى حدود مرسومة ، ووفق ناموس مقدر ، ثم يهبط العرض التصويرى
الهائل من السماء إلى الأرض ، فيرسم لوحها العريضة الأولى ، ويبدأ فى

(١) المثل السائر لابن الأثير تحقيق محى الدين عبد الحميد .

(٢) من بلاغة القرآن لأحمد بدوى الطبعة الثانية ١٣٧٠ هـ . مطبعة نهضة مصر .

تخطيطها وبسطها وانفساحها بخطوط جزئية أدق من الخطوط العريضة الأولى .
 إذ يقول تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع
 ونخيل صنوان وغير صنوان . . . » الآيات ، ثم يرمى السياق إلى ما هو أكبر
 وأسمى غاية ، ذلك هو طلب الإيمان بخالق هذا الكون البديع ، وما فيه ،
 وهذا المقصد يأتي بطريق التعجب من أمر قوم يلزمهم الإيمان ، لكنهم
 يابون إلا الكفر تجبراً وعناداً . « وإن تعجب فعجب قولهم إذا كُنتا تراباً
 أنا أنى خالق جديد » ما هؤلاء لايؤمنون ؟ فإن الذى خلق هذا الكون الضخم
 ودبره على هذا النحو قادر على إعادة الأناسى خلقاً جديداً ، لكن إنما هو
 الكفر المسيطر على العقول والأفهام « أم على قلوب أفاهاها » إن هذا الكفر
 لا يملك معه فرد من هؤلاء المعاندين إلا الوقوف أمام المبلغ الكريم « صلوات
 الله وسلامه عليه » بطلب الخوارق والمعجزات ، وتلك حجة من غلب على
 قلبه الكفر والظلال واستحوذ على عقله العناد فلج في كبريائه الساقطة .

ويعرض السياق في الآيات : وجوه الهداية وطرق الإرشاد لهؤلاء
 ولغيرهم ، وأن عليهم النظر ، والتأمل في آفاق الكون ، وآيات الله المبثوثة
 في السماء والأرض ، وأن عليهم التفكير والاتعاظ فليتنظروا إلى مصارع
 الغابرين الذين استعجلوا عذاب الله فأصابهم ، وتركهم مثلة يعتبر بها من
 بعدهم « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلث » ،
 ويمضى سياق الآيات مقدماً مغفرة الله على عقابه في مقابل تعجل هؤلاء
 الكافرين الغافلين ، ليدو القارق الكبير بين الخير الذى يريده الله للناس
 والشر الذى يريده الناس لأنفسهم ، ومن وراء هذا الشر يظهر انطباع
 البصيرة ، وعمى القلب ، والانتكاس الذى يستحق درك النار . وتلك الأغراض
 تجمعها الآيات الكريمات من قوله تعالى :

« ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلث
 وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ويقول
 الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منتر ولكل قوم هاد » .

ويستمر عرض تلك المقاصد السامية منتبهة بالجولة الأولى في الآفاق ،

والتعقيبات عليها ، حتى يبدأ السياق جولة جديدة في واد آخر ، في الأنفس والمشاعر والأحياء من قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى . . إلى قوله تعالى : وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دون من وال » ونلاحظ في مرأى تلك الأغراض والمقاصد : تقرير المبدأ وإبراز حالة تغير الله ما يقوم . إلى سوء لأنهم كانوا السبب في ذلك « فليس الله بظلام للعبيد » ثم يستمر العرض فيأخذ سياق تلك الآيات جولة جديدة أخرى في واد آخر موصل بذلك الودى الذى تحدثت عنه الآيات الأولى في مطلع السورة ، ذلك معرض تجتمع فيه مناظر الطبيعة ، ومشاعر النفس الإنسانية متداخلة متناسقة في الصورة والظل في مشهد تخيم عليه الرهبة والضراعة ، والجهد والإشفاق ، وتظل النفس فيه في ترقب وحذر ، وفي تأثر وانفعال ، تلحظ ذلك في قوله تعالى : « هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء . . إلى قوله تعالى : « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » (١) .

ولنبداً الآن في تحليل نظم هذه المعانى ، وتلك المقاصد والأغراض التى ظمها إطار الآيات من مطلع السورة إلى قول الله عز وجل : « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » ، وبأدنى تأمل نلاحظ أن أول ما يطلعنا في تراكيب هذه الآيات . تنوعها ، وتفاوتها من حيث الطول والقصر على حسب ما يقتضيه معنى هذه ، أو تلك . فقد ساقَت الآية الأولى من السورة معنى « الانتصار للقرآن الكريم ، وأنه الحق الذى لا مرية فيه » ، ولم يتطلب الموقف هنا سوى ثلاثة مقاطع من الآية هى قوله : « تلك آيات الكتاب » وقوله : « والذى أنزل إليك من ربك الحق » وقوله : « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » ولما بدأت الآيات في عرض القدرة الإلهية جىء بثمانية مقاطع هى قوله : « الله الذى رفع السماوات » وقوله : « بغير عمد ترونها » وقوله : « ثم استوى على العرش » وقوله : « ويختر الشمس والقمر » وقوله : « كل يجرى لأجل مسمى » وقوله : « يدبر الأمر » وقوله : « يفصل الآيات » وأخيراً « لعلمكم

(١) من تفسير سورة الرعد في الظلال لسيد قطب .

بلقاء ربكم توقنون» . وهكذا حتى تستقرى الآيات جميعها في هذه المجموعة . بل ستجد ما هو أبداع ، وأروع ، وذلك فيما يظهر من تنوع التركيب في كل مقطع من مقاطع الآية الواحدة من جملة اسمية ، إلى جملة فعلية .

فهذه مثلاً - جملة « الله الذى رفع السماوات » تعقبها مترامية عنها جملة « ثم استوى على العرش » وتأتى بعد ذلك جملة « بنحى الشمس والقمر » فالأولى إسمية تعطى معنى الثبوت والاستمرار ، فلا أحد غير الله سبحانه . رفع السماوات وثبتها بغير عمد ، فهى مستمرة على هذا العلو المتناهى الثابت الذى لا يزول ، وثمت جملة أخرى تفيد معنى التجدد والحدوث وذلك مثلاً في قوله تعالى : « وبنحى الشمس والقمر » فن ذا الذى يذلل هذين الفلكين ، ويسخرهما لمصالح البشر ، وفق ناموس طبيعى متجدد فنهار يعقبه ليل ، وليل يعقبه نهار ، في حركة متكررة دائبة لا تفر ؟ لا أحد غير الخالق الكريم الذى أبدع خلقهما على هذا النحو العظيم . وتأمل بديع صلة قوله تعالى : « ولما كن أكثر الناس لا يؤمنون » بالجملة التى تليها من قوله في مطلع الآية الثانية « الله الذى رفع السماوات » ووجه الصلة بينهما : أن الأولى نعت الإيمان على كثير من الناس ، لكن هذا الإيمان بمن ؟ أنه الإيمان بالله الذى رفع السماوات بغير عمد . حقاً أنه تركيب تستلهم معناه القلوب ، وترعاه العيون . يأتى بعده في السياق معنى أدق وأعظم يغيب عن مدارك البشر جميعاً ، ذلك هو قول الله سبحانه : « ثم استوى على العرش » ولأمر ما جاء العطف « ثم » دون غيرها من حروف العطف ! ! إن هذا الحرف يعطى مهلة للمتأمل لينظر أهو قادر على اكتناه ذلك العلو المطلق ، والاستواء الغيبي الذى لا تدركه الأبصار . ويأتى بعد ذلك في السياق العطف بالواو ، الذى لا يقتضى غير التشريك بين جملتين ، وفي هذا إيماءة إلى مدى إحاطة علم الله ، وقدرته . فكونه تعالى على كل شئ على خلقه بأئن منهم فإن علمه وقدرته محيطه بكل شئ ، ولذا جاء قوله تعالى : « وبنحى الشمس والقمر » بعد قوله : « ثم استوى على العرش » .

وافطن إلى قوله تعالى : « يدبر الأمر بفصل الآيات » ما لهذه الجمل جاءت من غير عطف بـ « أو الواو » ، أو حرف آخر من حروف العطف ؟

إن الأمر ليس يخضع لتقنين البلاغيين ومصطلحاتهم ، كقولهم : عطف على تلك الجملة لكمال الانقطاع ، وترك العطف لشبه كمال الاتصال « مثلاً » وإنما الأمر أدق وأبعد من ذلك . ونلاحظ براعة النظم في عملية التدبير ، والتفصيل اللذين لا يعجز الله شيء منهما . فاتصالها مركبين في التعبير من غير عطف يتم عن اتصالها الوثيق بعلم الله ، وقدرته المسيطرة الى لا تنقطع ولا تنفصل بحال من الأحوال .

والحظ كيف ختمت الآية الأولى في السورة بقوله تعالى : « لا يؤمنون » دون « لا يتفكرون أو لا يعلمون مثلاً » وختمت الآية الثانية « بتوقنون » دون تصدقون ليس هذا الختام لتوافق الفاصلة القرآنية فحسب ، وإنما ليكون الآية الأولى ذكرت في سياقها معاني القدرة الإلهية من رفع السماوات والاستواء ، وتسخير الشمس والقمر وتلك الأمور تستدعي أن يكون الختام « بتوقنون » دون تصدقون ، فدرجة اليقين أعم وأكبر من التصديق واليقين بالشيء أصل التصديق به .

والحظ هذا التناسق العجيب في سياق الآيات ، إذ لما انتهت من عرض القدرة الإلهية في العلو ، أعقبت بعرض القدرة ومظاهرها في السفلى . على حد قول الحق تبارك وتعالى : « وهو الذي مد الأرض .. إلى قوله إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » والإطار الذي يكتنف . عرض هذه المعاني الشريفة السامية منوع بجمل اسمية وأخرى فعلية ، مرة مؤكدة وأخرى غير مؤكدة ، ومما يسترعى النظر في هذا السياق توالي ثلاث جمل مصدرية بفعل ماض . من قوله تعالى : « مد الأرض جعل فيهاروامي » ، وقوله : « وجعل فيها زوجين اثنين » وبعد هذه الأفعال تأتي جملة « يغشى الليل النهار » ما سرافتح هذا التركيب بالفعل المضارع « يغشى » ؟ أليس مد الأرض ، وبسطها ، وتثبيتها بالجبال الراسية ، وبث الثمرات في جنباتها من الدلائل على عظمة الخالق ، وقدرته ؟ إنه كذلك ، ولكن فرط ألفة الناس لهذه المخلوقات ، وبقاؤها صامته جامدة قد يهون عليهم أمرها ، دون تدبر واعتبار طويلين ، أما آية الليل ، وآية النهار فهما آيتان كبيرتان ، في أحدهما طلب المعاش ، وفي الأخرى طلب السكون فالكيفية البشرية فيهما متجددة نشيطة مستمرة ،

ولذا جاء التعبير بالمضارع الدال على التجدد والحدوث . وأخيراً تأمل ختام الآية إذ جاء مؤكداً بأن واسمية الجملة ، وانتهى بقوله : « يعقلون » دون يعقلون مثلاً ، لأن في هذه المخلوقات ، وبديع صنعها ، وتسخيرها ما يستوجب التفكير ، والتأمل في ملكوت الكون ، ثم سر مع الآية من قوله : « وفي الأرض قطع متجاورات » إلى قوله : « لقوم يعقلون » ، إنه نمط من القول رفيع ، تتوالى تراكيبه في عرض الجزئيات الدقيقة للأرض ، بعد رسم الخط العريض لخلقها والغرض منها ، فبعد أن قال سبحانه : « وهو الذى مد الأرض » ثم بين ما فيها من منافع لعمرم المخلوقات قال مفصلاً : « وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب » وكذا وكذا . سبحانه الله ! ما من تركيب أو جملة إلا وتأتى حاملة في ثناياها معنى أضخم وأعظم من إطارها فجملة « وفي الأرض قطع متجاورات » أربعة ألفاظ فقط ، لكن من ذا الذى يستطيع عد قطع الأرض ، وحصرها وجميع صفاتها ؟ إن هذا من بلاغة الإيجاز في أسلوب القرآن الكريم ، وأعظم منه طريقة حرث هذه القطع ، وما ينبت فيها وما يخرج منها ، وأعظم منه سقيها بماء واحد ثم اختلاف ما تنتجه - في اللون والطعم والحجم والرائحة ولسر ما جاءت جملة « يسقى بماء واحد » مصدرة بالفعل المضارع « يسقى » دون أسقيناه . ففي الأول استمرار لتنوع الثمرات ، واختلافها على الرغم من سقيها بماء واحد ، وفي ذلك استمرار للقدررة المهيمنة على كل شيء . وأخيراً تأمل ختام الآية بقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » نعلم أن في هذه المخلوقات ما يستثير العقول ، ويدعوها إلى التدبر والتفكير ، فليس الأمر مجرد حدس أو شعور ، ولكنه قضية تخاطب العقل أولاً ، وتستلهب الشعور ثانياً .

ومما نلاحظه في تراكيب هذه الآيات جملة تنوعها من جملة فعلية إلى اسمية مؤكدة وغير مؤكدة ، إلى ما هو مصدر بالاستفهام وغيره ، وكل ذلك أكسبها جدة وحيوية .

ونخذ الآن قوله تعالى : « وإن تعجب فعجب قولهم .. الآية » واستشعر ارتباطها بما قبلها ، إنه تقرير « لذكر مسألة المعاد ، لأنه سبقه عرض هائل

لذكر الدلائل القاهرة على ما يحتاج إليه في أمر المبدأ (١) « فجاءت هذه الآية بهذا الربط المحكم البديع على الرغم من طول النفس بينها وبين أخواتها . ولم يزل المعنى حياً ينبض بالحركة المتواصلة . ثم اتل قوله تعالى : « وإذا كنا تراباً أإنا لنفي خلق جديد » إلى قوله : « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وتأمل ما اشتملت عليه من الجمل فقد ضم إطارها ست جمل . على الرغم من قصر هذا الإطار والأهم من ذلك صفات تلك الجمل وطريقة نظمها ، إنها في عمومها خل اسمية ، مصدرية بالاستفهام في بعضها ، وهذا الاستفهام إنكارى ، ذلك لأن المعنى الذى تسوقه : هو إنكار الكافرين مسألة المعاد ، ولما كان الإنكار منهم قوياً يؤكد عدم إيمانهم بما وضع لهم عن هذا الشأن . تواتر التأكيدات بالجمل الاسمية حسماً للموقف .

وتأمل ذلك الربط العجيب بواسطة حرف العطف ، وما أحدثه من تناسق صوتى مملأً جرسه القم ، ويقرع الآذان . وراع ذلك التكرار بلفظة « أولئك » الذى بواسطته أدت الجملة معناها وافية وقررت ما يستوجه أمر هؤلاء المنكرين الذين غلت عقولهم وأبو إلا عمى البصيرة عن الحق . فالأغلال والنار جزاء لهم من جنس عملهم .

لقد تدرج وصف العذاب مما هو شديد إلى ما هو أشد إمعاناً في النكايه هؤلاء المنكرين لإمعانهم في الكفر والضلال .

وانظر ختام الآية من قوله تعالى : « هم فيها خالدون » وتأمل ما أحدثته بلاغة التقديم وتوسيط ضمير الفصل « هم » بين الصدر والعجز ففى ذلك تأكيد العذاب بالخلود فيه ، وليس لمنكرى البعث فحسب ، وإنما للجمع المدلول عليه بقوله وسط الآية : « أولئك الذين كفروا بربهم (٢) » .

وقد وافق توسيط الضمير فى آخر الآية ، توسيط لفظ الكافرين فى صدرها . فأى إحكام فى النظم يبلغ مثل ذلك ؟

(١) انظر تفسير الرازى الجزء ١٩ ص ٨ الطبعة الأولى ، المطبعة البية بمصر ١٣٥٧ هـ .

(٢) انظر تفسير أبى السعود الجزء الثالث ص ٢٠١ مطبعة السعادة بمصر .

ثم يَمْضِي السِّبَاقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ» إِلَى قَوْلِهِ: «وَإِنْ رَبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» وَهَذَا أَرْبَعُ جُمَلٍ: اثْنَتَانِ مِنْهُنَّ فِي صَدْرِ الْآيَةِ وَنَوْعُهُمَا فَعْلِيَّتَانِ - الْأُولَى فَعْلُهَا مُضَارِعٌ - وَالثَّانِيَةٌ مَاضٍ مُصَدَّرٌ بِقَدْ، وَاثْنَتَانِ اسْمِيَّتَانِ جَاءَتَا فِي عَجْزِ الْآيَةِ. مُقَابِلَةٌ وَنَسَجَ بَدِيعُ فُضَارِعٍ يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالِاسْتِمْرَارِ، لِأَنَّ الْآيَةَ تَسُوقُ مَعْنَى هُوَ تَمَادَى الْكَافِرِينَ فِي غَيْبِهِمْ، وَاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَيْهِ بِعَدَمِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَنْبَغِي عَنْهُمْ تَعْجِيلُ الْعَذَابِ، وَمَاضٍ مُصَدَّرٌ بِقَدْ تَحْقِيقًا لَوْ قُوعِ الْعَذَابِ إِذْ قَدْ حُلَّ بِمَنْ قَبْلَ هَؤُلَاءِ.

ثُمَّ تَأْتِي النَّتَائِجُ الْمُرْتَبِةُ تَحْمِلُهَا الْجُمْلَتَانِ الْمُؤَكَّدَتَانِ بِالْإِسْمِيَّةِ وَاللَّامِ وَهَذَا مَغْفَرَةٌ فِي جَانِبِ الْحَسَنَةِ، وَعِقَابٌ فِي جَانِبِ السَّيِّئَةِ. تَقَابُلٌ عَجِيبٌ مِنْ جِنْسٍ مَا يَعْمَلُهُ النَّاسُ، وَمِمَّا يَسْتَرْعَى النَّظَرَ ذَلِكَ الْجَارُ وَالْمُجَرُّورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «لِلَّذِينَ مَغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظَاهِهِمْ» إِنْ كَانَ مِنْ مَنَّةٍ فَهَذَا أَمْنٌ. بَلْ لَمْ يَحْمَلْ صَفْحَتَهُ تَعَالَى عَنِ النَّاسِ، وَمَغْفِرَتُهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ أَرْحَبُ وَأَعْظَمُ. بَعْدَ ذَلِكَ رَاحَ خَتَامُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِذْ جَاءَ بِهَذِهِ النُّقْلَةُ السَّرِيعَةُ فِي الْفَاصِلَةِ الْمُبْنِيَةِ عَلَى حَرْفِ الْبَاءِ وَقَبْلَهُ حَرْفٌ مَدِيدٌ الصَّوْتِ هُوَ «الْأَلْفُ»، بَيْنَمَا فَاصِلَةُ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ جَاءَتْ مُنْهِيَةً بِحَرْفِ الْوَاوِ وَالتَّوْنِ، وَفِي ذَلِكَ تَنْوِيعٌ يَتَجَدَّدُ مَعَهُ نَشَاطُ السَّامِعِ وَالْقَارِئِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ «قَرَرَتْ طَعْنَ الْكُفَّارِ فِي نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَلْبِهِمْ اسْتَعْجَالَ الْعَذَابِ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِمَسْأَلَةِ الْحُشْرِ وَالنَّشْرِ فَتَوَالَى السِّبَاقُ مَثْبُتًا طَعْنَ الْكُفَّارِ فِي نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَلْبِهِمْ الْمَعْجِزَةَ وَالْيَسِينَةَ (١)» عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْجِلٌ لِقَوْمٍ هَادٍ». هُنَا يَبْرُزُ الرِّابِطُ الْحَكِيمُ بَيْنَ تَرَاكُيبِ الْجُمَلِ إِذْ تَكْشِفُ عَمَّا أَرَادَهُ كُفَّارُ مَكَّةَ، وَاقْتَرَحُوهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَبَيَّنَ صَرَفُ اللَّهِ لَهُمْ عَمَّا طَلَبُوا مَقْرَرَةً وَظِيفَةَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ فِي الْهُدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ.

(١) انظر تفسير الرازي الجزء ١٩ ص ١٢ الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ المطبعة البهية بمصر .

وقد قال العلماء في وجه نظم هذه الآية : « أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم بين أنه تعالى عالم بجميع المعلومات فيعلم من حالهم أنهم هل طلبوا البيّنات الأخرى للاسترشاد وطلب البيان ؟ أو لأجل التعنت والعناد ، وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات ، أو يزداد استكبارهم وإصرارهم .

لا جرم أنه سبق في علمه المحيط بكل شيء أن طلبهم هذا إنما هو لمجرد العناد المحض فنعموا من تحقيق ما طلبوا (١) .

وفي الانتقال من أسلوب الخبر إلى الإنشاء في تراكيب الآية الكريمة ما يجدد نشاط السامع ، ويعينه على فهم المعنى المراد ، وأخيراً تأمل تقييد طلب هؤلاء الكفار بقول الله عنهم : « آية من ربه » كيف وليه الجواب مقيداً ، ومقصوراً « بإنما » في قوله : « إنما أنت منلر » ثم عطف على هذا الجواب قوله تعالى « ولكل قوم هاد » إن في ذلك من حسن الختام ما يفهم كل خصم ، وأعجب من ذلك تناسق الآية في مجمل تراكيبها وجلها ، وتقاربها في مجموعها فهي من شقين :

الأول : في إيراد الله سبحانه مقالة الكفار ، واستهزائهم برسوله صلى الله عليه وسلم وذلك بين من إسناد الرب إلى الضمير العائد إلى الرسول في قوله : « من ربه » أى كأنه رب له وحده ، وليس رباً لهم في زعمهم .

والثاني : في الرد عليهم من جملتين اثنتين هما : « إنما أنت منلر » ولكل قوم هاد » ، وقد جاءتا مؤكدتين بالإسمية مع ما فيهما من قوة الحصر بإنما لإحكام وتناسق عجيب .

وانعم النظر في قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى . . » إلى قوله : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » وتفحص أسرار هذه التراكيب في مدى تلاحمها ، وترباط جملها .

(١) المرجع السابق ص ١٤ ، ١٥ .

لقد قررت الآية السابقة ، والخاصة بمطالبة الكفار المعجزة من النبي صلى الله عليه وسلم أن علم الله محيط بكل شيء ، ولذا صرفهم عما طلبوا لعلمهم أنهم لا ينتفعون بهذا الطلب ثم جاء السياق مفصلاً علم الله الذي لا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ، ولا في السماء .

ولم يزل الترابط والإحكام في نسق الآيات متواصلاً إذا لما تحدثت الآية من قوله تعالى في أول السورة : « وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً إنا لنفخن خلقاً جديداً » لما تحدثت عن مبدأ المعاد جاءت آية « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد » ، لتقرر مبدأ الخلق والإيجاد مثبتة قدرة الله في الحالين .

والآن خذ الجملة من قوله : « الله يعلم » ، وتأمل سر تقديم لفظ الجلالة « الله » على الفعل يعلم . إن في ذلك تمكيناً لقدرة الله وتاماً لعلمه أفاده ما في العبارة من قصر وتخصيص استفيد من الجملة الإسمية .

والحظ هذه التقابلات العجيبة في صيغ هذه التراكيب المتفقة في الشكل فكلها من فعل واحد مضارع هو : يعلم ، تحمل ، تفيض ، تزداد ، وفي ذلك إشعار بالتجدد ، واستمرار علم الله ، وقدرته على الخلق ، ثم هذا الختام للآية في قوله : « وكل شيء عنده بمقدار » فهو يقدر الأمور بحكمته ، وعلمه ، وإرادته . لقد فصل في شق الآية الأولى ثم عمم في الشق الثاني سبحانه من لا تند عن علمه خاطرة فقد صورت الآية الكريمة علم الله بما في مكنونات الأرحام ثم عقب السياق بأن كل شيء « عنده بمقدار » والتناسق واضح بين كلمة مقدار ، وبين النقص والزيادة ، والقضية كلها ذات علاقة بإعادة الخلق فيما سبق من حيث موضوع السورة كما أنها - أعني الآية - ذات علاقة من حيث الشكل والصورة بما سيأتي بعدها من ذكر الماء الذي تسيل به الأودية « بقدرها » في السيولة والتقدير ثم إنه في الفيض والزيادة تلك المقابلة المعهودة في جو السورة العام (١) .

(١) انظر ظلال القرآن لسيد قطب الجزء الخامس ص ٧٦ الطبعة الخامسة . طبعة بيروت .

وبعد أن عمت الآية في خاتمها علم الله بكل شيء زاد أو نقص مما يتعلق بمدد استقرار الأجنة في الأرحام . انتقل السياق في قوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » إلى ما هو أكبر وأعظم في التقسيم من حيث إحاطة علم الله بكل شيء ، فهذه الآية كسابقتها حيث عمت المعنى ثم فصلته ، في جملتين اسميتين كمالات لتأكيد المعنى وقوته ، ومما يثير الإعجاب ويبحث على التأمل أن هذه الآية بمجملتها جاءت مركبة من خمسة ألفاظ كلها أسماء ، وليس بين هذه الأسماء من وسائل الربط سوى حرف واحد هو « واو » العطف . بل هناك البراعة في تلاحم الأجزاء في الجملة الأولى من خلال ما يسميه البلاغيون « بالتهذيب » الذي هو فن من فنون البديع . وله أنواع منها : ما يكون بعد الفراغ من تأليف الكلام وهذا النوع قد عرى منه القرآن لصدوره من عند الله سبحانه لا من عند البشر ، إذ أن كلام البشر بحاجة إلى التنقيح والتهذيب ، أما القرآن فليس بحاجة إلى هذه النظرة الآتية من هذا النوع لصدوره عن من هو أعلم وأحكم .

ومن أنواع التهذيب : ما يعضد المعنى ، وما تجتنب به العيوب اللاحقة لنظم الكلام . « وهذان النوعان من التهذيب هما اللذان جاء نظم القرآن عليهما غير مقصود هذان النظم ، ولا متكلف ، لأنه كلام قادر مطلق القدرة . وإنما الذي يتطلب النظر والتحري هو كلام البشر لنقصهم ونقص أعمالهم ، ومن هنا فقد استخدمت الآية الكريمة هذا الانتقال العجيب بواسطة أسلوب التهذيب غير المقصود المتكلف . وارتبت على كل بلاغة ، إذ أن التهذيب فيه معنى الانتقال من الأدنى إلى الأعلى على الترتيب . ولكن الآية هنا جاءت الانتقال فيها من الأبلغ وهو قوله تعالى : « عالم الغيب » إلى ما هو دونه في المرتبة وهو قوله والشهادة ، وهذا ما يوحى به ظاهر الألفاظ ، ولكن بالاستقراء والتدليل يظهر للمتأمل أن الآية اتبعت طريق الانتقال من الأدنى إلى الأعلى وفق طريقة فذة في النظم . وبيان ذلك ما ذكره « ابن أبي الأصبغ » في كتابه « بديع القرآن » إذ يقول : « إن علم الشهادة في حق الله سبحانه أبلغ ، فإننا لا نعقل أن علم الشهادة يعلم إلا بواسطة الحواس ، ومتى فقدنا الحواس فقدنا علم الشهادة ، وعلم الغيب لا يفتقر في تحصيله إلى الحواس ،

وقد ثبت بالبرهان القاطع تنزيه الحق سبحانه عن الحواس ، وثبت أنه يعلم علم الشهادة ، وحصول علم لا يعلمه إلا من له حواس لمن لم تكن له حواس أبلغ وأعجب ، من حصول علم لا يفتقر في حصوله إلى الحواس ، فثبت أن علم الشهادة ها هنا أبلغ (١) .

وفي ختام الآية هذان اللفطان الفريدان ، اللذان هما قوله تعالى : « الكبير المتعال » وهذان اللفطان لا نملك إلا الوقوف أمامهما خاشعين ، وقبل أن تنتقل إلى آية أخرى يجب أن نشير إلى ما ذكره ابن أبي الأصبع وهو يعرض لروعة النظم في قول الله تعالى : « عالم الغيب والشهادة » إذ يقول : « وحصول علم لا يعلمه إلا من له حواس لمن لم تكن له حواس أبلغ وأعجب » فقوله : « لمن لم تكن له حواس » صريح في نفي صفة البصر عن الله سبحانه لكن هذا النفي لا يعنى به ابن أبي الأصبع نفي الصفة ، وإنما يقصد نفي التشبيه اتباعاً لمذهب أهل السنة والجماعة الذين يثبتون لله من الصفات ما يليق بمجالاته من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ، ومن جهة أخرى فإن الله سبحانه الذى اختص بعلم الغيب أهون عليه علم الشهادة وإدراك ما يستطيع البشر إدراكه بحواسهم .

وقف عند قوله سبحانه : « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » وتأمل هذا النظم البديع إذ لما قرر السياق لإثبات علم الله المحيط بالشاهد والغائب في الآية السابقة من قوله : « عالم الغيب والشهادة » جاء قوله : « سواء منكم من أسر القول .. » الآية . وفى ذلك تفصيل لمدى علم الله جلّت قدرته - بكل شيء ، ومن بديع هذا النظم تلك المقابلات الفنية العجيبة بين الألفاظ ، ومن روائعه « مقابلة مستخف بسارب تلك اللفظة التى بظلمها تعطى عكس معناها ، فظلمها ظل خفاء ، أو قريب منه ، ولكن الحركة فيها هى المقصودة في مقابل الاستخفاء (٢) » فتم التقابل العجيب الذى يدركه كل من له أدنى ذوق بفن القول .

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الأصبع ص ١٥٩ تحقيق حنفى شرف الطبعة الثانية مطبعة نهضة مصر .

(٢) ظلال القرآن لسيد قطب « تفسير سورة الرعد » الجزء الثالث عشر من المجلد الرابع طبعة دار الشروق بيروت .

وإن كانت المقابلة هنا غير حقيقية ، بل تكاد تكون إيهاماً بالمقابلة ، لأن المستخفي يقابله الظاهر الذى يكشف عن نفسه ، أما السروب ففيه حركة خفية . ولذلك فهو قريب من الاستخفاء ففيه ما يمكن أن نسميه « مشاكلة معنوية » أو إيهام هذه المشاكلة . وقد فسر الطبرى « السارب » بالظاهر : أى الظاهر بالنهار فى ضوءه (١) وهنا تم المقابلة بين اللفظين .

ويمضى السياق مترابطاً إذ يقول سبحانه : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه . . . » إلى قوله : « وما لهم من دونه من وال » . فى هذه الآية رابط عجيب لمحظه المتأمل فى جو الآات السابقة حيث ترتب عليهن ذكر الأسباب الداعية إلى حلول عذاب الله بكل من يحيد عن الحق بعد ظهوره تكبراً وعناداً . وعلى ذكر الأسباب ترتب النتائج فى أسلوب هذه الآية ، والى من عجيب نظمها عرض الأمور التى ما أن راقبها الإنسان إلا كان بمنجاة من عذاب الله وبطشه ، تلك الأمور متمثلة فى قوله تعالى : « له معقبات » وهذا على القول : بأن الها فى « له » تعود إلى « من » فى قوله : « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به » . . . وعلى أن المراد « بالمعقبات » الملائكة الحفظة « وهو الذى عليه الجمهور (٢) » .

ويتبين بديع الرصف والتأليف فى ذكر الأسباب الداعية إلى حلول العذاب ثم فى ذكر ما من شأنه الحيلولة دون عذاب الله بحكمه ومشيته ، وهو عمل الملائكة الموكلين بحفظ البشر ومراقبتهم ففى اذ ذكر هذا الشأن وروقت حصل الخلاص من عذاب الله بأمره وحكمته وإن لم يراقب الإنسان ربه فى سره وجهره فليس بمنجاة من العذاب ، وهذا ما جاء مرتباً فى السياق من قوله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقوله : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » .

(١) تفسير الطبرى الجزء الثالث عشر من المجاهد السابع ص ٧٥ الطبعة الثانية دار المعرفة

بيروت .

(٢) انظر تفسير الرازى الجزء ١٩ ص ١٨ الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ . المطبعة البهية بمصر .

ومن بديع النظم في الآية أن وردت تراكيبها مصدرة بالجملة الاسمية في قوله : « له معقبات » مع بلاغة التقديم والتأخير هنا ، وفي ذلك تمام التوكيد وقوته ثم التنويع في العبارة بمجىء الجملة الفعلية من قوله : « يحفظونه من أمر الله » والفعل هنا مضارع ، وصيغة المضارع تفيد معنى التجدد والحدوث ، وهذا هو ما يتناسب مع عمل الملائكة الموكلين بالآدميين في جيئة وذهوب ، وحدوث واستمرار ، وفي تكرار لفظة قوم ، وتنكيرها ما يوحي بملاءمتها للفعل « يغير » إذ سبق للمعنى الانتقام والعذاب ، وفي تكرار لفظ الجلالة « الله » ثلاثاً ما يعضد المعنى قوة ووضوحاً إذ البطش والعذاب قوة . والله لا غيره القوى القادر العزيز .

وأخيراً نختم الآية بالجملة الاسمية في قوله : « فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » . وفي ذلك تأكيد لتقوية المعنى كما تقتضيه الجملة الاسمية ، وانظر لم خطفت الياء من لفظة « وال » ؟ فليس ذلك لجرد تناسق الفاصلة ، وإنما في ذلك تعبير عن إنزال العذاب ، وسرعته ، وعدم القدرة على رده والإفلات منه .

ولم تزل الآيات في تراكيبها متلاحمة متلاصقة إذ ترسم الآيتان الكريمتان من قوله تعالى : « هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً » حتى قوله تعالى : « وهو شديد المحال » . مشهداً علوياً هائلاً يؤذن بالرعب والخوف الشديد .

* * *

تلك نقلة عجيبة في سياق الآيات بارعة في نقل الحس والشعور ، فمن روائع النظم هنا ذكر البرق ، والرعد ، والسحاب الثقيل ، وبجانب تلك الظواهر تساق لفظتان هما « خوفاً وطمعاً » إذ أن الظواهر السابق ذكرها من برق ورعد وسحاب تحدث في النفس البشرية أمرين هما الخوف والطمع ولا ثالث لهما ، وهذا التعبير من براعة صحة الأقسام الذي هو عبارة عن استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئاً ، وكل ذلك أتت عليه الآية الكريمة .

فليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق ، والطمع في الغيث .
ومن بدائع النظم في الآية هنا تقديم الخوف على الطمع ، إذ أن الصواعق
يجوز وقوعها من أول برقة ، ولا يحصل المطر إلا بعد تواتر الإبراق ، فيبقى
عامل الخوف مسيطراً على النفوس ، أما إذا تواتر الإبراق ففي ذلك توقع
لنزول المطر . ولذا كانت العرب تعد سبعين برقة ثم تنتجع فلا تخطيء الغيث
والكلأ ، وإلى هذا أشار المتنبي بقوله :

وقد أرد المياها بغير هاد سوى عدى لها برق الغمام .

ولما كان الأمر المخوف يجوز وقوعه من أول برقة واحدة أتى ذكر
الخوف في الآية مقدماً لكون الواحد أول العدد ، ولما كان الأمر المطمع
من البرق إنما يقع بعد عدد من الأبراق أتى ذكر الطمع ثانياً لكونه لا يقع
إلا في أثناء العدد ، وليكون الطمع ناسخاً للخوف . كمجيء الرخاء بعد الشدة ،
والفرج بعد الكربة والمسرة بعد الحزن ، فيكون ذلك أحلى موقعاً في القلوب ،
ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى : « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا
وينشر رحمته » * (١) .

• • •

وقد حصل في هاتين اللفظتين اللتين هما بعض من الآية مع صحة التقسيم
حسن الترتيب والتهذيب ، ومن تمام المعنى وحسن النظم ختام الآية بقوله :
« وينشئ السحاب الثقال » ، فقد جاءت هذه الخاتمة بعد قوله : « وطمعاً »
فن ذا الذي لا يطمع فيما تحمله السحاب من خير ، وفي وصف السحاب
« بالثقال » ما مضى على المشهد روعة وجلالا وقوة تشهد أنه من صنع الله .

ثم عطفت الآية الثانية بالواو من قوله : و سبج الرعد بحمده والملائكة

(٢) انظر التبيان في شرح الديوان للمكبرى ص ٤١١ مطبعة بولاق .

(*) سورة الشورى الآية ٢٨ .

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الأصم ص ٦٥ ، ٦٦ تحقيق حفي شرف الطبعة الثانية

مطبعة نهضة مصر .

من خيفته . فهنا مشهد آخر ذو حركة مليئة بالخوف متمثلة في زجاجة الرعد وقصف الصواعق المدبرة بمشيئة الله ، والإطار المتضمن لتلك المعاني متحرك أيضاً يلحظ ذلك في الأفعال المضارعة ، يسبح ، يرسل ، يصيب ، يشاء ، يجادلون ، وراع العطف بالواو الذى وليه عطف بالفاء في قوله : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » ففي ذلك الدلالة على نفاذ أمر الله وسرعته من غير ما تباطؤ أو مانع يحول .

وبعد أن قررت هذه الآية أموراً كلها من عند الله ، وأزمها طوع إرادته من خير أو شر يصيب به العباد أو يصرفه عنهم ، جاء قوله : « له دعوة الحق » ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » .

وهنا يتضح الترابط المحكم بين الآيات . فقله : « له دعوة الحق » حتى آخر الآية تقرير بأنه ما من شيء سبق ذكره في الآية السابقة ، إلا وهو مسير ومدير بمشيئة الله وإرادته ، وأن ما دونه من المخلوقات لا تملك من الأمر شيئاً . وإذن له دعوة الحق لا لغيره .

والآن - لتفحص بعض تراكيب هذه الآية ، ولتنظر في مدى تلاحم كل لفظة مع أختها ، وقيام كل تركيب بوظيفته فيما يخدم المعنى ويوضحه .

انظر لأول الآية فقد صدر بالجار والمجرور مقدماً على خبره ، وفي ذلك تخصيص بأن مصدر كل شيء من عند الله وإليه وله ، فإذا « له دعوة الحق » ، وراع تلك الإضافة في قوله : « دعوة الحق » لأى غرض تلك ؟ « إنها من إضافة الموصوف إلى الصفة ، فحاصل المعنى أن الذى يستحق أن يعبد هو الله تعالى لا غيره فهو حق وله دعوة الحق (١) » ، ومعصد ذلك المعنى ويقويه قوله بعده : « والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » .

وبعينا في نظم تلك الآية الوقوف على كنه التركيب فيها وطريقته . فبعد قوله : « له دعوة الحق » خذ من الآية قوله : « إلا كباسط كفيه إلى الماء »

(١) انظر روح المعاني للألوسى الجزء الثالث عشر ص ١٢٣ . طبعة إحياء التراث . بيروت .

وانظر لسلسلة تلك الألفاظ وسهولتها ، مع أنها تعبر عن مشهد يتطلب ألفاظاً أقوى وأشد ، ولكن عدل عن غيرها إليها ، لأن التصوير نجاء منتزعاً من القريب الواقع فجىء له بالألفاظ قريبة المتناول ، ثم الحظ لم التعبير « بكفيه » دون كفه ، وما السر في تعريف لفظة الماء باللام ، كل ذلك معين لأداء المعنى على أكمل وجه ، في أكمل صورة وأبدع تركيب .

* * *

وهذا شأن الأسلوب القرآني في اتباع طريقة التصوير إذ يعمل على تقريب المعنى ، وتقريره في الأذهان ، وسيمر معنا القول في ذلك مفصلاً في حينه إن شاء الله .

وأخيراً تأمل تكرار النفي في سياق الآية من قوله : « وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » ثم لم لم يعبر بخسار أو ضياع ؟ ذلك التكرار للنفي والتعبير بضلال يبق المعنى مستمراً يشهد بخسران ما يعمله الكافر .

* * *

نسق الفواصل في سورة الرعد

قبل أن نستوضح نسق الفواصل في هذه السورة ، ونتبين أكثر الحروف التي بنيت عليها هذه الفواصل ، وخصائص هذه الحروف بحسن أن نشير إلى مفهوم الفاصلة القرآنية ، وقيمتها اللفظية ، والتركيبية والمعنوية .

* * *

ليس هناك عالم من علماء الأدب ، أو ناقد من نقاده إلا وقف عند أجراس الحروف التي تنتهي بها الجمل والتراكيب ، فإن هذه الأجراس والأصوات إذا اتفقت طربت لها الآذان ، ووجدت طريقها إلى القلوب .

وسموا هذه الظاهرة « بالسجع » ، وشاعت هذه التسمية عند جمهور العلماء من قديم الزمان إلى اليوم ، ولعل من أقدم علماء الأدب الذين قيدوا هذه الظاهرة في الكلام المنشور - أبا عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) الذي أطال في سرد كثير من النصوص المسجوعة مما أثر عن أمراء البيان ، ونقل كثيراً من الخطب والمواعظ الزاجرة التي تزخر بالسجع الرائق الجميل غير المتكلف . وليس يسمح المجال لذكرها خشية الإطالة والاستطراد ، ويمكن لأي باحث الرجوع إلى ذلك في كتب الجاحظ ، ولا مانع أن نسوق شاهداً واحداً لندل على ما ذكرنا ، فقد ذكر الجاحظ كلمات كان يخطب بها « سليمان بن عبد الملك » ومنها قوله : « اتخذوا كتاب الله إماماً ، وأرضوا به حكماً ، واجعلوه قائداً ، فإنه ناسخ لما قبله ولم ينسخه كتاب بعده » إلى غير ذلك من الأمثلة التي بلغت الذروة في البيان كتنقل الجاحظ خطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع (١) .

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ص ٢٠١ وما بعدها ط دار الفكر .

ومن أمثلة الجاحظ على السجع كثيراً ما يختلط السجع بالازدواج . وهو توافق الفاصلتين في الوزن .

وتتابع بعد الجاحظ كثير من العلماء الذين حاولوا تحديد مفهوم كلمة السجع ، وضربوا لها أمثلة كثيرة من القرآن الكريم ، وغيره من الكلام البليغ .

فقد تحدث عنها : أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦ هـ) في رسالته « النكت في إعجاز القرآن » تحت عنوان « باب الفواصل » وذكر : أن الفواصل « حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني ، والفواصل بلاغة والأمجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأمجاع فالمعاني تابعة لها ، وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها ، وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة ، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة كما ليس في سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة إذ كان المعنى لما تكلف من غير وجه الحاجة إليه ، والفائدة فيه لم يعتد به فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة . . والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع ، وتحسينها الكلام بالتشاكل ، وإبداؤها في الآي بالنظائر (١) .

وتحدث عن السجع والفاصلة القرآنية : بدر الدين الزركشي (ت ٨٧٩٤) في كتابه « البرهان في علوم القرآن » وفصل القول في الفواصل ، ورؤوس الآي ، ونقل ما فرق به الإمام « أبو عمرو الداني » بين الفواصل ورؤوس الآي : من أن الفاصلة هي الكلام المنفصل مما بعده ، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية ، وغير رأس ، وكذلك الفواصل . يكن رؤوس آي وغيرها ، وكل رأس آية فاصلة ، وليس كل فاصلة رأس آية ، فالفاصلة نعم النوعين ، وتجمع الضربين .

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام الطبعة الأولى مطبعة دار المعارف بمصر

ويشير الزركشي إلى أن الفاصلة القرآنية تقع عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها ، وهى الطريقة التى يبين القرآن بها سائر الكلام ، وتسمى فواصل ، لأنه ينفصل عندها الكلامان ، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها ، ولم يسموها أجماعاً ، فأما مناسبة فواصل : فلقوله تعالى : « كتاب فصلت آياته » ، وأما تجنب الإجماع : فلأن أصله من جميع الطير فشرف القرآن الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت طائر (١) .

وكلمة السجع عند العلماء : مأخوذة من سجع الحمامة إذا رددت صوتها وعن سجع الحمام نقلوا هذه اللفظة إلى الكلام المنشور المقفى ، إذا والى المتكلم الكلام على روى ، أى أن السجع في الكلام المنشور مثل الروى ، وعرفه بعضهم بأنه : « تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد في الآخر . أو هو نفس الفاصلة الموافقة الأخرى ، والسجع في أصله هو هدير الحمام . ثم نقل لهذا المعنى فلا يصرح بوجوده في القرآن ، لا لعدم وجوده في نفس الأمر ، بل لرعاية الأدب ولتعظيم القرآن ، وتنزيهه عن التصريح بما أصله في الحمام ، ولكونه من نغمات الكهنة في كثرة أصل إطلاقه ، ولا يقال في قرائن القرآن الكريم أجماع بل فواصل (٢) » .

ويصرح الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) بنى السجع من القرآن الكريم ، ويسميه فواصل . إذ يقول :

« كيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة في نفي الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوات ، وليس كذلك الشعر ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً – متقارب الفواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه ، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا في السجع غير مرضى ، ولا محمود (٣) »

(١) انظر البرهان للزركشي الجزء الأول ص ٥٣ ، ٥٤ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم .

(٢) شروح التلخيص لسعد الدين التفتازانى الجزء الرابع ص ٤٤٥ وما بعدها . مطبعة الخليلي

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥٨ ، ٥٩ الطبعة الثالثة ١٩٧٢ م . مطبعة دار المعارف

تحقيق أحمد صقر .

من خلال ما مر ذكره نرى أن بعض العلماء : أراد أن يفرق بين القرآن وغيره ، فاحتفظ بكلمة السجع لغير القرآن ، وخص ما يكون منه في القرآن باسم الفواصل .

والحقيقة أنه لا يروقنا هذا التفريق في المصطلح إذا اتحد المفهوم فإن حجة الذين فرقوا في التسمية ، فخصوا ما في القرآن باسم الفواصل ، وما في غيره باسم السجع . حجة واهية وهى قولهم :

« إن السجع موصوف بالتكلف لأنه من صنع البشر » .

وحاشا أن يكون شيء من هذا التكلف في كتاب الله عز وجل ، ولا نرى رأيهم ، لأن المفهوم إذا اتحد وجب أن يتحد المصطلح . أما قولهم : إن السجع فيه تكلف ، فإن كثيراً من السجع لا نرى فيه أثراً لهذا العيب ، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير من الكلام المسجوع الجميل الرائع ، وحاشا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم من المتكلفين . « قل ما سألتكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » وكذلك ورد في المأثور من كلام كثير من أهل اللسان والبيان من السجع ما هو رائع مطبوع ، لا يلحظ فيه شيء من التكلف الذى يشير إليه هؤلاء العلماء ، وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك أثناء الحديث عما ذكره الجاحظ عن « السجع » ، وليس معنى هذا أننا ننكر أن في السجع ما هو متكلف مصنوع ولكن ذلك يختلف من أديب إلى أديب ، ومن خطيب إلى خطيب ، ومن كاتب إلى كاتب ، بحسب تمكن كل واحد من هؤلاء من فنه الأدبي ، والذى كان ينبغي أن يقال : حتى لا يكون هذا التفريق المصطنع أن ياجأ أولئك الذين فصلوا بينهما إلى الموازنة بين سجع القرآن وسجع غيره من ضروب الكلام ، ومن حقهم بعد ذلك أن يفاضلوا بين الضربين وأن يحكموا بعد الدراسة الواعية والتذوق السليم بجودة سجع القرآن وتفوقه على سجع البشر .

على أن من العلماء من ساوى بين الأسجاع والفواصل في المفهوم فأطلقوا لفظ الفاصلة على كل موضع فيه سبعة وأطلقوا لفظ السجع على ما قد يقال

أنه فاصلة . وفهم صاحب القاموس الذى يقول : « إن السجع هو الكلام المقفى أو موالاة الكلام على روى والجمع سجاع كالأمجوعة بالصم وجمعها أساجيع وكنع نطق بكلام له فواصل (١) .

* * *

وإذا تتبعنا حروف الروى فى فواصل الآيات من سورة الرعد فلننسا سنجد تنويعاً فى الفواصل أى تنويعاً فى حروف الروى التى تنتهى بها كل آية من آيات هذه السورة . وإذا ألقينا نظرة على هذه الحروف وجدناها على الترتيب التالى من حيث الكم .

حرف النون فى الآيات الخمس الأول من السورة فقد انتهت كل آية بهذا الحرف كما فى قوله تعالى : « يؤمنون ، توفنون ، يشكرون ، يعقلون ، خالدون » حرف « الباء » فى خمس عشرة آية تنتهى بقوله تعالى : « العقاب ، الألباب ، الحساب ، باب ، الحساب ، أناب ، مآب ، متاب ، عقاب ، مآب كتاب ، الكتاب . الحساب ، الكتاب » . .

حرف الدال فى أربع آيات تنتهى بقوله تعالى : « هاد ، المهاد ، الميعاد ، هاد » .

حرف « الراء » فى سبع آيات ختمت كل آية منهن بقوله تعالى : « بمقدار ، النهار ، القهار ، الدار ، الدار ، الدار ، النار » .

حرف اللام : وهى من أكثر الحروف التى بنيت عليها الفاصلة فى هذه السورة الكريمة فقد وردت فى سبع آيات انتهت بقوله تعالى : « المتعال ، وال ، الثقال ، المحال ، ظلال ، الأصال ، الأمثال » ومثل اللام فى العدد « الراء » فى سبع آيات كما مر ، وأكثر منهما حرف « الباء » فقد وردت فى خمس عشرة آية كما ذكر :

(١) انظر القاموس المحيط ٣ - ٣٨ للفيروز آبادى .

حرف « العين » فى آية واحدة فقط : هى قوله سبحانه : « الله يسط
الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة
إلا متاع » .

حرف « القاف » فى آيتين اثنتين متساويتين مبنى ومعنى هما : لفظتا
« واق » .

وقد تمت حروف الروى فى فواصل السورة من سبعة أحرف هى :
« النون » و « الباء » و « الدال » و « الراء » ، و « اللام » ، و « العين » ، و « القاف » ،
كما هو مبين فى الإحصائية السابقة .

ومما يأسر الأسماع ويجذب القلوب ويشنف الآذان أن جميع الفواصل
التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة يوقف عليه بالسكون مسبوقاً بحرفى
مد هما الألف والواو ، وذلك علامة على وحدة الجرس فى حرف الروى
وما قبله لأن للسكون بعد المد وقعاً ترتاح له الأذن .

وهناك ظاهرة تستوقف الباحث المتأمل فى نظم الفواصل فى هذه السورة
الكريمة وتلك الظاهرة هى تماسك البناء فإننا نجد الآيتين والثلاث الآيات
والأربع الآيات تتوالى على حرف واحد أو روى واحد ثم يقطع هذا الحرف
فى آيتين بحرف آخر أو بفاصلة تبدو أنها منفردة ولكن القارئ أو السامع
سيجد نفسه بعد قليل فى الفاصلة التالية وقد عاد إلى الفاصلة التى سبقت بآيتين
أو بآية واحدة ثم يكون هنالك عود إلى هذا الحرف بعد آيتين أو ثلاث ، ومعنى
ذلك تمام الاتصال وتمام الائتلاف وجمال النظم الذى يجعل السورة الكريمة
بناء منسقاً متماسكاً تأخذ كل آية بأختها وتدل أولياتها على أخرياتها .

إن الحروف التى بنيت عليها الفواصل هنا حروف معدودة من حروف
المهجاء ومنها النون ، والدال ، والباء ، والراء . كما سبق . والمتأمل يرى أن
هذه الحروف تميزت بالوقف الذى سبق على أعذب مقطع ، وأسهل موقف ،
وشاع فيه مقابلة الجرور بالمنصوب ، والمرفوع بالجرور ، من ذلك قول
الحكيم سبحانه : « وما لهم من دونه من وال » يقابلها - أعنى الآية - قوله
تعالى : « وينشئ السحاب الثقال » فلفظ الفاصلة فى الأولى مجرور ، وفى

الثانية منصوب ، وقوله عز اسمه : « وما أواهم جهنم وبئس المهاد » لفظ هذه الفاصلة مرفوع ، وقبل بفاصلة لفظها مجرور ، من قوله : « إنما يتذكر أولو الألباب » .

ومما يسترعى النظر أنه لم يرد في أصوات فواصل السورة من الحروف الشفوية سوى « الباء » ذلك الحرف الذى تكرر في خمس عشرة آية .

والباء من الحروف التى يسهل نطقها فى المخرج ، بل لشدة سهولتها نسمع الطفل الصغير ينطقها فى يسر أول عهده بالكلام .

وإذا تتبعنا بقية الحروف فى فواصل هذه السورة ، ألفيناها جميعها من الحروف اللسانية ، وهى : التون ، واللام ، والراء ، والقاف ، والدال ، وهى حروف متوسطة من حيث سهولة المخرج على لسان المتكلم .

أما الحروف الحلقية ، وحروف اللهاى ، وهى أعسر الحروف ، وأشقها فى النطق ، وهى : الهمزة ، والهاء ، والعين ، والغين ، والحاء ، والخاء ، فقد خلت فواصل تلك السورة الكريمة منها ، عدا حرف العين الذى ذكر فى فاصلة واحدة فقط ، ولم يكرر فى الفاصلة التى تليها ، أو فى آية فاصلة غيرها . على أن هذه الفواصل وإن اتحدت فى حرف الروى لا يستطيع القارئ أو السامع أن لاحظ أى تكلف فى إيراد تلك الفواصل على هذا النحو ، فإن المعنى فى كل آية يقتضى فاصلة أشد اقتضاء حتى لقد نجد بعض الفواصل المسجوعة وقد اتحدت الكلمة كلها بجميع حروفها ومعانيها فى القرينتين أو فى ختام الآيتين المتتابعين وذلك راجع لشدة اقتضاء المعنى فأنت ترى مثلاً قوله تعالى : « لكل أجل كتاب » وقوله : « يحسب الله ما يشاء ويثبت » وعنده أم الكتاب « إن لفظة كتاب تكرر فى آيتين متواليتين وذلك لاقتضاء المعنى ، فالكتاب فى الأولى يقصد به معنى لكل وقت حكم يكتب على العباد أى يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم » والكتاب فى الثانية معناه « أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ لأن كل كائن مكتوب فيه (١) » .

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشري طبعة دار الفكر بيروت .

ومن أبرز خصائص حروف الفاصلة في السورة تناسب الحروف في مخارجها وانسجامها مع المد الناشئ في آخر كل آية الذي ينشأ عنه التأثير الروحي في جو السورة العام من خلال النغم الممتد عبر كل مقطع، وفي هذا ما يحدث في النفس نوعاً من الاطمئنان والراحة النفسية، وبمنظرة شاملة إلى مقاطع الفاصلة في السورة كلها يحس المتأمل بعدم التفاوت في مخارج الحروف وكل حرف جاء ملائماً لما بعده في السياق من حيث الرصف والبناء .

ومن حيث التناسق الصوتي في الشدة واللين والتفخيم والترقيق . خذ مثلاً قوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » وتأمل مخارج الحروف في لفظة يؤمنون كيف تشكل الحروف إيماء صوتياً عذبا . لا يمل ترداده إذ جاءت المخارج متناسبة في القرب والبعد فالياء من أسفل الفكين والهمزة من أقصى الحلق والميم من الشفتين والنون من طرف اللسان والواو من أعلى الشفتين دون إطباقهما حتى لا ينقطع النفس وحتى يظل الجرس مديداً لا يمل .

* * *

— ٣ —

ولقد كانت الفواصل أبرز مظاهر الائتلاف والتلاؤم . ولعلنا استطعنا في الكلمات السابقة أن نكشف عن طبيعة هذه الفواصل وعن التلاؤم في أجراسها ومعانها وأثر ذلك كله في نظم السورة الكريمة وخصائص هذا النظم .

* * *

ولكن هنالك جوانب أخرى لذلك التلاؤم في جزئيات هذه السورة وفي كلياتها، بل في داخل كل آية من آياتها، فهناك ملاءمة بين اللفظ ومعناه وملاءمة بين اللفظ وجبرته من الألفاظ من ناحية الأصوات والدلالات، وهنالك تلاؤم يجمع شمل الوحدات المتعاقبة في هذه السورة الكريمة ويقضي هذا البحث المتخصص الإسلام بكل جانب من هذه الجوانب .

ومن واجبهنا قبل الشروع في تحقيق هذه الغاية أن نلم بمفهوم كلمة التلاؤم وتحديد العلماء لمعناها سواء أكانوا من علماء اللغة ومولتي المعجمات اللغوية

أو كانوا من العلماء الاصطلاحيين الذين تحدثوا عن ذلك التلاؤم في القرآن الكريم بخاصة وفي التعبير الأدبي بعامة .

وإذا بحثنا عن مفهوم التلاؤم ومعناه عندهم وجدنا لهذه اللفظة أكثر من معنى في أكثر من لفظ . فقد جاء في لسان العرب مما نحن بصدده في معنى هذه المادة :

١ - اللأم : الاتفاق ، وقد تلاءم القوم والتأموا : اجتمعوا واتفقوا . وتلاءم الشيطان إذا اجتمعا واتصلا . ويقال : التأم الفريقان والرجلان إذا تصالحا واجتمعا ومنه قول الأعشى :

يظن الناس بالملك بين أنهما قد التأما
فإن تسمع بلأمهما فإن الأمر قد فقما

٢ - وهذا طعام يلائمني . أى : يوافقنى ، ولا تقل يلاومنى ، وفي حديث ابن أم مكتوم :

« لى قائد لا يلائمنى » أى يوافقنى ، ويساعدنى ، وقد تخفف الهمزة فتصير ياء ، ويروى يلاومنى بالواو ولا أصل له ، وهو تحريف من الرواة لأن الملاومة مفاعلة من اللوم .

* * *

وفي حديث أبي ذر : « من لايمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون » . قال ابن الأثير :

« هكذا يروى بالياء منقلبة عن الهمزة ، والأصل . لاءمكم » .

٣ - ولأم الشيء لأما ، ولأامه ، ولأمه ، ولأمه : أصلحه فالتأم وتلام .

٤ - واللأم : الصلح . مهموز ، ولأامت بين الفريقين : إذا أصلحت بينهما ؛ ولأامت بين القوم ملائمة : إذا أصلحت وجمعت ، وإذا اتفق الشيطان فقد التأما ، ومنه قولهم : هذا طعام لا يلائمنى . ولا تقل : يلاومنى . فإن هذا من اللوم ، واللأم : الصلح والاتفاق بين الناس . أنشد ثعلب :

إذا دعيت يوماً نيمراً بن غالب رأيت وجوها قد تبين نيمها

٥ - وريش لؤام : يلائم بعضه بعضاً . وهو ما كان بطن القذة منه يلي ظهر الأخرى ، وهو أجود ما يكون ، فإذا التقي بطنان أو ظهران فهو لغاب ولغب (١) قال أوس بن حجر :

يقلب سهماً رأسه بمنالك ظهار لؤام فهو أعجف شاسف (٢)

٦ - والتأم الجرح : التئماً : إذا برأ والتحم ، قال الليث : ألأمت الجرح بالدواء ، والأمت القمقم : إذا سددت صدوعه ، ولأمت الجرح والصدع إذا سددته فالتأم .

٧ - وفلان لثم فلان ، ولثامه أى : مثله وشبهه والجمع الآم ولثام . عن ابن الأعرابي وأنشد :

انعقد العام لا نجنى على أحد مجندين وهذا الناس آلام

* * *

وقالوا : لولا الوثام هلك اللثام قيل معناه الأمثال وقيل : المتلائمون ، وفي حديث عمر : أن شابة زوجت شيخاً فقتلته ، فقال : أيها الناس لينكح الرجل لمتة من النساء ولتنكح المرأة لمتها من الرجال . أى شكله وتربه ومثله ، والهاء عوض من الهمزة الذاهبة من وسطه ، وأنشد ابن برى :

فإن نعبر فإن لنا لمات وإن نعبر فنحن على ندور

أى سنموت لا محالة . وقوله لمات أى أشباه .

هذا بعض ما أورده ابن منظور من المعاني التي يستعمل فيها لفظ التلاؤم ومشتقاته إلى غير ذلك من معاني أخرى ليس لذكرها حاجة فيما نعرض له ونقصد إليه .

(١) لغاب ولغب : اللغب الريش الفاسد مثل البطنان منه ، وسهم لغب ولغاب فاسد لم يحسن

عمله . لسان العرب مادة لغب .

(٢) أعجف شاسف : الأعجف الهزيل ، والنصل الرقيق .. والشسف : الفاحل الشامر

والياس . لسان العرب مادة عجف وشسف .

وأورد الزمخشري في الكشف :

١ - لأم : صدع ملتئم ومتلائم ومتلائم ، وقد لائمته ظلامته ولأمته ، وفلان لا يلائمني : لا يوافقني .

٢ - وريش لؤام خلاف لغاب إذا التقى بطن قذة وظهر أخرى ، وسهم لأم مريش اللؤام وبه فسر : كرك لأمين على نابيل ، ولبس لأمته وهى الدرع المحكمة الملتئمة .

٣ - ولبسوا اللأم وقيل اللؤم كقرية وقرى قال المتلمس :

وعليه من لأم الكتاب لأمة فضفاضة فيما يقوم ويجلس

٤ - واستلأم : أى تدرع .

٥ - ومن المجاز والكناية : هذا طعام لا يلائمني .

٦ - وما التأمت عيني حتى فعل كذا : أى ما ثقفه بصرى .

٧ - وهذا كلام لا يلتئم على لسانى . ورجل لؤمه : أى يحكى ما يصنع غيره .

* * *

وبتأمل تلك المعانى التى أوردها أصحاب اللغة مما سبق ذكره يتضح لنا أن معنى التلاؤم ومفهومه : الاتفاق ، والاجتماع والاتصال والتناسق .

وتلك المعانى وثيقة الصلة بالمعنويات ، كما هى وثيقة الصلة بالحسيات : فإنك تقول : تلاءم القوم إذا اجتمعوا واتفقوا ، كما تقول : تلاءم الكلام إذا اجتمعت ألفاظه فى إطار حسن جميل ، وتوافقت أولياته مع أخرياته ، ومن معانيه التلاحم ، والالتحام كما قال صاحب اللسان :

النأم الجرح التأمًا إذا أبرأ والتحم ، وهذا المعنى فى الكلام من صفات حسنه إذ يقال : كلام متلاحم الأجزاء ، ومن معانى التلاؤم : الشبه ، والترب والمثل . كما قال صاحب اللسان : فلان لثم فلان ، ولثامه أى : مثله ،

وشبهه ، وهذا المعنى يرد وصفاً للكلام إذا تشابهت أطرافه ، وتلاءمت .
وأصبح بعضه بسبب من بعض .

ونورد في هذا السياق شيئاً مما ذكره علماء البلاغة والأدب فيما يتعلق
بمعنى هذه اللفظة ومفهومها .

هناك ألفاظ اصطلاحية آثرها بعض أولئك العلماء على لفظة « التلاؤم »
مما يؤدي معناها من مترادفات اللغة ، ومن هذه الألفاظ :

أ - التناسب ، والمناسبة . بل إن البلاغيين استخرجوا فناً من فنون
البدیع سموه « مراعاة النظر » ويسمى « التناسب » « والتوفيق » ، « والاتلاف »
« التلفيق » أيضاً ، ويؤخذ من معناه ، وجه التسمية ، وهو أى « مراعاة
النظر » جمع أمر وما يناسبه . أى أن يجمع بين أمرين متناسبين ، أو أمور
متناسبة لا بالتضاد ، بل بالتوافق ، في كون ما جمع من واد واحد . لصحبته
في إدراك ، أو لمناسبة في شكل ، أو لتوقف بعضه على بعض .

والجمع في هذا الباب قد يكون بين أمرين نحو قول الله تعالى : « الشمس
والقمر بحسبان » فقد جمع بين أمرين هما الشمس والقمر ولا يخفى تناسبهما
وقد يكون بين ثلاثة ... ، ومن « مراعاة النظر » ما يسميه بعضهم تشابه
الأطراف . وهو : أن يختم الكلام بما يناسب ابتداءه ، كقوله تعالى :
« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . فإن اللطيف
يناسب « لا تدركه الأبصار » والخبير يناسب « وهو يدرك الأبصار (١) » .

وأما المناسبة فهي على ضربين : « مناسبة في المعاني ، ومناسبة في الألفاظ
فالمعنوية هي : أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ
والفرق بين هذا الضرب ، وبين الملاءمة هو : أن الملاءمة تكون في مفردات
الألفاظ ومعانيها ، وهذا الضرب من المناسبة بين الجمل المركبة ومعانيها »

(١) انظر شروح التلخيص ص ٣٠١ وما بعدها لسعد الدين التفتازاني الجزء الرابع
مطبعة الحلبي .

واللفظية : هى عبارة عن الإتيان بلفظات مترنات مقفاة وغير مقفاة .
فالمقفاة مع الاتزان . مناسبة تامة ، والمترنة من غير التقفية مناسبة ناقصة .

٢ - ومن الألفاظ التى يؤثرونها على غيرها فى شرح معنى التلاوؤم :
« المشكلة » بل لقد يتوسعون فى مفهومها فيخصصون باباً يسمونه : باب
المشكلة وهى عندهم التعبير عن الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً
أو تقديراً .

٣ - ومنهم من آثر كلمة الائتلاف وأمامهم فى هذا قدامة بن جعفر
« ت ٣٣٧ هـ » الذى جعل عناصر الشعر أربعاً هى : اللفظ ، والوزن ، والمعنى
والقافية وذكر لكل عنصر من هذه العناصر ما يحسن به وما يقبح عند النظر
إليه مفرداً ثم عاد فذكر الائتلاف بين عنصر وعنصر آخر من هذه العناصر
حيث فصل القول فى ائتلاف اللفظ والمعنى وذكر له أنواعاً ستة هى :
المساواة ، والإشارة ، والإرداف ، والتثليل ، والتطبيق ، والتجنيس ...
وائتلاف اللفظ والوزن وهو من دلائل نضج الشاعرية واستوائها حيث طواعية
الألفاظ للنغم الذى يؤثره الشاعر وانقياد هذه الألفاظ للوزن التى يتخيرها ،
وائتلاف المعنى والوزن وهذا لا يعدو ائتلاف اللفظ مع الوزن فبالشاعرية
المطبوعة وجودة التناسق التام بين الألفاظ يبسط الشاعر معانيه دون أن
يحد هذا الوزن من الرغبة فى هذا البسط ويركز ما أراد التركيز ويدقق ما يشاء
أو يكتفى باللمحة الدالة حين يريد من غير أن يضطره الوزن إلى شئ
من الزيادة وذكر قدامة ائتلاف القافية مع ما يدل عليه معنى البيت . والقافية
إنما هى لفظة مثل ألفاظ سائر البيت من الشعر فائتلافها كسائر لفظ الشعر
المؤتلف مع المعنى (١) ومن فصل القول فى الائتلاف ابن أبى الأصبع
فى كتابه « بديع القرآن » وملخص الائتلاف عنده : أن تكون ألفاظ المعنى
المراد يلائم بعضها بعضاً ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها غير لائقة بمكانها
كلها موصوف بحسن الجوار بحيث إذا كان المعنى غربياً قمحاً كانت ألفاظه

(١) انظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبى للدكتور بدوى طباعة ط الثالثة ص ٢٩٤ ،

٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ المطبعة الفنية الحديثة بمصر ١٣٨٩ هـ .

غريبة محضة وإذا كان المعنى مولداً كانت الألفاظ مولده وإذا كان المعنى متوسطاً كانت الألفاظ كذلك . . . ومن أمثلة الائتلاف قوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً (١) » أو تكون من الهالكين فألفاظ هذه الآية الكريمة آية في التناسب والائتلاف والذي ينبغي أن ننبه عليه في هذا المقام أن من جودة الائتلاف بين ألفاظ هذه الآية حسن الوضع في النظم بحيث جاورت كل لفظة أختها وجعلت من جنسها في الغرابة أو الاستعمال رغبة في ائتلاف المعاني بين الألفاظ وتناسبها وتعادلهما في النظم .

٤ - ومن البلاغيين الذين عالجوا مفهوم التلاؤم ومعناه أمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني « ت ٤٧١ هـ » الذي يهيم بكلمة النظم ويؤثرها على كل اصطلاح وإن كان التلاؤم أبرز ما درسه في فكرة النظم ويكفيها شاهداً على مفهوم التلاؤم وإن من معانيه النظم عند عبد القاهر ، ذلك الأسلوب التحليلي للآية الكريمة التي هي قول الله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين » وقد سبقت الإشارة إلى الآية الكريمة أثناء البحث عن النظم وأنه وجه من وجوه الإعجاز الذي يعيننا في هذا المقام هو الطريقة التحليلية للآية الكريمة كما شرحها عبد القاهر حيث يرى أن مما يزخر به نظم الآية هنا حسن مجاورة الألفاظ وجعل بعضها بسبب من بعض حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وأنه لا علاقة للفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق ولكن مرد ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب » وهذا ظاهر في كل كلام تلامت ألفاظه وتراكيبه ومعانيه . ودليل آخر على ماذهب إليه عبد القاهر في الأخذ بالنظم في معنى التلاؤم هو قوله : « ولكن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتونسك

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الأصبح تحقيق حفي محمد شرف ص ٧٧ الطبعة الثانية مطبعة دار نهضة مصر .

في موضع ثم تراها بعينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر (١) : « وإذا لابد من مراعاة وضع اللفظة بجانب أختها حتى يتم التلاؤم بين أجزاء الكلام كله .

ويشير الرماني في « النكت » إلى معنى التلاؤم بأنه نقيض التنافر وأنه تعديل الحروف في التأليف ، وفائدته حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة ، وطريق الدلالة « (٢) .

والتلاؤم في حقيقة معناه ، وطبيعة مداه ، « كلمة جامعة لكل وصف لابد منه في اللفظ ليكون الكلام خفيفاً على اللسان ، مقبولا في الأذن ، موافقاً لحركات النفس ، مطابقاً لطبيعة الفكرة ، أو الصورة ، أو العاطفة التي يعبر عنها الأديب » (٣) .

إذا كان من مفهوم التلاؤم : المناسبة بين الألفاظ ، والمشاكلة بينها ومن معانيه الاتفاق ، والاتساع ، كما مر ذكره عند أصحاب اللغة ، وعلماء البلاغة ، والأدب فلنبداً الحديث عن مظاهر التلاؤم بين اللفظ وجيرته . « في سورة الرعد » لئرى مدى تلاؤم اللفظة في الآية القرآنية من هذه السورة الكريمة ، من حيث حسن الجوار والتلاحم في الحروف من جهة مخارجها ، وأثر ذلك في نظم السورة . متبينين تلك الظاهرة في عدد من آياتها . قال تعالى : « الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها . . . » إلى قوله عز وجل : « لعليكم بقاء ربكم توقنون » .

تخير ما شئت من ألفاظ تلك الآية ، وتأمل طريقة نظمها من حيث تلاؤم

(١) انظر البيان العربي للدكتور بدوي طبانه ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ ط الرابعة المطبعة الفنية الحديثة ١٣٨٨ هـ .

(٢) انظر النكت في إيجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إيجاز القرآن ص ٨٨٠ ، ٨٧٦ .
تقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام .

(٣) انظر دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات ص ١٢٢ الطبعة الثانية مطبعة الاستقلال بالقاهرة .

الحروف ، واستواء كل لفظة بجانب أختها . خذ مثلاً قوله تعالى : « استوى على العرش وسخر الشمس والقمر » وابدأ في تحليل الألفاظ الثلاثة الأولى : استوى على العرش ، نعم إنه استواء مطلق يليق بجلال الله تعالى . ترسمه الآية هنا على طريقة القرآن في تقريب الأمور المطلقة الغيبية إلى مدارك البشر المحدودة ، ثم راع قرب مخارج الحروف ، واعتدالها في هذه الألفاظ ، فالسين والتاء في لفظة « استوى » من أول الفم ومن طرف اللسان ، وبعدهما حرفاً مد : هما الواو والألف المقصورة مما يعطى النفس إعانة في النطق ، وراحة في الأداء ، ثم لم التعبير بعلى دون فوق تلك التي تؤدي معنى العلو ؟ ذلك لأن لفظة « على » تعطى المعنى على أتم وجه يتناسب مع العلو المطلق التي رسمته لفظة « استوى » ، وأعجب من ذلك تقارب الحروف في قوله « على العرش » فالعين من أقصى الحلق ، واللام من طرف اللسان ، وبعدها لام أخرى في لفظة « استوى » لكأن الناطق بالحرفين يؤدي حرفاً واحداً لسهولة النطق ، وقرب المخرج ، أي نظم يساوى ذلك التعديل والتلاؤم ؟

ثم أخلص إلى الألفاظ الثلاثة الآخر في قوله : « وسخر الشمس والقمر » فإلى جانب اللمسة الأولى في العلو المطلق تأتي اللمسة الثانية في جانب العلو المنظور ، والامستان تتجاوزان وتتسقان في السياق (١) وبجانب هذا التجاور انظر لجمال ذكر الشمس بجانب القمر ، وأروع منه رصف تلك الحروف فالكلمة الأولى تنتهي بحرف الراء كما في سخر ، والكلمة الثالثة تنتهي بها أيضاً كما في لفظ القمر .

ولكن أذكر الشمس قبل ذكر القمر لأجل ذلك التآلف في الحروف فحسب بحيث تأتي الراء في الأولى وفي الثالثة متقابلتين ؟ ليس ذلك لأجل هذا بل هناك حكم لا يعلمها سوى اللطيف الخبير . ولعل في تقديم ذكر الشمس على القمر التنويه بأنعام الله بها على سائر المخلوقات .

أما حروف الألفاظ الثلاثة فعظمها من الحروف لهامسة كالسين في سخر

(١) انظر ظلال القرآن لسيد قطب الجزء الخامس ص ٧٠ طبعة بيروت .

والشبن والسين في « الشمس » وهذه الألفاظ مجتمعة تؤدي معنى العظمة الكاملة ، والقوة القادرة ، وهذه الحروف في همسها وصغيرها كأنما تتبع أحداث هذين الكوكبين العظميين ، وسريانها في جوانب الكون القسيح المترامى الأطراف .

وإذا فهذا التلاؤم تلاؤم في الحرف واللفظ والمعنى .

إذا كان هذا بعض ما أدركناه عن تلاؤم الستة الألفاظ السابق ذكرها في آية واحدة . فكيف بالحال لو استعرضنا تراكيب السورة بأكملها وبجميع جزئيات هذه التراكيب ؟ مثل ذلك لا يتأتى لباحث إلا بعد جهد ونوفر طويلين ، فلنأخذ بعض آيات آخر .

قال تعالى : « وهو الذي مد الأرض ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » الآية .. إلى قوله : « وإن ربك لشديد العقاب » .

الآيات هنا جاءت لرسم خط عريض للجانب السفلي من الكون .. وفي ذلك تلاؤم تام إذ أن ما سبق هذه الآيات سيق عن الجانب العلوي من مخلوقات الله تعالى .

وقد مر معنا في معرض الكلام على نظم تلك الآيات ما يكفي عن استعراض كثير من ألفاظها ، وإذا سنوئاً إلى مظاهر التلاؤم بين الألفاظ هنا ما وسعنا الجهد .

إن أول ما يبدو من مظاهر التلاؤم بين ألفاظ تلك الآيات وحروفها ذلك الهدوء الذي يتطلبه الأمر بالتأمل والتفكير في ملكوت الكون .

فلاحظ مثلاً خفة التعبير بلفظة « جهل » مكررة في موضعين ، ولاحظ التعبير « يبتفكرون » إذ جرى به فيما يستوجب التفكير ، والتعبير « يبعقلون » فيما يستوجب التعقل ، وانظر لتمام التلاؤم بين لفظي « جنات من أعناب » فلم التعبير بقوله « من أعناب » دون من نخيل أو زيتون أو رمان ؟ إن في ذكر الأعناب ما يدعو إلى التأمل . وتمام التلاؤم واضح . فإن الجنة في اشتقاقها

مأخوذة من جن أى ستر وغطى ومنه الجنين فى الرحم لستره عن الأنظار ،
ومنه جن الليل أى ستر ..

وشجرة العنب فى شكلها ليست فارعة كغيرها من أنواع الأشجار
الأخرى ، وإنما هى مرسلة تغطى ما تحتها وتستره . فتلاءم لفظ أعناب بجانب
لفظ جنات معنى . بل ولفظا فهما جمعان .

وراع التعبير : بلفظتى « يسقى بماء » فقد جاءتا بعد تعداد أصناف من
انثار والزررع ، فلو أن متحدثاً أطال النفس عن ذكر هذه الأصناف
كما طال ذكرها وتعدادها فى الآية ، لذكر بعد كل صنف أو صنفين
ذكر السقى بحكم قصوره البيانى . ثم ما حياة تلك الأصناف ، وما قيمتها
بغير السقى بالماء هنا يبدو سر التلاؤم فى نسق الآيات جميعها طالت أو قصرت .

وإذا كانت هذه لمحات عن التلاؤم فى الألفاظ فكيف بأسرار التلاؤم
فى التراكيب إذ طلبه عسير على كل متحدث ، لكنه فى القرآن الكريم غير
شاق ولا عسير ، لصدوره عن من هو أعلم ، وأحكم .

• • •

مظاهر التلاؤم فى التركيب

إن دراسة الآية القرآنية تتصل اتصالاً مباشراً بدراسة اللفظة المفردة ،
لأن هذه أساس تلك ، ونعد فى دراستنا هذه كل آية من القرآن قائمة مقام
الجملة ، وذلك إثارة للإيجاز . أى أننا نعد الآية وحدة السورة غير غافلين
عن معنى الجملة فى علم العربية .

وإذا عرضنا لدراسة التراكيب ، وتلاؤمها فى سورة « الرعد » فإنما
نعرض لدراسة الآية . مستوضحين كيف أحكمت أدق تنسيق بحيث لا نحس
فيها بكلمة يضيق بها مكانها ، أو تنبو عن موضعها أولاً تعيش مع أخواتها .
متبينين فى كل آية مما نختاره شاهداً على التلاؤم فى التركيب ، عن كون

تلك الآية مكملة لما قبلها ، وتلك مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبها لما قبلها وما سيقّت له ، بالإضافة إلى تلاؤم الجمل داخل الآيات .

فالصلة بين كل آية وأخرى هي مظهر التلاؤم في التركيب ، وقد عرضت سورة الرعد في جميع آياتها لجمل كثيرة جاءت آية في الإحكام والترابط والتلاؤم الذي جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض فصار البناء المحكم المتلائم الأجزاء .

خذ مثلاً قوله تعالى : « قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفنتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . . » إلى قوله تعالى : « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار . . »

تأمل كم جملة اشتملت عليها هذه الآية فهي تسع جمل . كل جملة وثيقة الاتصال بما قبلها ، وبما بعدها . وقبل أن نوضح مظاهر التلاؤم بين تلك الجمل يجب أن نبحث عن صلة تلك الآية بما قبلها ، فذلك معين لنا على التعرف على مظاهر التلاؤم بين أجزاء جملها .

إن وجه صلتها بما قبلها « هو أن سابقتها تضمنت أن كل من في السماوات والأرض ساجد لله فلزم الإنكار على عبدة الأصنام ، والتوجه إليهم « بقل » « يا محمد » « من رب السماوات والأرض » الآية (١) ؟ .

ويوضح وجه الصلة أن الآية السابقة على تلك هي قوله تعالى : « ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم بالغدو والآصال » فجاء التلاؤم المحكم بين الآيتين .

والآن لندخل في تفصيل ذلك التلاؤم والترابط بين جمل تلك الآية . أعني قوله تعالى : « قل من رب السماوات والأرض . . . » .

إن أول جملة تطالعنا في الآية الكريمة هي تلك الجملة المركبة من فعل الأمر « قل » وفاعله الضمير المستتر وجوباً والعائد على محمد صلى الله عليه وسلم .

(١) انظر تفسير الرازي الجزء ١٩ ص ٣١ ط الأولى ١٣٥٧ هـ المطبعة البهية بمصر .

إنها جملة أمرة تترك النفس بعد انقضاء زمن التكلم مشرئبة متطلعة إلى ما سيليقي إليها ، وإلى ما ستؤمر به ، وقد حصل مفهوم ذلك الأمر في جملة « من رب السماوات والأرض » .

والذي يسترعى النظر في هذا التركيب . هو التعبير بلفظة « رب » دون موجد أو خالق ، إذ في لفظة « رب » من معنى الألوهية ما هو أعم وأكمل فيدخل تحتها معنى الخالق الموجد المتصرف رب كل شيء .

ثم تضي الآية في سرد تلك التراكيب والجمل المحكمة فيأتى الجواب في جملة « قل الله » ، ولما كان هذا الجواب جواباً يقربه عبدة الأصنام ويعترفون به ، ولا ينكرونه . أمر الله نبيه بأن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيهاً على أنهم لا ينكرونه البتة .

ولما بين سبحانه أنه الرب لكل المخلوقات قال : قل لهم : « فلم اتخذتم من دون الله أولياء » ، وهى جمادات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فعبادتكم إياها محض العبث والسفه ، ولما ذكر سبحانه هذه الحجة الظاهرة بين أن من يمثلها يكون كالأعمى ، والعالم بها كالبصير . وأن الجاهل بها كالظلمات ، والعلم بها كالنور .

وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوى العالم بها فكذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوى البصير ، وأن الظلمة لا تساوى النور ، وقد أكد الله سبحانه هذا البيان بالجمل المتساوقة في قوله : « أم جعلوا الله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم (١) » . ثم جاء ما يتلاءم مع هذا التوكيد ، وهو قوله : « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » فالتوكيد في الجمل الأولى اتبع بتوكيد آخر من خلال الأمر ، والجملتين الإسميتين .

أما قوله : « خالق كل شيء » فيستوجب أن يأتي بعده في السياق قوله : « وهو الواحد القهار » وقد حصل ، لأن خالق كل شيء ثلاثمه وثبت له

(١) انظر تفسير الرازى ص ٣١ الجزء ١٩ الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ المطبعة البهية بمصر .

صفة الوجدانية ، والقهر والقوة . إن هذا النظم لمن براعة الاتساق ، والتلاؤم
في تركيب كل جملة وصلتها بأختها .

* * *

وهذا شاهد آخر من قوله تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون
الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون
سوء الحساب . . » إلى قوله في شأن الكفار : « أولئك لهم اللعنة ولهم سوء
الدار » .

في هذا النص ست آيات كل آية اشتملت على أكثر من جملة ، وكل جملة
اشتملت على تركيب جاء آية في الإحكام والتناسق . إذ كل آية بنيت على صلة
وثيقة بما قبلها وما بعدها . ففي الأولى نلاحظ أنه سبقها آية تشيد بذكر أولى
الألباب ذوى التفكير ، والتدبر ، والإيمان على حد قوله تعالى : « إنما يتذكر
أولو الألباب » .

ومن هنا جاءت الآيات الخمس الأولى مرتبطة في تراكيبها بما سبقها
متلائمة في النسق ، إذ لما انتهى نفس الآية السابقة عليهن عند قوله : « أولو
الألباب » شرعت الآية الأولى من الخمس المذكورة ، في صفات ذوى
الألباب ، وأنهم السعداء لمحافظتهم على العهد المطلق ، والميثاق المطلق والعهد
الأكبر الذى تقوم عليه العهود كلها ، هو عهد الإيمان ، والميثاق الأكبر
الذى تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

هكذا يعضى التركيب فى الآية مقررأ أن وفاء هؤلاء البشر من الناس
بالعهد الإلهى ، والميثاق الربانى داخل تحته الوفاء بالعهود والمواثيق مع
الناس كافة .

ثم يعضى التركيب مقررأ فى إجمال صفات أولئك السعداء وأنهم أهل
طاعة كاملة واستقامة واصلة ، وصبر على السنة بلا انحراف ، ولا التواء (١) .

(١) انظر ظلال القرآن لسيد قطب ج ١٣ ص ٨٩ طبعة بيروت .

بعد ذلك تتوالى التراكيب مقررّة جزاء هؤلاء الناس على صنيعهم وأنه
الجنة التي هي مطمع كل مؤمن « أولئك لهم عقبي الدار جنات عدن
يدخلونها . . » .

* * *

وبعد أن رتب الجزاء وفق العمل جاءت الآية السادسة والأخيرة من
النص تحمل في تراكيبها صفات أخرى لفريق آخر من الناس إذ يقول تعالى :
« والذين يتقضون عهد الله من بعد ميثاقه . . » الآية .

ومظاهر التلاؤم واضحة في سبق صفات السعداء « وما ترتب على هذه
الصفات من الأصول الشريفة ، والجزاء الحسن ، ثم في العطف ببيان حال
الأشقياء ، وما يترتب عليها من الأصول المخزية المكروهة ، فجاء التركيب
متبعاً الوعد بالوعيد ، والثواب بالعقاب ليكون البيان في غاية الكمال (١) » .

* * *

ومثل ذلك الأسلوب القائم على التلاؤم التام ، يجري في آيات السورة
جميعها . إليك مثلاً قوله تعالى : « لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة
أشق وما لهم من الله من واق » ، وقوله : « مثل الجنة التي وعد
المتقون . . . » الآية .

ولعلك تسأل عن وجه صلة قوله : « مثل الجنة الآية بما قبله . وبيان
ذلك هو أن وجه صلة هذا التركيب ، مجيء الآية الأولى مبينة عذاب الكفار
في الدنيا وفي الآخرة فأتبع التركيب بذكر ثواب المتقين (٢) » .

وإن شئت تفصيلاً في تلاؤم تركيب الآيتين فتأمل قوله : « لهم عذاب في
الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق » ، وانظر إلى تلاحم
الأجزاء وتلاؤمها فقد جاءت الآية بتركيبات ثلاثة : أولها في ذكر عذاب

(١) تفسير الرازي ص ٤٦ ، الجزء ١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٨ .

الكفار في الدنيا ، وثانيها في ذكر عذابهم في الآخرة ، وثالثها في أن هؤلاء لا مفر لهم من عذاب الله في الحالين فأى تلاؤم أبين وأدق من ذلك .

• • •

التلاؤم في المعاني

ما سبق عرضه من الأمثلة والشواهد على التلاؤم في الألفاظ والتراكيب يمكن أن يستدل به على التلاؤم في المعاني ، ولكن لزيادة الإيضاح نؤمى إلى شيء من مظاهر التلاؤم في معاني الآيات في طائفة أخرى .

ومعلوم أن المعاني القرآنية تتحدث عن كل ما من شأنه إثبات الألوهية لله الواحد الأحد ، بل إن الحديث عن الله جل جلاله له الجزء الأكبر من معاني السور القرآنية جميعها . فالتأمل يلحظ في كل سورة بل في كل آية معنى يساق « لضرب المثل الأعلى لله فهو السميع البصير ، على كل شيء قدير ، غفور رحيم ، عزيز حكيم ، حي قيوم ، واسع عليم ، بصير بالعباد ، يحب المحسنين ، ولا يحب الظالمين ، واحد قهار ، كبير متعال ، عالم الغيب والشهادة ، الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى (١) » .

إلى غير ذلك من معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى ، بالإضافة إلى المعاني الكونية ، ومعاني الأعمال الصالحة ، والأعمال السيئة ، وذكر الوعد والوعيد ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ، ونحو ذلك من المعاني السامية التي تحدث عنها القرآن حملة وتفصيلاً .

وقد عرضت سورة الرعد لكثير من المعاني الرفيعة حيث تحدثت آياتها عن الله جل ثناؤه ، في أروع أسلوب ، وأبدع تركيب ، وجاء المعنى منسقاً متلائماً مع ما قبله ، وما بعده .

(١) انظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٢٥٣ الطبعة الثانية ١٣٧٠ هـ مطبعة نهضة مصر .

فالله هو الذى رفع السماوات بغير عمد ، وهذا معنى القوة والعظمة يأتى بعده فى جانب ذكر الله قوله تعالى : « ثم استوى على العرش » وهنا يبرز معنى العلو المطلق الذى يليق بجلال من خلق السماوات والأرض وما فيهن ، وما بينهما .

وبعده يستمر السياق متحدثاً عن تعاقب الليل والنهار ، وهنا معنى القدرة القادرة يأتى بعد كمال المعانى الرفيعة السامية لله تعالى .

وبين تلك الآيات ظلال وارفة تحمل من المعانى ما يليق بكل معنى سابق أو لاحق . ففى جانب الحديث عن الله يأتى معنى يسوقه قوله سبحانه : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » فالمطلوب هنا هو التصديق والإيمان ، ثم معنى عن الكون ، وما أودع فيه من نعم ومنافع لصالح كل ما يدب على الأرض ، فهناك معنى تسخير الشمس والقمر ، ومد الأرض ، وتفجير الأنهار ، وتعاقب الليل والنهار .

• • •

وبعد تلك المعانى يأتى فى السياق ما يلائم ذكرها من معنى التدبر والتفكير . « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . فالتفكير ومعناه هما الغاية السامية لكل ذى عقل ودين .

ويأتى معنى الربوبية والألوهية الخالصة تسوقه الآية الكريمة من قوله تعالى : « ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرها . وظلالهم بالغدو والآصال » ، وروعة النظم أن جاء بعد هذا المعنى ما يتطلبه مقام الآية هنا ، إذ تسوق الآية الكريمة معنى الإنكار على الكفار لتوحيد الألوهية من قوله تعالى : « قل من رب السماوات والأرض » ، ويأتى إثبات ذلك فى قوله : « قل الله » .

وتجد معنى القوة والقهر فى قوله : « الواحد القهار » يأتى بعده معنى يلائم تلك القوة وهذا السلطان من قوله : « أنزل من السماء ماء » فمن ذا الذى

يستطيع إزال الماء من السماء غير الله ؟ ذى القوة والرزق المتبين ، « أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » .

وضع بين يديك آيات أخر مما تحدثت عنه السورة الكريمة من المعاني .
يقول تعالى : « إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أَدْعُو وإليه مآب » .

لقد رسمت تلك الآية معنى الأمر بالعبودية الخالصة لله لا شريك له ، والدعوة إليه لا إلى غيره ، والمرجع إليه دون سواه . فالمعاني هنا متلائمة مترابطة . إذ بعد تحقيق معنى العبودية . يأتي معنى دفع الشرك وطرحه ، وبعد تحقيق هذين الغرضين يأتي معنى الدعوة إلى الله إيماناً به وإخلاصاً في عبادته ، ولا أجل ولا أشرف من الأعمال بعد تحقيق العبادة ، ونبذ الشرك شيء سوى الدعوة إليه سبحانه ، وبعد تحقيق تلك المعاني توميء الآية الكريمة إلى المعاد من قوله تعالى : « وإليه مآب » حتى يقر في النفس البشرية معنى الجزاء ، وما فيه من ثواب أو عقاب .

فإن قلت : ما الصلة ، وما وجه التلازم بين معنى « قل إنما أمرت أن أعبد الله ، ولا أشرك به » بما قبله ؟ قيل لك : هو جواب للمتكبرين معناه : قل إنما أمرت فيما أنزل إلى بأن أعبد الله ، ولا أشرك به ، فإنكاركم له إنكار لعبادته وتوحيده ، فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله ، وأن لا يشرك به (١) .

وتأمل قوله تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس . . . » إلى قوله تعالى : « وما لهم من الله من واق » .

فقد رسمت الآيات هنا معنى إحاطة علم الله بكل نفس ، ومعنى الإنكار على اتخاذ الشركاء ، وتوجب أن يأتي إنكار الشرك والشركاء بعد معنى إحاطة علم الله بكل شيء ، ثم ولي هذا الإنكار معنى اتباع الهوى والإعراض عن سبيل الله ، وولى هذا الإعراض ما يستحق عليه المعرض من جزاء في الحياة

(٥) سورة الواقعة ٦٩ .

(١) انظر الكشف للزخشري ص ٣٦٢ طبعة دار الفكر بيروت .

الدنيا ، وفي الآخرة ، ثم ختم هذا المعنى بذكر عدم القدرة على الإفلات من عذاب الله في الحالين .

ومسك الختام عن تلاؤم المعاني في سورة الرعد قول الله في خاتمتها :
« ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

فالآية هنا تقرر إثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أرقى معاني الإثبات إذ تسوق نفي الكفار لرسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم وتدحض ذلك النفي الشنيع « بما يظهر رسالته من الحجج القاطعة والبيئات الساطعة ذلك الإثبات المتمثل في شهادة الله التي لا مندوحة عنها إلى شاهد آخر (١) » .

إذا كان هذا عن التلاؤم بين الألفاظ ، والتركيب ، والمعاني ، فكيف به في جو السورة العام ؟ . ذلك ما سنعرض له في المبحث التالي .

* * *

التلاؤم في جو السورة العام

مر معنا فيما سبق : أن أجزاء النظم ثلاثة ، اللفظ المفرد ، والتركيب والمعنى ، ولكل جنس من هذه الأجناس جزئيات تقوم به ، وتعتمد عليه ، فاللفظ المفرد جزئياته الحروف ، وأصواتها ، ومخارجها ، والتركيب جزئياته الالفة مع أختها ، والتصرف في طريقة النظم ، والمعنى جزئياته صلته بما قبله ، وما بعده ، وملاءمته لسابقه ولاحقه ، وقد تحدثنا عن مظاهر التلاؤم بين تلك الأجناس والجزئيات كل منها على حدة ، فعجدير بنا الحديث عنها مجتمعة لنذكر شيئاً من مظاهر التلاؤم وإحكام النظم في جو السورة العام .

إن أول ما يستوقفنا في ذلك هو وجه ملاءمة سورة الرعد لما قبلها من السور ، وبيان صلتها به .

ويتضح ذلك في أن الله سبحانه « ذكر في سورة يوسف التي هي قبل

(١) انظر تفسير أبي السعود ص ٢٣٥ تحقيق عبد القادر أحمد عطا مطبعة السعادة بمصر .

سورة الرعد قوله تعالى : « وكأى من آية فى السماوات والأرض يمررون عليها وهم عنها معرضون » فأجل سبحانه الآيات السماوية والأرضية فى هذه الآية من سورة يوسف ، ثم جاء بها مفصلة فى سورة الرعد (١) .

ولما كانت كل سورة تشتمل على عدد من الآيات القرآنية ، وهذه الآيات لها وجه صلتها الوثيق ، فيما بينها فى الترتيب والترتيب ، والملاءمة فإننا نلاحظ وجه الملاءمة بين آيات سورة الرعد تبرز فى تناسق الترتيب ودقة التركيب . وبمنظرة على آياتها نجد أنها متناسبة مع المعانى وخصائصها ونجد تفاوتها بين الطول والقصر متقابلاً لتنوع المعانى (٢) « وهذا من أبرز مظاهر التلاؤم بين أجزاء النظم فى جو السورة العام .

وإذا أردنا مزيد إيضاح للتلاؤم بين أجزاء النظم فى هذه السورة فإننا نجد أنها من شطرين الأول : « لعرض المشاهد الهائلة فى آفاق الكون ، وفى أعماق الغيب ، وفى أغوار النفس (٣) » من ذلك قول الله تعالى فى أول السورة « الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ويخبر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » وقوله : « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار » وقوله : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » .

هذه الآيات تتحدث عن الكون وما فيه من الدلائل التى تبرهن على وجود خالقه ومدبره ، يعقبها فى السياق آيات أخر عن علم الله بالغيب ومظاهر التلاؤم فى جو الآيات ظاهرة لكل ذى عين وبصيرة ، فإنه سبحانه لما أحمل آيات الكون وبسطها ، أتبعها بآياته الدالة على واسع علمه المحيط بكل شئ

(*) سورة يوسف الآية ١٠٥ .

(١) روح المعانى للألويسى الجزء ١٣ ص ٨٤ مطبعة إحياء التراث العربى بيروت .

(٢) من منهل الأدب الخالد لمحمد المبارك ص ١٣ بتصرف .

(٣) ظلال القرآن لسيد قطب الجزء ٥ ص ٨٧ .

ولذا ولي تلك الآيات قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . . . » الآية إلى قوله تعالى : « مستخف بالليل وسارب بالنهار » .

ويظل السياق مستمراً في لمسات تسير أغوار النفس ، وتحرك كوامنها من أمن وخوف ، ويأس ورجاء . نلاحظ ذلك في ثنايا الآيات التالية : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . . » الآيات إلى قوله : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء . . . » .

أما الشطر الثاني من السورة « في عرض لمسات وجدانية وعقلية ، وتصويرية دقيقة حول قضية الوحي والرسالة ، وقضية التوحيد ، والإشراك بالله (١) » وهذا ما تشير إليه الآيات الكريمة التالية :

« له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . . . » الآيات إلى قوله : « بل لله الأمر جميعاً » .

ويستمر هذا الشطر من السورة في قضية الوحي والرسالة ، وبيان موقف المؤمنين ، وموقف الكافرين من ذلك ، ثم التعقيب بعد ذكر كل فريق بما يستحق من ثواب أو عقاب . ويشير السياق إلى تلك القضايا بقوله تعالى : « مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظاها ، تلك عقبي الذين اتقوا وعقبي الكافرين النار » .

والمتنوع لهذا الشطر يلمس مظاهر التلاؤم العجيب ، والرصف البديع بين كل آية وأخرى في جو السورة من أولها إلى آخرها .

ويمكننا استخلاص مظاهر التلاؤم في جو السورة العام فيما يلي :

(١) خلال القرآن لسيد قطب الجزء ٥ ص ٨٧ مطبعة بيروت .

١ - « بدأ الكلام في أول السورة بالتنويه بمكانتها ، ومكانة غيرها مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه الحق الذى لا مرية فيه .

٢ - هذا الحق الذى لا مرية فيه ينبغى أن يؤمن به العقلاء لأنه قضية العقل ولكن واقع الناس بخلاف ذلك فأكثرهم لا يؤمنون .

٣ - ولما كان الإيمان يستدعى إقامة الأدلة ، عرضت آيات السورة أدلة قدرة الله ، وعلمه وحكمته في آفاق السماوات والأرض آيات مفصلات .
تقرر صدق المعاد ، وأنه أهون على الله من البدء والإيجاد .

* * *

٤ - ولما كانت دلائل قدرة الله كافية في بيان قدرته على البعث جاء بعد تلك الدلائل ما يقرر إثبات علمه بكل شيء ، وأنه مطلع رقيب .

٥ - ثم بعد أن فرغت السورة من سرد تلك الدلائل في الكون وما فيه صورت حالة عجز الناس ، وضعفهم أمام الظواهر الكونية المخيفة التى لا حيلة لهم معها إلا أن يلجأوا بالدعاء إلى قوى أخرى وراء هذه الظواهر يعتقدون أنها ستنجيهم منها ، ومن كل كرب ، وتلك حالة الكافرين .

أما المؤمنون فيضرعون إلى الله القادر فيستجيب لهم ، ثم يمضى السياق مبيناً أن كل شيء في هذا الكون خاضع لقدرة الله وقوته ، وموضحاً كيف يعلم النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعالج موقف المشركين بوسائل الإقناع .
مرحلة بعد أخرى فيها التلويح بذكر العقاب ، ثم إلى مرحلة أخرى هى مرحلة تربية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وتلك موصولة بما قبلها من مراحل حدث فيها الصراع مع المشركين .

وفي القسم الأخير من السورة يوجه الله تربيته لرسوله صلى الله عليه وسلم معالماً ما يدور في نفسه ، ومبيناً أن كل شيء بعلم الله وإرادته ، فما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وأنه مهما بلغ تكذيب الكفار لحمد فإن شهادة الله له بالرسالة كافية في دحض حججهم ، ومزاعمهم « ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب (١) » .

(١) انظر سورة الرعد دراسة لهدى الرحمن حنيكه ص ٩٨ ، ٩٩ ، ٢٦٣ بتصرف .

أنها آيات بينات ، تنبض بالتصوير الدقيق في كل لفظة وجملة فمن ذا
الذى يستطيع أن يصور حالة الكفار وهم يتخبطون في عذاب الله ومن ذا
الذى يستطيع أن يقرب إلى الأذهان تلك الأمثال ، والتشبيهات الرائعة الحية
التي تضر بها السورة الكريمة لتجعل منها فصلا بين الحق والباطل؟ لاشيء سوى
هذا القرآن لأنه كتاب من عند الله ، أحكمت آياته ، وفصلت من لدن
حكيم خبير .

* * *

الفصل الثالث التصوير البياني في سورة الرعد

إن للعبارة القرآنية أسلوبها الفريد في التصوير البديع القائم على عرض النماذج الحية في الكون والإنسان ، والأحاسيس والمشاعر ، فيما يكشف عن نعم المؤمنين ، ويصف عذاب الكافرين ، وفيما يتعلق بوصف الجنة والنار ، وأحوال السعداء والأشقياء ، وفيما يصور مدى علم الله بالغيب ، وإحاطته المطلقة بحال الكون ومن عليه .

وقد عرضت سورة الرعد لكثير من المعاني التي عبر عنها بصور رائعة تألف نظمها واتسق على أروع طريقة في التعبير الذي يرتقى « بالصورة فيمنحها الحياة الشاخصة ، والحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسدة مرئية (١) » ، والطبيعة الكونية حية تنبض بالحركة المتوالية في آفاق الكون الفسيح .

وإذا تدبرنا هذه السورة الكريمة استشعرنا عظمة التصوير البياني في ثنايا آياتها ، وهي تعرض آيات الله ومظاهر قدرته في السماوات المرفوعة بغير بغير عمد ، والشمس والقمر كل منهما يسعى إلى غاية ، وفي الأرض وبسطها وتثبيتها بالجبال الراسية ، وجعل الأنهار ، وبث الثمرات ، وفي الليل والنهار يتعاقبان ، وما في الأرض من حداثق وزروع ، وفي البرق والخوف منه والطمع فيه ، والسحاب وما ينزل منه من ماء ، وجريانه في الأودية سيلا ذا زبد أو غير ذى زبد ، وتصوير الرعد في صورة مسبح بحمد الله « وإن من

(١) انظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ٣٤ .

شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وفي الصواعق وما يحدث منها .

وتلك الصور البديعة تعبر عنها ، وترسم ظلالها الآيات الكريمة من قول الله تبارك اسمه : الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ونحى الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلمكم ببقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * وقوله تعالى : « هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال » ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال * وقوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل . . . » إلى قوله : « كذلك يضرب الله الأمثال » وقوله عز وجل : « أولم يروا أنا أنقى الأرض نقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » (٤١) .

تلك سبع آيات تتحدث جميعها عن آيات الله في الكون ، ومظاهر قدرته ، وإذا تدبرنا المعاني التي أدت هذه الأغراض ، وأسلوب الأداء لكل معنى من هذه المعاني . فسنجد الأسلوب القرآني فريداً يمتاز على غيره من كل أسلوب ، لتنوعه مرة بالحقيقة وأخرى بالحجاز ، والتعبير بالمشاهد الحسية وباستثارة العقول ، والاحتكام إلى العواطف ، وبالتخييل الحسن ، إلى غير ذلك مما تفيض به الآيات من سبل التوضيح ، ووسائل الإقناع والاستمالة

من استعمال صور المقابلة ، والتجنيس ، والكنايات ، والاستعارات والتمثيل ، وعموم وسائل البيان .

ولعل من أبرز ما يطالعنا في ثنايا هذه الآيات من وضوح التصوير الفني فيها ما تعتمد عليه من أسلوب التقابل والتضاد ، « لأن المعنى يجر ما يقابله ، والضد أكثر خطوراً بالبال ، والعقل أسرع استجابة له ، وهو الذى يوضح الفكرة ، ويعين على فهمها » وبضدها تتميز الأشياء « وإدراك الأضداد عملية ذهنية يسيرة لا تحتاج إلى كد الفكر » ، (١) وهذه الظاهرة تتبين في مقابلة السماوات المرفوعة ، بالأرض المبسوطة ، وفي الليل والنهار ، والخوف والطمع ، وفي يذهب ويمكث ، كل هذا فى تنسيق عجيب لبعض معالم الكون فى عقد ذى تقابلات فنية رائعة ، نلاحظها فى الرواسى الثابتة ، والأنهار الجارية ، وبين الزوج والزوج فى كل الثمرات ، وبين الليل والنهار ، ثم بين مشهد السماء ومشهد الأرض كل ذلك فى إطار متكامل المشهد والصورة فى نمط من النظم والتأليف عجيب .

والتصوير الفنى فى قوله تعالى : « الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها . . . » لآية قد اشتمل على وجوه كثيرة من البيان . فهناك - القصر فى قوله : « الله الذى » وهو قصر حقيقى استفيد من تعريف طرفى الإسناد « الله » و « الذى » ، وينجر القصر إلى تسخير الشمس والقمر لأنهما من ملحقات صلة الموصول أى الله وحده هو الذى رفع ، واستوى ، وسخر . وهناك الفصل بين الجمل فى قوله : « ترونها ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعالمكم ببقاء ربكم توقنون » ، والفصل هنا لكمال الاتصال لأن الجمل استئنافية وقعت جواباً لسؤال سائل . فى الأولى كأن سائلاً قال : هل حال السماوات ظاهر أم خفى ؟ والجواب « ترونها » وفى الثانية : إن كل تلك الأمور من رفع واستواء وتسخير تحتاج إلى مدبر فن هو ؟ والجواب يدبر الأمر ، وفى

(١) انظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبى للدكتور بعلوى طبانة ص ٢٧٨ الطبعة الثالثة المطبعة الفنية الحديثة ١٣٨٩ هـ .

الثالثة والرابعة : إن هذه الظواهر الكونية آيات مفصلات ، فمن الذى فصلها ، ولماذا ؟ والجواب : « يفصل الآيات لعلكم بلىقاع ربكم توقنون »

وفى قوله : « وهو الذى مد الأرض . . » الآية فنون بيانية لا تقل عن سابقتها فى الآية الأولى : فهناك « الحذف فى قوله : « وجعل فيها رواسى وأنهاراً » ، إذ التقدير - ومياه الأنهار - لأن الثمن بالمياه أكل من الثمن بأخايدها ، ولأن القدرة والحكمة فى خلق الماء أتم منها فى خلق الأخاديد(١) » وهناك القصر الحقيقى الذى استفيد من تعريف طرفى الإسناد « وهو الذى » فى قوله : « وهو الذى مد الأرض » ومجئ المسند إليه منكراً للتكثير والتنويع فى قوله : « قطع - وجنات - وزرع » ثم هذه البلاغة التى تبدو فى تقديم المعمول على العامل ، فى قوله : « قطع - وجنات - وزرع » وفى ذلك رد خطأ المخاطبين إلى الصواب لأنهم كانوا يظنون أن الزوجين خاصان ببعض الثمرات دون بعض فبين لهم أن جميع الثمرات مكونة من زوجين اثنين ذكر وأنثى ، والحظ ذلك الإيجاز البليغ فى قوله : « قطع متجاورات » فهاتان لفظتان أغنتا عن الإسهاب بذكر قطع متلاصقة طيبة وسبخة ، وكريمة إلى زهيدة ، وصلبة إلى رخوة ، وأخرى صالحة للزرع لا للشجر كل تلك المعانى والصفات جمعها لفظتان قطع متجاورات(٢) ، ويتدرج التعبير فى الصورة من إيجاز إلى إيجاز على حد قوله تعالى : « يسقى بماء واحد » فإن هذا التعبير القرآنى يحمل فى ثناياه « لطائف بلاغية منها الدلالة على لطف الله ووحدانيته وقدرته ، وبيان الهدى والحجة الدامغة لمن ضل عن سبيل الله لأنه لو كان ظهور الثمر بالماء والتربة لوجب فى القياس أن لا تختلف الطعوم والروائح ولا يقع التفاضل فى الجنس الواحد إذا نبت فى مغرس واحد ، لكن كل ذلك من صنع اللطيف الخبير »(٣) ودليل على عجب قدرته ، وهذه المعانى كلها أغنى عن ذكرها التعبير بقوله : « يسقى بماء واحد » هذا بالإضافة إلى ما يحوى

(١) انظر الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز لعبد العزيز بن عبد السلام ص ٢٠٣ ط دار الفكر بدمشق .

(٢) الكشف للزحشرى ص ٣٤٩ ط دار الفكر بيروت .

(٣) انظر البرهان للزركشى ص ٤٢٦ جزء ٣ تحقيق أبى الفضل إبراهيم . مطبعة الحلبي .

هذا النمط الرائع مما يستثير الفكر ويبحث على التأمل الذى يفضى إلى الاعتراف بعظمة الخالق سبحانه .

والحظ دقة التصوير فى تقديم ذكر الجنات على الزرع ، والإتيان به مفرداً جرياً على الأصل لأنه مصدر ، وعلى الرغم من أن الزرع عمود المعاش فقد قدم ذكر الجنات عليه تنبيهاً على دقة الصنعة ، وإحكامها فيما يجود به الله على عباده من خيرات ، كالعنب ، إذ فى خلقته ما يبهر العقول ، لكونه مياهاً متجمدة فى أجسام رقيقة حلوة المذاق ، وراع تأخير « نخيل » فقد ذكرت بعد زرع لئلا يفصل بين الصفة والموصوف ، وحتى لا يطول الفصل بين المتعاطفين ، ثم إن فى التعبير بالصفة دون الموصوف « ما يغنى عن ذكر الموصوف بغلبته وجمعه (١) » وتأمل أسلوب التعريض بدم الكفار فى قوله : « إن فى ذلك آيات لقوم يتفكرون . آيات لقوم يعقلون » فإن هؤلاء حرموا أنفسهم نعمة العقل فعطلوا مقومات التفكير والتدبر ، بل عطلوا العقل الذى ميزهم الله به على سائر المخلوقات .

• • •

إن اللوحة التصويرية لقوله تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات .. الآية » لتحمل مشهداً قديماً مكروراً منذ خلق الله السموات والأرض ، وهذا المشهد تمر عليه العيون فى غفلة والنفوس : « وكأى من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » . لكن التصوير يعرض هذا المشهد جديداً معبراً ، وإنه لكفيل حين تتملأ العين أن يوقع فى النفس أثراً وجدانياً خاصاً ، فهذه القطع المتجاورات من الأرض مختلفة فى النبات ، بل إن النوع الواحد منه ليختلف فى الأشكال فزدوج ومنفرد ، وجميعه يسقى بماء واحد ولكن تختلف طعمومه فى المذاق ، وأيضاً ما كانت هذه الملاحظات فردها الأول إلى المشاهدة ، مشاهدة هذه اللوحة الطبيعية التى تتوجه إليها الأنظار ، لترآها

(١) انظر روح المعاني للآلوسى ص ٩٢ ، ٢٠٣ ج ١٣ مطبعة إحياء التراث العربى بيروت .

(*) سورة يوسف الآية ١٠٥ .

بالبداهة الملهمة ، والحس اليقظ بعد أن تملأها الأبصار ، وكم في المشاهد
المكرورة المألوفة ما يبدو جذيراً كأنما تملأه العين أول مرة حين تتجه
إليه بالحس الشاعر المتفتح ، والعين المتيقظة للألوان بعد الغفلة الغالبة على بنى
البشر . وفي الأرض مشاهد كثيرة لعل من أشدها أثراً في الحس والنفس : « (١)
تلك الصورة العجيبة التي رسمتها الآية هنا وكان من أشد التصاقها بالإنسان
كونها لصالح حياته ونفعه . وهكذا نرى التصوير القرآني يتخذ الطبيعة ميداناً
يقتبس منه صوره من نبات وحيوان وحماة ، بل نجد الآية الكريمة هنا تستمد
عناصر التصوير من أقوى وأزكى عناصر الطبيعة « وهو الماء » وفي ذلك
سر خلود هذا التصوير فبالماء يحيا كل شيء .

واستشعر روعة التصوير في قوله تعالى : « يريكم البرق خوفاً وطمعاً ،
يسبح الرعد بحمده ، نأق الأرض بنقصها من أطرافها » وتأمل طريقة الإيضاح
وكيفية أداء المعنى إلى الذهن من خلال هذه الصور ، إذ تلف في إطارها
صورة تسبيح الرعد ، وروية البرق ، تلك صورة ينتج عنها هذا « التقسيم الجميل
الخوف ، الطمع ولا ثالث لهما » (٢) وأنعم النظر في تشبيه هزيم الرعد بصورة
إنسان مسبح . وافطن إلى التعبير بقوله : « نقصها من أطرافها » كيف
لاءمت كل لفظة أختها فإن عملية نقص الشيء كيفية أخذه من أطرافه .
لا من وسطه أو أعلاه : « وإذا » نقصها من أطرافها » وهذا التعبير مراد به
نقص أهل الأرض بابتلائهم بالموت ونوائب الزمان ، كأخذهم بالخوف
والجوع ، ونقص في الأنفس والثمرات .

ويمكن أن نستخلص معالم الجلال التصويري في السبع الآيات السابقة في :
انتقال التعبير من صيغة إلى صيغة ، وتنوع الأسلوب بين الخطاب ، والإخبار

(١) التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب ص ٥٩ ، ٦١ - ١٣٨٦ هـ .

(٢) انظر الصيغ البديعي للدكتور أحمد موسى ص ٣٣ الناشر دار الكتاب العربى القاهرة -

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .

وذلك من خصائص الإبداع في النظم القرآني حتى لا يسير الكلام على نمط واحد ، فإن في مثل ذلك الانتقال تجديدًا لنشاط السامع والقارئ . وحتى يبدو الأسلوب أمر وضوح وإقناع أكثر مما هو مخاطبة للقلوب والعواطف ، لأن التصوير في الآيات هنا كائن في مجال إثبات وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته الظاهرة في تلك الآيات ، والعلامات التي عدتها ، وهذه الآيات ، وإن كانت واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار إلا أن أكثر هؤلاء الكفار والمشركين والمعاندين لا يؤمنون بموجدتها وخالقها ، فهم يرونها وكأنهم لا يرونها ، ومن هنا انتظم التصوير في أسلوب الآيات من عقد رائع جميل يألف من :

١ - الأضداد والتقابلات الفنية العجيبة .

٢ - أسلوب القصر والوصل والفصل .

٣ - الإيجاز غير المختل .

٤ - وأخيراً ضرب الأمثال والتشبيهات المنتزعة من القريب المشاهد نلاحظ ذلك في قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » .

وإذا أمعنت النظر في إطار هذا التمثيل الذي يصور مثلاً للحق ، ومثلاً للباطل أدركت بعضاً من أسرار الحكمة التي من أجلها اشتمل القرآن الكريم على أنواع من التشبيهات والأمثال الرائعة ، التي تؤثر في النفوس والقلوب وتجعلها مهية للقبول ، بالإضافة إلى ما في التعبير بسيل الأودية من جمال المبالغة ، فإن الأودية لا تسيل وإنما يسيل فيها الماء الغزير الذي أنزله الله من السماء ، وذلك ضرب من البلاغة يسميه العلماء « المجاز الحكيم » .

وتكاد لا تخلو سورة من القرآن من تشبيه أو مثل ذلك لأن هذا اللون من البيان « من أشرف أنواع البلاغة ، وأعلاها - قال المبرد - : والتشبيه جار كثير في كلام العرب حتى لو قال هو أكثر العرب لم يبعد » (١) .

(١) انظر الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقي البغدادي ص ٩٥ .

وإذا كان المبرد قد خص كلام العرب بهذا الفن من الكلام فلأن التشبيه غالب في أساليب الأدب والبيان عند سائر الأمم قديمها وحديثها على السواء ، وذلك لما يؤديه التشبيه من الأغراض الكثيرة التي يحققها في صناعة الكلام ولا نجد مجالا يتسع للإفاضة في هذه الأغراض .. وغاية ما نقول في هذا المجال إن القرآن الكريم قد عني بهذا الضرب من الأساليب الأدبية وأعني به فن التشبيه لتلك الأغراض التي يحققها في سائر ضروب التعبير ، ومن ثم كانت العناية بالبحث البلاغي في التشبيه والتمثيل أثرًا من آثار العناية بالكتاب الكريم لسعة هذين الفنين في اللسان العربي ، ولقوة تأثيرهما في النفوس . يقول الله تعالى : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون » وقال : « وضربنا لكم الأمثال » . فامتّن علينا بذلك لما تتضمنه الأمثال من الفوائد ، فإنما يصر إليها لكشف المعاني وأدناء المتهم من الشاهد « (١) » .

وتلك الصورة الرائعة في المثل الذي ساقته الآية الكريمة من قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ... الآية » ينتظم إطراره من إسناد مجازي ، وإسناد حقيقي ، وذلك مندرج حيث يراد بالوادي الموضع الذي يسيل فيه الماء الكثير ، أو يراد به الماء الجاري فيه فهو من إطلاق المحل وإرادة الحال وعلى الأول فالإسناد مجازي ، وعلى الثاني فالإسناد حقيقي « وإيثار التمثيل بالأودية على الأنهار المستمرة الجريان لوضوح الماثلة بين شأن الأودية ، وشأن ما مثل بها » (٢) ثم إن التصوير هنا مشهد متكامل « تتعلاه العين ، والأذن ، والحس والخيال ، والفكر ، والوجدان تصوير حي منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة ، وخطوط جامدة تصوير تقاس فيه الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة » (٣) .

(١) انظر الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي ص ١٣١ جزء ٢ الطبعة الثانية ١٣٤٣ هـ المطبعة الأزهرية بمصر .

(٢) روح المعاني للألوسي ص ١٢٩ ج ١٣ مطبعة إحياء التراث العربي بيروت .

(٣) انظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ٣٥ .

وحول تلك الصور نذكر ما أشار إليه ابن الأثير وهو يتعرض لذكر حد الكناية بقوله : « حد الكناية الجامع لها هو : كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بينهما ثم قال : « وكذلك ورد قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبلداً رابياً » . فكفى عن العلم وبالأودية عن القلوب وبالزبد عن الضلال ويمضى ابن الأثير قائلًا : « وقد رأيت جماعة من أئمة الفقه لا يحققون أمر الكناية وإذا سئلوا عنها عبروا عنها بالمجاز وليس الأمر كذلك . وبينهما وصف جامع كهذه الآية وما جرى مجراها ، فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم وكذلك يجوز حمل الأودية على مهبط الأرض ، وعلى القلوب ، وهكذا يجوز حمل الزبد على الغشاء الرابي الذي تقذفه السيول وعلى الضلال . انتهى كلامه » (١) .

وأرى أن حل هذه الآية على الكناية بعيد ولعله من ابن الأثير دليل واحتجاج على ما ذهب إليه في تحديد معنى الكناية ، إذ جعل لها جانبي حقيقة ومجاز ولا أثر لذلك في الآية الكريمة إذ التصريح فيها بالحقيقة ظاهر .

والذي يهمننا في هذا المقام هو استيفاء جوانب التصوير في هذا المثل الذي ضربته الآية الكريمة . وأول ما يستوقفنا من جوانب الإبداع ذلك التناسق العجيب بين تلك الصورة وما سبقها في السياق فأنزال الماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقيل في المشهد الكوفي السابق . الذي سبق للتدليل على « قدرة الواحد القهار حيث تسيل هذه الأودية بقدرها كل بحسبه وكل بمقدار طاقته وحاجته وكل ذلك يشهد بتدبير الخالق لكل شيء » (٢) .

إن الإطار يضم آية واحدة اشتملت على ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل

(١) انظر المثل السائر لابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٤ تحقيق محيى الدين عبد الحميد .

(٢) انظر الظلال لسيد قطب ص ٨٤ .

واحد يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينفع ولا ترجى بركته كذلك يضمحل الباطل عن أهله، وكما مكث هذا الماء في الأرض فأمرعت وربت بركتها وأخرجت نباتها وكذلك الذهب والفضة حين أدخلتا النار فذهب خبثهما كذلك يبقى الحق لأهله وكما اضمحل خبث هذا الذهب وتلك الفضة حين أدخلتا النار كذلك يضمحل الباطل عن أهله (١) وأثر التلاحم ظاهر في جو الآيات ومن خلال ما صورته الآية بأسلوبها البديع المفاجئ. فبعد جو المحادلة الذي أثير في الآيات قبلها تأتى المفاجأة في هذه الآية من قوله تعالى: « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ».

كأن السورة قد انتقلت إلى موضوع آخر جديد لا صلة البتة له بما قبله لكن لا يلبث هذا الانتقال في الأسلوب المفاجئ حتى يعود إلى الربط بصلب الموضوع ويستكمل مراحل مواجهة التحدى بين الحق والباطل وبين أنصار الحق وأعوان الباطل إذ يقول الله تعالى: « كذلك يضرب الله الحق والباطل » ثم يقول: « كذلك يضرب الله الأمثال ».

وهذه المرحلة جاءت على صورة مثلين ماديين مشاهدين جمعا في صورة مثل واحد لتشابههما في الشكل والنتيجة. ولنقف على هذا التصوير بإمعان. فالمثل الأول مشهد من المشاهد الكونية يعيشه الذين يقطنون البادية في الصحارى والفقار وبين السهول والجبال والوديان أنه مشهد مياه تنزل من السماء فتعم السهل والوعر (٢).

والحظ في الإطار التصويرى لهذا المثل تلك الألفاظ المتخيرة التي تلاحم الطبيعة الخشنة طبيعة البادية حيث القوة في صخب الجرس « أنزل من السماء ماء » والقوة في الأداء. فاحتمل السيل زبداً رابياً فلم احتمل دون حمل أنها قوة في التعبير تتبع قوة المعنى ثم انظر إلى وصف الزبد بقوله « رابياً » في ذلك بيان

(١) انظر الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي ج ٢ ص ١٣٢ ودرر البيان في تفسير أشبال القرآن لابن القيم بتصرف ص ١٣.

(٢) انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن جنبكة ص ١٤٨.

للمحتمل وأنه لا وزن له فيمكن في الأرض ، ولم تقل الآية فاحتمل السيل فوقه . وفي ذلك إيذان بأن الفوقية مقتضى شأن الزبد لا من جهة المحتمل تحقيقاً للمماثلة بينه وبين ما مثل به من الباطل الذي شأنه الظهور في بادئ الرأي من غير مداخلة في الحق « (١) » .

ولاحظ طبيعة الألفاظ في الجانب الثاني من المشهد التصويري وهو قوله تعالى : « ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » .

يا للعجب أن طبيعة الحضر تنسم بالركة والليونة فجاءت اللوحة التصويرية هنا بالألفاظ لينة تناسب الجو الحضرى إليك قوله تعالى : « يوقدون ابتغاء حلية أو متاع » .

ولاستكمال الصورة تأمل مشهد تدفق المياه مجتمعة منحصرة بين الجبال هابطة من كل مرتفع حتى تملأ الأودية وتسيل عيفة مخيفة حتى ليخيل للناظرين أن الأودية تسير معها وفي ذلك جو يكتنف النفس الإنسانية ويحيطها بشيء من الرغبة والرغبة وهذا من تأثير الأمثال .

ويتضمن المثل المركب في هذه الآية . إشعاراً بتشبيه الصراع بين الحق والباطل وبين أنصار الحق وأعوان الباطل بحالة الصراع بين الجواهر النافعة والشوائب المفسدة عند حركة السيل الجارف ، وحركة الغليان في المعادن وأشباهها ، وتشبيه النتائج في كل من الممثل له بالنتائج في كل من الأمثال .

فإذا اعتبرنا هذا المثل المركب من باب التشبيه لقوله تعالى : « كذلك يضرب الله الحق والباطل » وقوله : « كذلك يضرب الله الأمثال » فهو من تشبيه التمثيل لأن وجه الشبه فيه منزع من متعدد . بل هو من روائع التشبيه الغنى بالمقابلات الجزئية بين أجزاء من المشبه وأجزاء من المشبه به . مع

(١) انظر تفسير أبي السعود ص ٢١٣ .

الحركة المتتابعة العجيبة والنهاية الناطقة بالنتيجة التي فيها أمل باسم لأنصار الحق ووعيد كالح لجنود الباطل . وأول هذه المقابلات الجزئية كون الحق والماء منزلين من السماء وعلى من يعيش في الأرض مقابل هذه النتائج إما بالحق الذي لا مرية فيه وإما بالباطل الذي هو زاهق لا محالة .

* * *

وانعم النظر في صورة تسبيح الملائكة وصورة تسبيح الرعد . ففيهما من البديع الرائع « إدماج الحديث عن الملائكة المسبحة من خيفة الله مع صوت الرعد المسبح بحمد الله استكمالاً لعرض الصورة الحركية : ما يظهر منها لأعين الناس .. وما يخفى عنها مما يشاهده غيرهم » .

ولما استكملت الصورة كامل هيئتها وأعطت كل دلالتها على قدرة الله القادر على الإنعام والقادر على الانتقام . حسن التعريض بالصواعق التي ترافق تلك الظواهر في بعض الأحيان فتزل بالهلاك على من يشاء الله هلاكه . وحسن ختم هذه الصورة الرائعة بما يتصل بالأمر الذي سبقت من أجه وهو إقامة الدليل على قدرة الله تعالى : « وهم يجادلون في الله وهو شديد الغالب » فعلى الرغم من كل هذه الأدلة المنبثة في الكون يجد الكافرون لأنفسهم مجالاً للمجادلة في ذات الله وفي صفاته وفي قدرته على بعثهم ، وحينما تضيق بهم الحجة يبيتون ألوان الكيد والمكر للرسول الكريم ولرسالته وللمسلمين (١) وتصرفهم هذا عناد وإعراض عن الله قال تعالى : « وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (٢) .

- ٢ -

ومن بين الصور البديعة الرائعة ما تضمنته بعض آيات هذه السورة الكريمة عن الغيبات التي ضم إطارها بيان انفراد الله سبحانه بعلم الغيب ، وإحاطته

(١) انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنيفة ص ١١٦ .

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٥ .

بكل ما في الكون من إنسان أو حيوان أو جماد ، وما تحمل كل أنثى ،
وما في الأرحام من أنواع الحمل ، وعلم الغيب والشهادة « لا يعزب عنه مثقال
ذرة في الأرض ولا في السماء » .

وتلك الصورة تجمعها الآيات الكريمات من قوله تعالى : « الله يعلم
ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار »
عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به
ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن
خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا
أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » وقوله تعالى :
« أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا الله شركاء قل سموهم أم
تنبؤنه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول ، بل زين للذين كفروا مكرهم
وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد » .

• • •

وقوله في سياق آخر : « وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً
يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » ويقول الذين كفروا
لست مرسلنا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب (٤٣) » .

هنا سبع يات تحدثت عن الأمور الغيبية ، في إطار بديع محكم يصور
مدى علم الله المحيط بكل شيء . فلنتفحص جوانب الإبداع التصويري
في هذه اللوحات القرآنية الشفافة .

لعل من أروع خصائص الإبداع التصويري في قوله تعالى : « الله يعلم
ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد » لجوء الآية هنا إلى أسلوب
التقابل الفني بين لفظي ، تغيض وتزداد ، وما تحمله كل من هاتين اللفظتين
من معاني كثيرة كفي عن سردها وذكرها التعبير بهما متقابلتين ، فإن
بما تنقصه الأرحام وتزداده : عدد الولد ، وهيئة جسده ، فتمام الحلقة ،
أو مخدج ، ومنه مدة ولادته ، فقد تكون لقسعة أشهر ، أو أقل ، أو أزيد

إلى سنتين عند أبي حنيفة ، وأربع عند الشافعي ، وخمس عند مالك . ومنه الدم فإنه يقل ويكثر ، وقبل هذا كله علم الله المحيط بما في هذه الأرحام من جنس الولد ، أذكر أم أنثى ؟ وما يتبع ذلك من صفات الحسن والقبح والطول والقصر ، وكل صفة أو حال حاضرة أو مترقبة . كل هذه المعاني عبر عنها بلفظتين اثنتين فما أدقه من تصوير ، وما أروع من إيجاز » . (١)

وفي هذا التصوير العجيب ، عن مدى علم الله بالغيب ، وإحاطته بكل شيء يقف الحس مشدوها يرتعش تحت وقع هذه اللمسات العميقة في التصوير وتحت هذه الإيجاءات الصوتية العجيبة في التعبير نعم يقف مشدوهاً وهو يقفو مسارب علم الله ، ومواقعه وهو يتتبع الحمل المكتنون في الأرحام ، والسر المستور في الصدور «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» «يعلم السر وأخفى» . يقف الحس مشدوهاً وهو يتبع الحركة الخفية في جنح الليل وسروب النهار ، وكل مستخف ، وكل سارب ، وكل جاهر ، وكل هامس .

إن هذا كله مكشوف تحت المجهر الكاشف يتبعه شعاع من علم الله ، وتتعبه حفظة تحصى الخواطر والنوايا . إلا أنها الرهبة الخاشعة ، التي لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله تظمئن في حماه ، وأن المؤمن بالله ليعلم أن علم الله محيط بما في الظاهر والخفي ، ولكن وقع هذه القضية الكلية في الحس . لا يقاس إلى وقع مفرداتها كما يعرض السياق بعضها في هذا التصوير العجيب « الله يعلم ما تحمل كل أنثى . . . حين يذهب الخيال يتبع كل أنثى في هذا الكون المترامي الأطراف ، كل أنثى في الوبر والمدر ، في البدو والحضر في البيوت والكهوف ، والمسارب والغابات ، ويتصور علم الله محيطاً بهذه الأجنة في خفاياها ، وإطلاعه على كل دائق منها ، لا يملك المؤمن إلا أن يقول : سبحانك (٢) .

إن هذه الصورة البيانية عن علم الله سبحانه بالغيب تأتي ختاماً للسورة

(١) انظر الكشف للزحشرى ص ٣٥١ طبعة دار الفكر بيروت .

(٢) انظر تفسير سورة الرعد في الظلال لسيد قطب .

« بحكاية إنكار الكفار للرسالة المحمدية وقد بدت السورة بإثبات الرسالة فالتقى البدء والختام ويشهد الله مكتفياً بشهادته . وأنه تعالى هو الذى عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب . وتلك الصورة جاءت آية في الأحكام والتناسب إذ ختمت بها آيات السورة الكريمة التي تزخر بكثير من القضايا قضية الوحي والرسالة وقضية الشركاء ، وقضية الوعد والوعيد للكفار وطلبهم المعجزات من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجاءت تلك الآية الكريمة حاسمة لكل تلك القضايا مكتفية بعلم الله وشهادته سبحانه التي لا يعدلها شهادة . « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » وتأمل في إطار تلك الصورة المبتدأة بفعل الأمر « قل » تلك اللفظة التي هي واسطة العقد في تركيب هذه الآية فكأنما تبقى النفوس متطلعة لما سيرد على الكفار في قولهم لست مرسلًا وكأنما يتطلع إلى نتيجة ذلك الاعتراض ولما جاءت هذه اللفظة التي هي فعل الأمر « قل » انتزعت من النفوس كل تردد واضطراب نعم قل كفى بالله لا غيره شهيداً على ما أقول . وعلى صدق رسالتي .

وأمضي متبعاً جزئيات هذه الصورة البيانية في سياق الآيات من قوله تعالى : « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » .

وانظر جلال المشهد التصويري وعظمته حين « يذهب الخيال يتتبع كل هامس ، وكل جاهر ، وكل مستخف وكل سارب في هذا الكون الفسيح الهائل . ويتصور علم الله جلّت قدرته يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه ويقيّد عليه كل شاردة وكل واردة آتاء الليل وأطراف النهار .

إن اللمسات التي رسمتها تلك الصورة عن آفاق الكون ليست بأضخم ولا أعمق من هذه اللمسات الأخيرة . في أغوار النفس والغيب ومجاهيل السرائر ، وأن هذه لكف لتلك في مجال التقابل والتناظر ١ » .

وأن لإسلوب التعريف والتنكير في بعض الألفاظ التي يشملها إطار هذه

(١) انظر الظلال لسيد قطب ص ٧٥ ، ٧٦ .

الصورة لمزية تخلع على المشهد مزيداً من الإبانة والإيضاح . فقد جئنا بالسر والجاهر معرفين بالاسم الموصول « من » في قوله تعالى : « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به » إشارة إلى أن كلا منهما قاصد لما كان منه من أسرار وجهر فكأنه بقصده ميز نفسه بتعريف . وأما قوله تعالى : « ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » فقد عرف المستخفي بالموصول « من » لأن المستخفي هنا قاصد للتواري والخفاء متتبع له وبذلك ميز بالاستخفاء الذي لا يجديه فاستحق أن يشار إليه بأنه معروف غير مجهول ولكن الذي يلفت النظر هو قوله تعالى : « سارب بالنهار » إذ لم يأت فيه لفظ « سارب » معرفاً بل جاء منكرأ ، وكأن الغرض من تنكيهه بيان أن إرادته قد كان لاستكمال الطرفين المتضادين بالتسوية ، وليس الغرض تنبيهه إلى أنه معلوم غير مجهول لأنه في الأصل لا يقصد خفاء نفسه ، ولا إظهارها وإنما هو سارب من السارين ، فهو واحد من كثيرين أعمالهم معلومة لله تعالى (١) .

وألاحظ ذلك الإبداع في دقة التصوير من خلال طرف المبالغة « في جانب المخاطب » ، حيث جاءت تلك المبالغة مدججة في المقابلة والمعنى أن هذا الظهور وهذا الاستخفاء متعذر على الناس الذين يدركون بحواسهم ما يظهر لهم . ويغيب عنهم ما لا تقع عليه أبصارهم .

أما علم الله فلا مبالغة فيه إذ هو جار على الحقيقة التي لا مرأى فيها لأن الله سبحانه يعلم السر وأخفى من السر ، فليس ذلك متعذراً عليه جل ثناؤه (٢) . ويمكننا استخلاص ما اشتملت عليه طريقة الأداء في هذه الصورة من وجوه البيان فيما يلي :

١ - التقابل بين الألفاظ ، والتراكيب : إليك لفظ تغيض يقابله لفظ تزدد ، وكذلك الغيب والشهادة ، وأسر وجهر ، ومستخف وسارب والليل والنهار .

(١) سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنيكة ص ٩٦ .

(٢) البرهان للزركشي ص ٥٣ الجزء الثالث تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم الطبعة الثانية

١٣٩١ هـ مطبعة الحلبي .

وفي التركيب قوبل قوله « مستخف بالليل » بقوله : « سارب بالنهار »
ومن بين يديه ، يقابله ومن خلفه .

٢ - مراعاة النظر في قوله تعالى : « الكبير المتعال » بعد قوله : « عالم الغيب والشهادة » ، فكونه سبحانه يعلم الغيب والشهادة فإنه يناسبه من أسمائه الحسنى في هذا المقام قوله : « الكبير المتعال » ..

٣ - قوة التأكيد في التخصيص الذي يؤديه قوله تعالى : « الله يعلم ما تخمّل كل أنثى . . . » فإنه تأكيد بالجملة الإسمية أفاده تقديم اسم الله تعالى الذي أسند إليه العلم بالغيب في هذه الآية مرتين :

الأولى : إذ جعلت جملة « يعلم » خبراً عن لفظ الجلالة .

الثانية : إذ كان فاعل يعلم ظهيراً مستترأ يعود على الله .

وإليك تلك الصورة العجيبة عن علم الله بالغيب ، وإحاطته بكل شيء إذ يقول تعالى : « أفئن هو قائم على كل نفس بما كسبت . . . » إلى قوله : « ومن يضلّل الله فما له من هاد » تأمل مشهد تلك الصورة البيانية المؤتلفة من القيومية لله وحده . « فكل نفس عليها حارس قائم عليها مشرف مراقب يحاسبها بما كسبت ومن هو ؟ إنه الله وحده فأية نفس لا تأخذ بها هذه الصورة وهي في ذاتها حق ، وإنما يجسمها التعبير القرآني للإدراك البشري الذي يتأثر بالحسيات أكثر مما يتأثر بالتجريدات . أفذلك كذلك ؟ ثم يجعل الكفار لله شركاء وهنا يبدو تصرفهم مستنكراً مستغرباً في ظل هذا المشهد الشاخص المار هوب « وجعلوا لله شركاء » والله وحده القائم على كل نفس بما كسبت لا تغفل منه ولا تروغ . ويمضى السياق المبدع في التصوير في رسم ظل التهم المرهولاء في قول الله تعالى : « أم تنبؤنه بما لا يعلم في الأرض ؟ » وينتهي هذا التهمم بالتقرير الجاد الفاصل في قوله : « بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلّل الله فما له من هاد » .. فالمسألة إذاً أن هؤلاء الكفار ستروا أدلة الإيمان وجهدوا نفوسهم عن دلائل الهدى فحققت عليهم النهاية الحتمية لإظلال الله لهم وتعذيبهم « ومن يضلّل الله فما له من هاد » .

(١) انظر الظلال لسيد قطب الجزء الرابع ط دار الشروق .

وتأمل الإطار لتلك الصورة كيف زخر بصور بلاغية تبرز في وضع
الموصول موضع المضمر في قوله : « بل زين للذين كفروا » وفي هذا الأسلوب
ذم للكفار وتسجيل عليهم .

وكذلك في وضع المظهر موضع المضمر في قوله : « وجعلوا لله شركاء »
وفي ذلك تنصيص على وحدانية الله ذاتاً وإسماً وتنبية على اختصاصه باستحقاق
العبادة مع ما في هذا الأسلوب من البيان بعد الإيهام على حد قوله تعالى :
« أفئن هو قائم على كل نفس بما كسبت » (١) حيث جاء الموصول للدلالة
على تفخيم أمر المبین .

بل تأمل لفظة « أم » في الآية الكريمة : فإن الأولى بمعنى بل ومجى الاستفهام
متلوا بالنفي في قوله : « أم تفتنوننا بما لا يعلم » بديع لا تكنه بلاغته وبراعته
ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصرف البديع لكان على النسق
التالى : « وجعلوا لله شركاء وما هم دونه إلا أسماء سميتوها » (٢) وهذا الإيجاز
بالحذف في قوله : « أفئن هو قائم على كل نفس » إذ التقدير كشركتهم
أو يشركون به بدليل قوله تعالى بعد ذلك « وجعلوا لله شركاء » وراع هنا
استعمال صيغة الاستفهام بمعنى الإنكار الإبطالى لا بمعنى طلب الفهم . أى ليس
من هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس كذلك .

ويستطرد السياق لاستكمال الصورة في قوله تعالى : « وقدمكر الذين من
قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار »
وذلك بعد نفس طويل في بعض الآيات ولم يزل المعنى مستمراً يشهد بوحداية
الله وإحاطة بعلم الغيب على نسق قوله تعالى : « أفئن هو قائم على كل نفس
بما كسبت الآية » .

ومما يبعث على التأمل في الجانب التصورى من قوله تعالى :
« وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم
الكفار لمن عقبى الدار »

(١) انظر تفسير أبي السعود ص ٢٢٨ .

(٢) انظر الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لأحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى

ص ٣٦١ . على دماش الكشاف للزمخشري - طبعة دار الفكر بيروت .

أن جاء ترتيب الأسباب ثم ترتيب النتائج ، نلاحظ ذلك في صدر الآية من قول الحق سبحانه : « وقد مكر الذين من قبلهم » ، فقد عقب السياق بذكر نتيجة مكر أولئك الكفار ، وتلك النتيجة هي مكر الله الذي لا يفلت منه أحد ثم هذا المكر من جانب الله العلي القدير ليس ظمناً لأحد من البشر ، وإنما هو مبنى على علمه المحيط بما في مكنونات الضمائر والحواليج ، فلو صفت نفوس أولئك الكفرة لسلمت من مكر الله ، ولكن سبق في علمه المحيط بكل شيء أن هؤلاء استحقوا عاقبة المكر بأخذهم « ثم أخذتهم فكيف كان عقاب » .

« والمكر تدبير أمر في خفاء عن دبر عليه لصرفه عما يريد ، أو لإيقاعه فيها لا يريد . وقد يكون مذموماً إذا كان الأمر المدبر فيه مؤدياً إلى نتيجة مذمومة . وقد يكون محموداً إذا كان الأمر المدبر فيه مؤدياً إلى نتيجة محمودة .

والضمير في قوله تعالى : « من قبلهم » يعود إلى المشركين ، ومعلوم أن موضوع السورة يدور حول الحديث عنهم . أى فلا غرابة أن يكون منهم مكر للرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالدين الذي جاء به ، وبالمسلمين . فقد سبقتهم أمم كثيرة كافرة مكرت بالرسول ، وبالرسالات ، وبالمؤمنين بها .

* * *

قال جل وعلى : « وإن يكذبوك فقد كذبت الرسل من قبلك » وقوله عز اسمه : « ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد » .

* * *

ولا تكاد سور القرآن في جملتها تخلو من مثل هذه الآيات الكريمة التي تساق لتهدئة قلب الرسول الكريم وتثبيت نفسه وبيان وظيفته ، وحمله على الصبر في نشر دعوته ، وتبليغ رسالته .

والذى يعنيننا فى هذا المقام هو إمعان النظر فى إبداع التصوير فى الآيات من سورة الرعد ، فإذا تدبرنا قول الله تعالى : « فله المكر جميعاً » واستشعرنا روعة الأسلوب القرآنى ألفيناً تركيباً لا نغموض فيه إذ جعلته مؤلفة من مبتدأ وخبر وحال ، لكن ما المعنى المراد من كون المكر كله لله ؟ إن المكر قد يكون فى الخير ، وقد يكون فى الشر ، فلا بد أن نقول : إن المكر المنسوب إلى الله إنما هو من المكر فى الخير ، لأن الله ليس بظلام للعبيد فأخذ الناس بظلمهم قطع لدابر الشر ، ونزوات الباطل ، وردع للبشر من التردى فى مهاوى الفساد والكفر والضلال .

وظلال التصوير القرآنى يشى ببيان هذا المعنى إذ تحتته ما يلى :

١ - يتصور الكافرون أنهم يدبرون خطط مكرهم فى خفاء ، وأن خططهم ستحقق لهم الظفر بالرسول ورسالاتهم التى من شأنها أن تسلبهم نفوذهم وسلطانهم فى قومهم .

٢ - الله سبحانه مطلع عليهم لا تخفى عليه منهم ، ولا من أفعالهم خافية فما يظنونه خفياً هو معلوم لله تعالى .

٣ - يترك الله الماكرين يتابعون تنفيذ خططهم فى المكر ، وهو مطلع عليهم وقد دبر لهم من الأمر ما ليس فى حسابهم ، حتى إذا ظنوا أنهم قد قاربوا قطف ثمرة مكرهم ، فوجئوا بتدبير لا علم لهم به - أفسد عليهم أمرهم ووجدوا أنفسهم قد سقطوا فى شركهم الذى نصبوه دون أن يعرفوا كيف سقطوا فيه ، وهنا نقول : إن المكر الذى يحاول أن يوجهه الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولدين الله ، إنما هو فى الحقيقة مكر بالله ولما كان الله مطلعاً على ما يدبرون ، لأنه يعلم ما تكسب كل نفس سقط أن يكون ما يحاولونه فى حقيقة الأمر مكرراً ، ولما كان الله فيما يمد لهم قد دبر لهم من حيث لا يعلمون ما يفسد عليهم مكرهم ويوقعهم فى جزاء عملهم ، كان المكر فى الحقيقة لله لأن تدابير الله تعالى مجهولة لهم ، ونافذة فيهم وفى غيرهم لا محالة .

فأى التدبير فى الحقيقة وواقع الأمر ؟ أتدبرهم أم تدبير الله ؟ لا شك

أنه تدبير الله ، لكن محاولتهم قد كانت في ابتغاء الشر ، وما دبره الله قد كان في ابتغاء الخير (١) « بقطع دابر المذنب والكافر وردع من يحوم حول حى الضلال ، وهذا وذاك كله بتدبير الله إذاً فالمكر كله له . لعلمه بكافة الأمور نافعها وضارها .

والتعبير بالمكر في جانب الله تعالى : أسلوب من المشاكلة . وهى ضرب من ضروب البلاغة التى وردت في كتاب الله تعالى .

والمشاكلة هى : التعبير عن الشيء بلفظ غيره لوقوعه في محبة ذلك الغير ، وبخال هذا التعبير أن فيه ائتلافاً بين الألفاظ كما في قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . فإن جزاء السيئة عقوبة ، ولكنه تعالى عبر عن العقوبة بالسيئة لوقوعها في محبة تلك السيئة ، ومثل ذلك قوله تعالى : « يخادعون الله وهو خادعهم » .

وكذلك المكر هنا في جانب الله الذى من معانيه التدبير لما يبيت أولئك القوم وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التدبير بالمكر لوقوعه في محبة مكرهم ، وخير الكلام ما كان أوله يدل على آخره ، وما كان بعضه آخذاً برقاب بعض .

• • •

ولنتبين بعد ذلك قوله تعالى : « يعلم ما تكسب كل نفس » فهو تعليل وبيان لإحاطة علم الله بدخيلة الأنفس ، وما تخفى الصدور ، فقد ظن أولئك الغافلون أن أحداً لا يعلم بما يمكرون فبين لهم الله أنه ما من شاردة أو واردة . إلا وعلمه محيط بها ، وإذا « فله المكر جميعاً ، يعلم ما تكسب كل نفس » .

ومعنى السياق في تصوير مدى علم الله بالغيب إذ يقول تعالى : « ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب » .

(١) انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنيكة ص ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٥٧ .

وقد حفلت السورة الكريمة بكثير من الصور البيانية التي تنتظم إنكار الكفار للبعث والنشور ، واستعجال العذاب ، وتصوير المشركين الذين يلجأون إلى من لا ينفعهم ولا يضرهم ، وتمثيلهم ببساط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه فلا يصل إليه .

وتلك المعاني يبرزها التصوير البديع في الآيات الكريمات من السورة إذ يقول تعالى : « وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً أنا لنف خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم . وأولئك الأغلال في أعناقهم . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم . وإن ربك لشديد العقاب . ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » وقوله تعالى : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

أربع آيات « يعجب التعبير في الأولى منهن من أمر قوم تلك الصور التي سبق عرضها في أول السورة لا توقظ قلوبهم ، ولا تنبه عقولهم ، ولا يلوح لهم من ورائها تدبير المدبر وقدره الخالق ، كأن عقولهم مغلوطة ، وكأن قلوبهم مقيدة فلا تنطلق للتأمل في تلك الآيات » (١) وغيرها .

والذي يشد العقل والشعور ، ذلك التصوير البديع الذي أثاره مصدر التعجب من أولئك الكفار وشكهم في إعادتهم خلقاً جديداً ، فن بديع ذلك التصوير . « التنسيق بين غل العقل وغل العنق : الأول معنوى ، والثاني حسي عبر به لا كتمال الصورة في الذهن عن جزائهم بالنار على الكيفية الرهيبة جزاء تعطيلهم مقومات التفكير والتدبر ، التي بها أكرم الله نبي الإنسان لكن هؤلاء الكفار يأبون هذا التكريم ويعطلونه » (٢) .

(١) تفسير ظلال القرآن لسيد قطب .

(٢) المصدر السابق ص ٩١ ، ٩٢ .

وعناصر التصوير هنا جاءت منزعة من الواقع القريب ، فمن منا لا يعرف الغل « الذى هو الحديد أو القيد يغلق به العنق » (١) ومن منا لم ير صورة حسية لمجرم تصفد رجلاه ، وتغل يده إلى عنقه ؟ إن تلك الصورة لتجرى فى تنفيذ العقوبات بين الآدميين فى حياتهم الدنيا ، فكيف بها فى عقوبة الآخرة ، وكيف بصدورها ممن لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ؟ .

وقد زاد هذا التصوير براعة ، تشبيه عوامل الكفر بالإغلال واستعارة هذا اللفظ لها ، واشتمال الآية الكريمة على الاستفهام الذى ليس على حقيقته ، فى قوله : « إذا كنا تراباً » فهو للإنكار والتعجب إذ الكفار يتعجبون من تحقيق إثبات البعث وينكرونه ، واستعمال « إن » فى قوله : « وإن تعجب » مع أن الأصل فى « إن » أن تستعمل فى الأمور المشكوك فيها كما يقول بذلك علماء البلاغة ، وفى هذا إشارة إلى ندرة تعجبه صلى الله عليه وسلم فكان حصول التعجب عنده من الأمور المشكوك فيها إذ التعجب إنما يحصل ممن يجمل الأسباب أما من يعلمها فلا ، والرسول صلى الله عليه وسلم يزود باستمرار بالمعارف الربانية عن طريق الوحي فقلما يجمل أسباب الأشياء ، وكذلك استعمال « إذا » فى قوله تعالى : « إذا كنا تراباً » لأن مصير الناس إلى تراب من الأمور المحققة الوقوع ، وقد ذكر علماء البلاغة أن « إذا » تستعمل غالباً فى الأمور المحققة لا المشكوك فيها » (٢) . والموت لا شك فيه ، واستحالة الأجساد إلى تراب يراه سائر الناس ، فليسوا يشكون فيه ، فقد كبر عليهم أن تستعيد هذه العظام والأجساد صورتها الأولى يوم البعث والنشور ، ويمضى السياق مصوراً شأن هؤلاء الكفار بطلبهم تعجيل العقوبة ، ورأفة الله بهم ، بهدائهم أولاً إلى الحق ، فإن لم يؤمنوا فإلى العذاب ، يقول سبحانه : « ويستعجلونك بالسنة قبل الحسنة وقد خات من قبلهم المثالات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب » .

(١) التباير القرآنية والبيئة العربية فى مشاهد القيامة ص ٢٦١ لابتسام مرهون الصفاد الطبعة الأولى - مطبعة الآداب فى النجف ١٣٨٧ هـ نقلاً عن الصحاح للجوهري ولسان العرب لابن منظور .

(٢) انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنيفة ص ٦٩ ، ٧٨ .

والتعبير في الآية هنا يقدم مغفرة الله على عقابه ، في مقابل تعجل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل الهداية ليبدو الفارق الضخم بين الخير الذي يريده الله لهم ، والشر الذي يريدونه لأنفسهم ، ومن ورائه يظهر انطباع عمى البصيرة وعمى القلب ، والانتكاس الذي يستحق درك النار» (١) وراع ذلك التقابل العجيب بين السيئة والحسنة ، والظلم والمغفرة ، وما قويت به عبارات الآية الكريمة من التوكيد بأن واسمية الجملة واللام في قوله تعالى : « وإن ربك لنو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب » .

وتأمل دقة التصوير في قوله تعالى : « وقد خلعت من قبلهم المثلاث » إن الذهن ليظل صامتاً يكتنه مصارع الغافرين التي عبرت عنه لفظة خلعت والمثلاث وما حل بهم من سوء ما عملوا أما قوله تعالى :

« ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل يوم هاد » فيكنى في براعة التعبير اشتغال الآية على القصر الإضافي في إنما أنت منذر إذ به اكتملت الصورة ببيان وظيفة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وانحصارها في التبليغ والإنذار أما مجمل القضايا التي أثارها السياق في الآيات السابقة فتتناجها راجعة إلى الله وحده وراع ذلك التهجين بذكر المشركين ووصفهم بالذين كفروا . وما له من روعة في التبكيت والنعي على هؤلاء . ثم في هذا القيد بعد ذكرهم وطلبهم المعجزة بقولهم : (من ربه) ان في ذلك لوصف لهم بالإمعان والتردى في الظلال والكفر .

• • •

وفي تصوير المشركين الذين يجأرون بالدعاء إلى من لا ينفعهم ولا يضرهم إلا بإذن الله ، تعرض الآية الكريمة التالية من قوله تعالى :

« له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى السماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

(١) انظر تفسير الظلال لسيد قطب .

تعرض نوعاً من التشبيه المسمى بتشبيه التمثيل . وأول ما يشتمل عليه هذا التشبيه من الحسن والروعة أنه « تصوير أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه . وقد اجتماعاً في الحاجة إلى نيل المنفعة والخسرة بما يفوت من درك الطلبة . وفي ذلك زجر عن الدعاء إلا لله عز وجل الذي يملك النفع والضرر . ولا يضيع عنده مثقال الذر » (١) .

وإنه تشبيه تمثيل لكون وجه الشبه فيه منتزع من متعدد ، ففيه تشبيه عدم استجابة الشركاء للداعين لهم بعدم استجابة الماء الباسط كفيه إليه من بعد ، فإن باسط كفيه لا يمسك ماء ، ومن ثم لا يستطيع أن يبلغ به فاه فهو يحيا في آمال كذاب . ووجه الشبه عدم حصول الفائدة المرجوة في كل من صورة دعاء الشركاء ، وصورة طلب الماء من بعد ، مع شدة الحاجة والإلحاح ، وبسط الكفين في كل من صورة المشبه ، والمشبه به .

وقد أعان هذا المثل على التلاحم في جو الآية الكريمة ، وما قبلها ، إذ نلاحظ في السياق السابق « معترك الخوف والطمع في النفس الآدمية وهاتان الصفتان آثارهما جو البرق والرعد والسحاب الثقال والصواعق المرسلة ، وتلك أحداث وظواهر طبيعية مخيفة مطمعة ولا حيلة للعاجزين أن يتصرفوا فيها على ما يريدون ولا مفر لهم إلا أن يلجأوا بالدعاء إلى القوة القاهرة التي هي من صفات القوى القهار ومن خلال المشهد التصويري نرى صنفين من الأدعية تقذف بها حناجر الداعين : دعوة الحق ، ودعوة الباطل .

أما دعوة الحق فصاعدة إلى الله يعلمها ويستجيب لمن دعا بها على مقتضى حكمته وأما دعوة الباطل فضائعة ضالة تمزقها الحيرة ولا تصل إلى الله لأنها ليست له ولا تجد من دون الله من يسعها ويتلقفها لأن الذين من دونه عاجزون

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني وعبد القاهر ص ٧٦ تحقيق محمد خاف الله ومحمد زغلول سلام .

عن جلب المنفعة ودفع المضرة فضلاً أن يسعفوا غيرهم ممن يستجير بهم .
فما أخيب هؤلاء الداعين وما أضل دعوتهم فثلهم كمثل الضامى الملهب عطشاً
يبسط كفيه إلى الماء من بعد ظناً منه أن هذه الوسيلة كافية لأن يبلغ الماء
فاه وليس ببالغته .

وكذلك دعاء الكافرين سواء أكانوا منكرين لله أو مشركين به ما هو
إلا دعاء ضائع لا يحقق شيئاً مما يرجون (١) « وتأمل روعة الأحكام ودقة
التلاحم ، إذ بعد إثارة هذا التشبيه تأتي آية أخرى تصور حال عباد الله المؤمنين
وكل من في الأرض مسبح داع مؤمن بالله يقول تعالى : « والله يسجد من في
السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغد والآصال » وتلك الآية
سنعرض للحديث عنها عند الكلام على الصور البيانية في جانب حال المؤمنين .
وحال الكافرين مع الله .

• • •

ومما أخرج الصورة البيانية مخرج المشاهد المحسوس اشتغالها على تأكيد
الكلام بما يشبه الاستدراك عليه ، وذلك في قوله سبحانه : « إلا كباء ط
كفيه إلى الماء » فهو مثل يتضمن تأكيد الكلام السابق ولكنه جاء على صورة
الاستثناء ، والغرض . التهم بالذين يدعون من دون الله ، متصورين أنهم
سينتفعون من شركائهم .

وكذلك أسلوب الاختصاص والتقصير في قوله تعالى : « له دعوة الحق »
وهذا الاختصاص مستفاد من تقديم ما حقه التأخير ، وفي قوله : « وما دعاء
الكافرين إلا في ضلال » وهو من قبيل قصر الموصوف على الصفة ، أى
دعاء الكافرين ليس له من الصفات إلا صفة الخسران ، والضياع ، وعدم
حصول الفائدة .

(١) انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنيفة ص ١٢٦ .

بالإضافة إلى هذا الإطناب الجميل الذى ختمت به الآية ، ويصح أن يستقل بنفسه ، ويستخدم فيما يشبهه من الأحوال ولذلك فهو تذييل جار مجرى المثل كما يقول البلاغيون .

• • •

حقاً إنها لصورة تعبر عن مشهد « ناطق متحرك لاهث جاهد . فدعوة واحدة هى الحق ، وهى التى يستجاب لها . إنها دعوة الله ، والتوجه إليه ، والاعتماد عليه ، وطلب عونه ورحمته وهدايه وما عداها ضائع باطل ، وهذا المعنى يصوره ذلك التشبيه التمثيل فكأنما ألفاظه وتراكيبه تنطق قائلة : ألا ترى حال الداعين لغير الله من الشركاء ؟ انظر هذا واحد منهم ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ، ويسبط كفيه وفمه مفتوح يلهث بالدعاء يطالب الماء ليبلغ فاه ، فلا يبلغه ، وما هو ببالغه ، بعد الجهد واللهفة والعناء ، وكذلك حال الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء من دونه (١) » .

— ٤ —

ولحال الموحد والمشارك والمؤمن والكافر ، وتصويرهما بالأعمى والبصير ، ووصف التعم والعذاب ، وتشبيه الدين والإيمان بالحبل المبرم ومحاولة الكفار نقض هذا العهد ومحاولتهم قطع ما أمر الله به أن يوصل وإفسادهم فى الأرض . لكل تلك المقاصد والأغراض صور بيانية اتسمت بأسلوب الاقتدار الذى هو التنويع فى العبارة من استعارة وتشبيه إلى كناية وتعريض ، إلى حذف وتقديم وتأخير إلى إيجاز وأطناب إلى غير ذلك من أساليب البيان الرائع الذى تحار فى كنهه العقول والأفكار ويجمع تلك الأغراض طائفة من آيات السورة الكريمة من قوله تعالى : « والله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً

(١) انظر الظلال لسيد قطب ص ٨١ .

وظلّهم بالفسد والآصال (١٥) . قل من رب السماوات والأرض قل الله أقلّ تخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار (٢٦) وقول الله تعالى : « أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب (١٩) الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق (٢٠) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدعون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وفريأتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

إلى قوله سبحانه : « مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار » ، وقوله : « للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب وماؤهم جهنم وبئس المهاد » ، وقوله تعالى : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة وهم سوء الدار » ، إلى قوله تعالى : « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد » ، وقوله : « لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق » .

تلك ثلاث عشرة آية تحمل كل واحدة صورة رائعة أو أكثر من صورة فلنأخذ فى تحليل تلك الصور مستوضحين أسرارها الجمالية ، وإبداعها فى التصوير . انظر لصورة الإنسان وكل ما على الأرض وهم ساجدون لله إن طوعاً وإن كرها وتأمل قوة الأحكام فى النظم ، والتلاحم بين أجزاء الآيات فى تلك الصور ، إذ لما أثارت الآية الكريمة من قوله تعالى : « له دعوة

الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم شيء إلا كباسط كفيه إلى السماء . . . الآية . لما أثارت تشبيهاً أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وضربت مثلاً لواقع الخيبة التي يتردى فيها الذين يدعون من دون الله أولياء ، وهو مثل مصرح به إمعاناً في النكابة بالمشركين ، والنعمى عليهم ما هم فيه من حال ، وما هم عليه من ضلال ، بل « هو مثل أوردته الآية مورد الاستثناء الذي يوهم إثبات شيء من الاستجابة ثم ينتهى بالتمثيل إلى تأكيد معنى النفي الذي سبق الاستثناء ، وهذا لون بديع من التهكم (١) » نعم لما أحملت الآية ذلك كله جاء بعده في السياق ما يثبت أن النافع الضار هو الله وحده فهو المستحق للعبادة لا غيره ، ولذا تقول الآية : « والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » .

وما أروعه من إحكام بين أجزاء الآيات وبين كل آية وصلتها بما قبلها وما بعدها ، تأمل بديع هذا النظم ، وإحكامه في التسلسل إذ لم تزل الآيات مستمرة في معانيها عن الحق ووجوب اتباعه ، والباطل ووجوب اجتنابه وأنه لا مستحق للعبادة من كل من في السماوات والأرض سوى الله وحده . فلذا « والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » .

ما أروعه من مشهد يقف فيه كل ما على الأرض من مخلوقات آدمية وغير آدمية من حيوان أو جماد ، وكله مشهد يتجه بمن فيه إلى وجه الله وحده في استكانة وخوف وتذلل وانقياد إن طوعاً وإن كرها حتى ظلال تلك تلك المخلوقات ساجدة لله ، وقد أكد هذا السجود والانقياد ، ذلك القصر والتخصيص في قوله : « والله يسجد » فقد قدم للجماد والحرور وهما متعلقان بالفعل يسجد فأفاد تقديم ما حققه التأخير قصر السجود على الله سبحانه وتعالى .

فالتصوير في الآية تعبير نابض بالحركة الدائبة إذ كل من في الكون يعنو لله والخلق « كلهم محكومون بإرادته خاضعون لسنته مسبرون وفق ناموسه :

(١) سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنيفة ص ١٢٢ .

المؤمن منهم يخضع طاعة وإيماناً ، وغير المؤمن ينقاد أخذاً وإرغاماً فما يملك أحداً أن يخرج على إرادة الله ، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذى سنه للحياة .

والمشهد مشهد عبادة ودعاء ، ولذا يمضى السياق متحدثاً عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود فهو أقصى رمز العبودية ، ويظم إلى شخوص من فى السماوات والأرض ظلّاهم كذلك : ظلّاهم بالغدو فى الصباح وبالأصال عند إنكسار الأشعة ، وامتداد الظلال يضم هذه فى السجود . والخضوع . والامثال . . . (١) وهى فى ذاتها حقيقة . فالظلال تبع للشخوص . ثم تلقى هذه الحقيقة ظلّها على المشهد فإذا هو عجيب ، وإذا السجود مزدوج . شخوص وظلال . وإذا الكون كله بما فيه خاضع لله . شخوص وظلال فحرى أن يستجيب الله لسااجدين .

وهذه صورة أخرى لكنها هنا فى جانب المشركين ، ترسم ظلّاهم الآية الكريمة على حد قوله تعالى : « قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أناخذنم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور . أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » .

إنها صورة يزخر مشهدها بحركة حية ماثلة للعيان كأنما يتملاها الحس ويدركها الشعور ، وتراها العين من قرب ومن بعد . فالهيكل بارز للناظرين مبنى بأمشاج من ألفاظ سهلة متقابلة فإيمان وكفر ، وعمى وبصيرة ، ونور وظلمة ، ومخلوقات غير قادرة على النفع والضرر لأنفسها أو لغيرها .

* * *

ومما يسترعى النظر ذلك التشبيه القائم على أركانه الثلاثة اتخاذ الأولياء خلقاً يزعمون لهم النفع والضرر والإيجاد ، وخلقاً لله اعتقد المشركون أن أوليائهم يوجدون مثله ، وكاف وسط بين المشبه ، والمشبه به وقبل ذلك كله جمال

(١) انظر ظلال القرآن لسيد قطب ص ٨٢ طبعة بيروت .

التعبير « يجعل » التى بمعنى اعتقد « أى اعتقدوا أن الله شركاء خلقوا كخلقه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (١) » .

* * *

« ثم لما دل النظم البديع على أن الكفرة فيما فعلوا من اتخاذ الأصنام أولياء من دون الله سبحانه فى الضلال المحض ، والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد ، وأنهم فى ذلك كالأعمى الذى لا يهتدى إلى شىء أصلاً ، وليس لهم فى ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وأخطائهم فضلاً عن الحجة أكد ذلك فقال : « أم جعلوا الله شركاء خلقوا كخلقه... الآية (٢) » .

واكتمال المشهد العجيب فى هذه الصورة العجيبة محاط بالأسئلة المتبهة الموجهة إلى المشركين . « فاجدر بالمشرك فى مثل هذا الجو إلا التهم ، وما يستحق إلا السخرية والاستهزاء . نعم قل لهم يا محمد « من رب السماوات والأرض قل الله قل أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا الله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » .

سليم والقضية واضحة ، فلا رب سوى الله ، والفرق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور ، وإنما السؤال للنهم المر اللاذع المعقب عليه بقوله تعالى : « قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » .

وهنا تحاط قضية الشركاء فى هذه الصورة بسجود من فى السماوات ومن فى الأرض ، وظلالهم طوعاً وكرهاً كلهم فى خضوع وانقياد ، وفى ختام

(١) انظر البرهان للزركشى الجزء ٤ ص ١١٣ تحقيق أبى الفضل إبراهيم الطبعة الثانية

طبعة الحلبي .

(٢) تفسير أبى السعود ص ٢١١ ، ٢١٢ تحقيق عبد القادر أحمد عطسا .

المشهد ذلك القهر الذى يخضع له كل شىء فى الأرض والسماء وقد سبقته
فى السياق بروق ورعود . وصواعق وتسبيح وخوف وطمع .. فأى قلب
يصمد لهذا الهول ، إلا أن يكون أعمى مطموساً يعيش فى الظلمات حتى
يأخذه الهلاك (١) .

واستوف طريقة الأداء فى تلك الصورة البيانية فستجد الألفاظ انتزعت
وتخبرت من الواقع القريب وحىء بها لرسم صورة حية عن معنى الجهل
والعلم والهدى والظلال وكل لفظة فى الصورة تشع بالمعنى المراد وتبث فى
النفوس والمشاعر ما يحرك الضمائر - ويجعلها متيقظة تتأمل شخوص تلك المعانى
عن إحساس فياض وإدراك لمعنى الجهل والعلم والهدى والظلال والكفر
والإيمان .

« وتدرك الفرق بين الحق والباطل إدراك الفرق بين الأعمى والبصير
وفى ذكر الأعمى إشارة إلى الكفر وأهله ، وفى ذكر البصير إشارة إلى العلم
والإيمان وأهله فالعمى وحده هو الذى يحجب الرؤية كما يحجب عمى البصيرة
رؤية الحق المبين ويصد عن التأمل فيه أنه يدرك أثره ويحس به كل من فى
السموات والأرض » .

وراع تلك التقابلات الفنية العجيبة بين طوعاً وكرهاً والغدو والآصال
والأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، ونفعاً وضراً والسموات والأرض
وافطن إلى أسلوب الاقتدار الذى يتميز به أسلوب تلك الصور فهناك :

القصر والاختصاص فى قوله : « والله يسجد من فى السماوات والأرض »
وقد استفيد هذا القصر من تقديم المعمول على العامل فى « لله يسجد » .

وهناك خروج الاستفهام عن حقيقته إلى معنى الإنكار فى قوله تعالى :
« أفأنتخذتم من دونه أولياء » وهو من باب الاستعارة التبعية فى الحروف القائمة
على أساس تشبيه الشىء المعلوم الوقوع الذى ينكره العقل السليم على فاعله

(١) انظر الظلال لسيد قطب ص ٨٢ ، ٨٣ .

بالجهول الذى يستفهم عنه عادة أى هو لنكارته جذير بأن لا يقع فى تصور الإنسان أنه موجود أو يمكن وجوده ، ولذلك يصح أن يستفهم عن وجوده والغرض الإنكار على فاعله أو المتصف به .

وهناك التشبيه فى قوله تعالى : « خلقوا كخلقه » وهذا التشبيه الغرض منه مجرد الماثلة .

وافطن إلى براعة الإيجاز أولاً بحذف جزء الجملة فى قوله تعالى : « قل الله » أى هو الله أو الله رب السماوات والأرض .

وثانياً بطى كلام يمكن العلم به من ترتيب الأمور بعضها على بعض . ومنه ما يجيب به المشركون عند سؤلهم (من خلق السماوات والأرض ؟) وهم سيقولون هو الله . أو عبارة نحوها . لأنهم ممن يقولون بذلك .

وتأمل بلاغة القصر فى قوله تعالى : « الواحد القهار » أخذاً من تعريف طرفى الإسناد وهو من باب قصر الصفة على الموصوف والقصر هنا إضافى لأن لله سبحانه صفات أخرى غير الوجدانية والقهر .

وفى قوله تعالى : « الله خالق كل شىء » لأنه لما أضيف لفظة خالق إلى كل شىء كان فى قوة قولنا : « الله خالق » بل أقوى منه لأن القصر استفيد من مادة المضاف إليه الدالة على العموم نصاً والقصر هنا حقيقى ومن باب قصر الصفة على الموصوف أى ما خالق كل شىء إلا الله .

وافطن الى أسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فى قوله تعالى : « قل أفأنتخذتم من دونه أولياء » ثم قوله : « أم جعلوا لله شركاء » والالتفات فن من فنون البلاغة زينه هنا طول الفصل بين الجملتين وكون الذين جعلوا لله شركاء فى الربوبية قلة نادرة فى العرب ولذلك جاء الحديث عنهم بالغيبة بخلاف القسم الأول فهم معظم العرب ولذلك جاء الحديث عنهم بالخطاب (١) .

(١) انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص ١٤٢ الطبعة الأولى ١٣٩١هـ - ١٩٧١

ويعمى السياق مصوراً حال الموحدين المؤمنين بالله وصفاتهم الإيمانية
التي هي الصفات الحقيقية للمؤمن الحق .

ونلاحظ تلك الصفات وأهلها في الآيات الكريمة من قوله تعالى :
« أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى . . . » إلى قوله
تعالى : « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

إن مظاهر التلاحم في نظم هذه الآيات ليأتى متناسقاً تمام التناسق مع
موضوعات السورة الكريمة . « فبعد المشاهد التصويرية الهائلة في آفاق
الكون وفي أعماق الغيب وفي أغوار النفس التي استعرضها شطر السورة الأول
يأخذ شطر السورة الثاني في تصوير لمسات وجدانية وعقلية تصويراً رقيقاً
دقيقاً مبتدأً بقضية الوحي والرسالة « أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق
كمن هو أعمى » فهنا لمسة في طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر . الأولى علم
والثانية عمى . ويعمى خط السير في تصوير طبيعة المؤمنين والصفات المميزة
لهم والتي أولها علمهم الإيماني بوحداية الله وما نزل من عنده على رسوله
صلى الله عليه وسلم ، وإشعاع هذا العلم في مقابل ظلام الجهل والعمى الذي
لم يهد عقل صاحبه إلى نور الإيمان ، وفي هذا أسلوب عجيب في لمس القلوب
وتجسيم الفروق ، وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ، ولا زيادة ،
ولا تحريف .

فالعمى وحده هو الذي ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي
لا تخفى إلا على أعمى ، وإذا فالتناسق إزاء هذه الحقيقة الكبرى صنفان : صنف
يعلم فهو مبصر مؤمن ، وصنف التوى به الطريق فهو أعمى قد ضل سبيل
الحق ، ولا يستويان مثلاً .

والعمى عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستغلاق القلوب ،
وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح وانفصالها عن مصدر الإشعاع الذي
تستنير به القلوب « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في
الصدور » .

ولكن إنما يتذكر أولو الألباب الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكّر بالحق فتتذكر ، وتنبه إلى دلالته فتتفكر ، وهذه صفات أولى الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، وهنا تنتقل الصورة مجسدة بعض صفات المؤمنين التي من أزكاها وفاؤهم بعهد الله هذا العهد الذي أحلته الآية الكريمة فإنه عهد الله المطلق الذي يشمل كل عهد ، وميثاق الله المطلق الذي يشمل كل ميثاق .

• • •

والعهد الأكبر الذي تقوم عليه العهود كلها هو عهد الله مع نبي آدم كلهم ، إذا استخرجهم من ظهر أبيهم كالذر ، ثم أشهدهم على أنفسهم : « ألسن بربكم » قالوا بلى ، إنه عهد الإيمان ، والميثاق الأكبر الذي تتجمع حوله المواثيق كلها ، هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

والتصوير البديع هنا انتظم لفظتين اثنتين هما العهد والميثاق ، وصدرهما بلفظتين اثنتين هما « يوفون » ولا ينقضون هكذا في إجمال تبقى النفس لزاء هذا التصوير معلقة تشرّب إلى الوقوف على نوعية هذا العهد ، وهذا الميثاق وهذا من خصائص الأسلوب القرآني إذ أحياناً يجمل ثم يفصل ، وأحياناً يجمل دون تفصيل لتبقى نفس القارئ والسامع معلقة بهذا الأسلوب تبحث عما وراءه من أحداث .

ويرتب الخط التصويرى على العهد الإلهي والميثاق الرباني كل العهود والمواثيق مع البشر سواء مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو مع الناس ذوى قرابة أو أجنب أفراداً أم جماعات فالذى يرعى العهد الأول حرى بأن يرعى سائر العهود لأن رعايتها فريضة ، والذى ينهض بتكاليف الميثاق الأول يودى كل ما هو مطلوب منه للناس لأن هذا داخل في تكاليف الميثاق .

فانظر لدقة هذا التصوير كيف يبرز القاعدة الضخمة الأولى التي يقوم عليها بنيان الحياة كله أنها عهد الله وميثاقه . ثم يقرر هذه القاعدة في ثلاث

كلمات من قوله تعالى : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » نعم يصلون ويخشون ويخافون .

هكذا في إجمال : لأن التفصيل يطول وهو غير مقصود إنما المقصود تصوير الاستقامة المطلقة التي لا تلتوى والطاعة المطلقة التي لا تتفلت والصلة المطلقة التي لا تنقطع ... ويلمح عجز الآية إلى الشعور المصاحب في نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة .

ويتبع تلك الصفات المطلقة صفات أخرى للمؤمنين يجسدها التصوير القرآني في قوله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدعون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ... » صفات أربع ينتظمها التصوير في :

١ - الصبر .

٢ - إقامة الصلاة .

٣ - الإنفاق في طريق مشروع .

٤ - درء السيئة بالحسنة .

ومثل تلك الصفات لا تصدق إلا على عباد الله المؤمنين الصالحين الذين شعارهم الإيمان ، ودثارهم التقوى ودينتهم الطاعة الدائمة .

ما أروع من تصوير ، فلقد عبرت الآيات السابقات عن بعض صفات المؤمنين : من خوف ، وخشية ، ووفاء بالعهد والميثاق وهذه الصفات يستلزمها التحلى بصفة الصبر ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق المشروع ، ودرء السيئة بالحسنة ، وقد جاءت مرتبة في العقد التصويري من الآية ، إذ نوهت أولاً بفضيلة الصبر تلك الصفة التي قل أن يتحلى بها أحد إلا مؤمن ، وهذا الصبر جاء مجملاً فهو صبر على طاعة الله وصبر عن محارم الله ، وصبر على أقدار الله ثم يلي ذلك صفة إقام الصلاة ، ويرزها التصوير لكونها مظهر التوجه الخالص

والعبودية الكاملة ، ثم يتبعها السياق بذكر صفة الإنفاق مما رزق المؤمنون سرّاً وعلانية ، وهنا تبرز الصلة بين عباد الله التي تجمعهم في الله ، وهم على قيد الحياة تلك السمة العالية التي تزكى نفس معطيها من البخل ، وتزكى نفس أخذها من الغل ، وهذا الإنفاق المشروع أثارته الآية في السر حيث تصان الكرامة ، وتطلب المروءة وتخرج النفس من الإعلان به .

وفي العن حيث تطلب الأسوة ، وتنفذ الشريعة ، ولكل موضعه في الحياة . . وأخيراً لاحظ تلك الصفة التي تنحسر دونها الأطماع فمن ذا الذي يصل إلى درء السيئة بالحسنة إلا مؤمن يقابل السيئة بالحسنة في معاملاته مع الناس ابتغاء وجه الله .

أما في دين الله فلا ، لأن المستعلى الغاشم لا يجدى معه هذا الخلق وإنما أولى به الدفع الصارم والأخذ الحاسم .

هؤلاء المؤمنون الذين هذه صفاتهم ، مامكانتهم عند الله ؟ وما جزاؤهم ؟ هنا ينتقل السياق مصوراً هذا الجزء في قوله تعالى : « أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

انظر إلى هذا المشهد وتأمل التعابير التي رسمته فكأنما تعيشه الآن ، وكأنما تراه حاضراً وتسمع الملائكة وتراهم أطواقاً محيين ومرحبين سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

إنه مشهد حي يأتلف فيه جميع المؤمنين ، ويلتئم شملهم بالصالحين من آبائهم ، وأزواجهم وذرياتهم الذين فرق الموت بينهم ، إنه مهرجان حافل باللقاء والتسليم ، والحركة الدائبة والإكرام^(١) ثم هذه الجنة التي يدخلونها ما صفتها وما الخير الذي وعدوا به . ؟

(١) انظر تفسير سورة الرعد في ظلال القرآن لسيد قطب .

هنا يرتقى الخط التصويرى إلى أبدع الصفات التى تمس الأعماق ، وتثير العواطف فيضرب مثلاً أعلا لصفة هذه الجنة على حد قوله : « مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها . . » فإن مما يتمتع النفوس والقلوب ذلك المشهد الخلوب الرائع مشهد الأنهار الجارية ذات الإمتاع والاسترواح يصورها السياق فيجعل منها مكاناً يبدو للعين ، وكأنه جار وإنما يجرى فيه وأخير أتذيل تلك الصورة بقوله تعالى : « تلك عقبي الذين اتقوا وعقبي الكافرين النار » إنه تقابل فى الجزاء وفق تقابل فى العمل الذى يرسم معناه هذا التصوير البديع القائم على التفصيل والبيان . فقد أعطى الجنة فى التعبير بعض الصفات المشوقة إليها والمرغبة فيها فقال : « تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها » .

وربما كان إيراد الأكل والظل ، والأنهار الجارية ، وغير ذلك من النعيم المادى لمخاطبة البشر بما يفهمون . وبما يتصورونه سبباً من أسباب النعيم فى الحياة الدنيا ، وإلا فإن نعيم الآخرة لا يحد بتلك الصفات والنعيم فى الجنة « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وهناك السعادة الكبرى برضوان الله ورحمته كما قال تعالى : « ورضوان من الله أكبر » .

وقبل أن تغادر هذه الصور عن حال المؤمنين إلى من فى الضفة الأخرى المقابلة لهم من المشركين ، يجب أن نلقى على الإطار الذى اكتنف تلك الصور نظرة فاحصة ، لنرى دقة الأحكام البديع ، الذى به تم الوضوح ، وتعانقت الجزئيات مع الكلّيات فى نسق يتمتع النفوس ويستقر فى الأذهان .

إن من أبرز خصائص الإبداع فى التصوير القرآنى لهذه الآيات ، قوة الربط مع ما بدأت به السورة الكريمة إذ قال الله تعالى - فى مطلعها - : « تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . » ثم ابتداء وصف المؤمنين بشأن المنزل فى سياق النص من قوله

سبحانه : « أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب » .

وقد أعان على دقة التصوير ووضوحه تنوع الأسلوب ، فهناك الاستفهام الإنكارى فى قوله : « أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى » والمتأمل يدرك سر تصدير الآيات بهذا الاستفهام إذ أن الذى يستفهم عنه هنا ، يؤمن به العقلاء ، وينكره غيرهم تكبراً وعناداً وإعراضاً عن الحق وهذا من عمى البصيرة والبصر ، فكأن أعينهم فى غطاء من ذكر الله تبعاً لقلوبهم المغلفة بحجاب الكفر والضلال .

وانظر إلى جمال الاستعارة فى قوله تعالى : « كمن هو أعمى » تلك التى أخرجت المعنوى فى صورة المحسوس فقربته إلى الذهن . والقوة التى يفيدها انقصر فى قوله تعالى : « إنما يتذكر أولو الألباب » وقد أفاد هذا القصر التعريض بلم الكفار فهم لا يتذكرون ، ولا تنفعهم الذكرى « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

« وقد زاد هذا التعريض حسناً استعماله بطريقة القصر بإنما (١) » وقد خص الله تعالى الألباب وحدها بالذكر دون سائر الجوارح ، لأنها محل التدبر والهداية ، ولأن العقل هو النعمة الكبرى التى خص الله بها الإنسان دون سائر المخلوقات .

وتأمل بلاغة الإيجاز فى قوله تعالى : « يصلون ما أمر الله به أن يوصل » فتحت ذلك صلة الأرحام والقربات ، وتحتة الصلة القائمة بين الناس بسبب الإيمان ، وذلك بالإحسان إليهم قدر الطاقة ، ونصرتهم ، والنصيحة لهم فتلك أوثق عرى المحبة (٢) « وكذلك فى قوله تعالى : « سلام عليكم بما صبرتم » فقد أكبر هذا الإيجاز من معنى التسليم الذى هو حفاوة خالصة

(١) الإتيان للسيوطى الجزء الثانى ص ٤٩ .

(٢) انظر تفسير سورة الرعد فى الكشاف للزحشرى .

يبتدريها الملائكة إكراماً لأولئك المؤمنين ، ونكرة للتنويع والشمول ،
« وفي الآية تقييد يقطع الأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب
ومحل هذا التقييد قوله تعالى : « ومن صلح من آبائهم ، وأزواجهم وذرياتهم » (١) .
وفي قوله سبحانه : « أكملها دائم وظلها » إيجاز بحذف الخبر إذ التقدير
وظلها دائم .

وانظر لجمال تلك التقابلات الفنية العجيبة في سياق الآيات بين السر ،
والعلانية ، والسيئة والحسنة ، وتأمل « تقديم المجرور في قوله « ويدعون
بالحسنة » على المنصوب في قوله « السيئة » ففي ذلك إظهار لكمال العناية
بأمر الحسنة وشرفها » (٢) .

وعلى الضفة الأخرى ، المشركون بالله ، وحالمهم ، ووصف عدايتهم في
مقابل حال المؤمنين الموحدين ، ووصف نعيمهم .

وحين يعرض السياق لتصوير حال هؤلاء المشركين ، نرى الخط
التصويري يجمع ثم يفصل ، متخذاً أساساً يفرع منه عاقبة المشركين كما اتخذ
أساساً يفرع منه جزاء المؤمنين ، وكلا الحالين في إجمال وتفصيل ، بأسلوب
ذو تقابل فني في المبني والمعنى ، فبعد أن فصل حال المؤمنين وبينها في
تسع صفات هي :

- ١ - وفاؤهم بالعهد .
- ٢ - عدم نقضهم الميثاق .
- ٣ - وصلهم ما أمر الله به أن يوصل .
- ٤ - خشيتهم ربهم .
- ٥ - خوفهم سوء الحساب .
- ٦ - صبرهم ابتغاء وجه الله .

(١) ، (٢) انظر تفسير أبي السعود ص ٢١٨ وما بعدها .

٧ - إقامتهم الصلاة .

٨ - إنفاقهم سرّاً وعلانية .

٩ - دروهم السيئة بالحسنة .

بعد هذا التفصيل والبيان ، أخذ السياق في حصر صفات أولئك البعداء
الآشقياء الكافرين بالله . فهم :

١ - ينقصون عهد الله من بعد ميثاقه .

٢ - يقطعون ما أمر الله به أن يوصل .

٣ - يفسدون في الأرض .

٤ - لا تنفعهم الذكرى .

وعند الإبانة عن عاقبة الفريقين ، نرى مجمل ما يلاقيه المؤمنون من جزاء
حسن هم أهلهم ، وذلك من خلال قول الله تعالى : « للذين استجابوا لربهم
الحسنى » .

ونرى تفصيل عاقبة المشركين في قوله سبحانه :

١ - « لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به » .

٢ - « أولئك لهم سوء الحساب » .

٣ - « وماواهم جهنم وبئس المهاد » .

• • •

ولأمر ما جاء الإجمال في جزاء المؤمنين ، وجاء التفصيل في عاقبة
المشركين ، ففي ذلك نكايّة بالمشركين إذ عددت الآيات عاقبتهم لتعدد سبلهم
الضائعة يلجأون إليها - والجزاء من جنس العمل .

أما المؤمنون فطريقتهم واحدة هي التوجه إلى الله وحده ، والتصديق

برسالة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، فجاء ذكر جزائهم واحداً هو الحسنى لكن هذا الجزاء فى حقيقته كثير عظيم ، وفى الذروة منه رضى الله عنهم .
وفى هذا الإجمال والتفصيل فى جزاء الفريقين استكمال للأسلوب تقابل الأضداد ، وجبك المعانى ، ولذلك اتبعت هذه الآية ببيان السبب الداعى إلى كون العاقبة « الحسنى » فى الآخرة ، وأنها جزاء المؤمنين ، وأن السيئة فى الآخرة هى جزاء الكافرين .

وقد استدعى هذا التفريق والتفصيل إجمال الآية الكريمة حال الفريقين فى قوله تعالى : « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى » .

فانظر إلى شدة الإحكام ، والتلاحم فى التصوير ، فأية تجمل وأخرى تفصل وكل ذلك فى تناسق عجيب ، ولا شك أن الإيجاز بلاغة والإطناب بلاغة أيضاً ، والتنويع بينهما فى الأساليب يزيد الكلام حسناً وبهاء ، فليس الإيجاز قصوراً ، وليس الإطناب تطويلاً لغير فائدة ، بل الفائدة محققة فيهما على حسب اقتضاء المقام .

هذه العاقبة السيئة منها ما يجسده التصوير حتى يبدو وكأن الكافر يراه رأى العين ، وإنما هو موعود به فى الآخرة ، فاسمع لوقع هذه المطارق « أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

إن عذابهم فى الآخرة أشق « وما لهم من الله من واقى » .

ومنها ما يصوره السياق معجلاً به أو واعداً بحلوله فى الحياة الدنيا « نعم يقول الحق جل وعلا » ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم » . « فلندعهم إذاً لأمر الله ، وإذا كان الله قدر أن لا يهلكهم هلاك استئصال فى حين واحد كبعض الأقوام قبلهم ، فإن قارعة من عنده بعد قارعة تنزل بهم فتصيبهم بالضر والكرب ، وتهلك من كتب عليه منهم الهلاك ، أو تحل قريباً من دارهم ، فتروهم ، وتدعهم فى قلق ، وانتظار لمثلها . وفى ذلك ترهيب لهم لعلهم يقلعون عن غيهم وعنادهم .

وتأمل هذا الأسلوب من قول الله سبحانه : « لهم عذاب في الحياة الدنيا » فهو أول وعيد صريح يعلنه الله في هذه السورة الكريمة بمعجل العذاب في الحياة الدنيا للكافرين بعد كل ما سبق فيها من التلويع به في معارض القول « (١) » .

وقد اعتمد التصوير البياني في هذه السورة على أسلوب « الاختصاص » كما في قوله تعالى : « للذين استجابوا لربهم الحسنى » أى هم مختصون بها فلا تكون لغيرهم ، وقد استفيد هذا الاختصاص من تقديم ما حقه التأخير وهو الخبر على المبتدأ ، إذ وجه الإعراب للذين جارو ومجرور خبر مقدم ، واستجابوا لربهم صلة الموصول ، والحسنى مبتدأ مؤخر ،

ولوضع الاسم الموصول في قوله : « للذين استجابوا » موضع المؤمنين ، وفي قوله : « والذين لم يستجيبوا » موضع الكافرين ، إشعار بأن مضمون الصلة هو السبب فيما ترتب لكل من الفريقين من جزاء .

• • •

وتأمل حسن هذه الاستعارة في قوله تعالى : « وبئس المهاد » إذ أطلق لفظ المهاد وهو المكان الممهد الموطأ ، وأريد به مكان تعذيبهم في جهنم غير الممهد ولا الموطأ ، والغرض من هذه الاستعارة التهكم والاستهزاء ، فليس ما وعدوا به خير مما هم فيه من حال وسوء مآل « (٢) » .

• • •

ولو أردنا تقصى بدائع التصوير في كل آية سبقت لوقفتنا أمام جلال القرآن وروعته مبهورين ، فاذا كثرنا قليل من كثير من روائع الفن البلاغى الذى تزخر به كل آية بل كل جملة من تراكيب القرآن الكريم .

(١) سورة الرعد دراسة لعبدة الرحمن حنيفة ص ٢٣٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٠ ، ١٨١ .

الفصل الرابع خصائص النظم في سورة الرعد وغيرها من السور

- ١ -

درسنا في الفصاين السابقين على وجه التفصيل محاسن النظم في سورة الرعد ، وقد عالجنا فيها عناصر النظم التي نستطيع إجمالها فيما يلي :

فقد درسنا الألفاظ المفردة المختارة ، والتركيب المحكمة ، وبناء الفواصل كما درسنا الأغراض والمقاصد ، والمعاني والصور في هذه السورة الكريمة ، وكذلك وجوه التلاؤم والمطابقة بين المعاني وما تقتضيه من الألفاظ والعبارات ، وبذلنا جهدنا في الإبانة عن مواضع الجمال وأسراره ، وتأثيره في ألباب السامعين والقارئین .

وقد بان من هذه الدراسة . ما يمتاز به النظم القرآني الذي يعد أروع مثال وأبرع نمط تمثلت فيه أرقى خصائص البيان العربي الذي جاء الكتاب الكريم في أروع صورة منه . مصداقاً لقول الله عز وجل : « بلسان عربي مبين » .

• • •

وإذا كنا قد خصصنا سورة الرعد بهذه الدراسة المفصلة التي بذلنا فيها بتوفيق الله ما وسعنا من الجهد .

فإن في كتاب الله تعالى من عجائب الأسرار ما لا يستطيع بشر إدراك كنهها واستقصاءها . . . وإذا كنا قد فعلنا ذلك وآثرنا سورة الرعد بهذه الدراسة المتأنية ، فلقد كان ذلك مثالا لروائع نظم القرآن في كافة آياته وسوره .

ومن رأينا أن الكتاب الكريم متساو في هذه الروعة ، فكله أمثلة للحسن ومعرض للجمال ، ورعاية للتصوير التام للبلاغة العربية ، وهي مطابقة الكلام

لمقتضيات الأحوال . ولا نرى ما يراه بعض العلماء الذين يقولون : إن هناك تفاوتاً في النظم القرآني ، وأن بعضه يفضل بعضاً في الفصاحة . أى أن بعضه أفصح من بعض .

فقد ذهب إلى القول بمثل هذا جماعة من العلماء . منهم « الخطابي » في رسالته (بيان إعجاز القرآن) الذي يرى أن مراتب الكلام ودرجاته في البلاغة ثلاث : الأولى أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والثانية أوسطه وأقصده والثالثة أدناه وأقربه ... وقد حازت بلاغة القرآن من كل قسم حصّة ، وأخذت من كل نوع شعبة .. فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعدوبة « (١) » .

وكلام الخطابي هنا يدعو إلى النظر والتثبت ، إذ يوهم بالتفاضل على حد قوله : « فأخذت بلاغة القرآن من كل قسم حصّة ، ومن كل نوع شعبة » ويفهم من كلامه هذا ، أن بعضاً من القرآن الكريم في الدرجة العليا من البلاغة وبعضاً منه في الدرجة الوسطى ، وأن منه ما هو دون هاتين الدرجتين .

والذي نراه : أن بلاغة القرآن في الدرجة العليا ، ولا امتزاج في آياته وكافة سوره بشيء من هذه الأوصاف التي قررناها دون شيء ، ولو استقر رأي الخطابي على أن القرآن إنما هو في الدرجة العليا من البلاغة لما حصل فيما قاله ما يوهم بالتفاوت ، ألم يقل بما ذهب إليه الرماني في رسالته « النكت » بأن درجات البلاغة ثلاث : منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . فما كان منها في أعلى طبقة فهو «عجز» ، وهو القرآن !

• • •

ومن قال بالتفاضل في بلاغة القرآن وفصاحته « ابن سنان الحفاجي » إذ يقول : « إن زيادة بعض القرآن على بعض في الفصاحة أمر ظاهر لا يخفى

(١) انظر بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٣ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام مطبعة دار المعارف .

على من علق بطرف من هذه الصناعة ، وشدا شيئاً يسيراً . وما زال الناس يرددون مواضع من القرآن يعجبون منها في البلاغة ، وحسن التأليف كقوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك... » الآية . وقوله : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن... » الآية . وقوله تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » وقوله عز وجل : « ولوترى إذ فرعوا فلا فوت... » الآية ، وقوله تعالى : « ولكم في القصص حياة يا أولى الأبصار » وأمثال هذا ونظائره كثيرة . فلو كانوا يذهبون إلى تساويه في الفصاحة لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دون غيرها معنى « (١) » .

عجيب أمر الخفاجي في هذا الاستدلال ! إذ كيف يسلم أحد بتفاوت القرآن الكريم في الفصاحة لمجرد أن السابقين استدلوا على ذلك بهذه الآيات ونظائرها وخصوصاً دون غيرها بالمزية ؟ هل كان في وسع الخفاجي الإحاطة بكل ما أثر عن السابقين من شواهد في دراساتهم القرآنية حتى يسوق هذا شاهداً على ما ذهب إليه .

إن الاستدلال على فصاحة القرآن كله ، وتساويه فيها قار في ثانيا مؤلفاتهم ، مستشعدين بهذه الآيات وغيرها من آي الذكر الحكيم ، ثم إن ما ذهب إليه في هذا الاستدلال صريح باختلاف الآية القرآنية بل الآيات مبنى ومعنى وحكماً . كيف ذلك والله جل ثناؤه يقول : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ؟

وإذ يفرد الدارسون آيات معدودات من القرآن الكريم مأخوذين ببلاغتها ، ومسحورين ببديع تأليفها ، فليس معنى هذا الإعجاب أن غير هذه الآيات لم يقع من نفوسهم هذا الموقع ، أو لم يجدوا فيه قوة الإعجاز التي وجدوها فيما مثلوا به .

(١) راجع سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٢١٥ ، ٢١٦ شرح وتصحيح عبد المتعال الصمدي مطبعة صبيح ١٣٨٩ هـ .

ولكن الحقيقة أن ما أفردوه بالاستشهاد إنما كان نماذج لغيره من آيات الكتاب الكريم المتساوية في الروعة والجمال .

والمألوف المعهود عند كل باحث ودارس أن يجتزئ بمثل هذه النماذج ليدل بالقليل على الكثير ، إذ أن باحثاً ما لا يمكن أن يحصى كل ما يريد ، لأنه هنا وفي القرآن بالذات سيضطر إلى أن يكرر ويعيد ، لأن الحكم واحد في جميع الأحوال والاستشهاد لا يقتضى الخصوصية ، وذلك مألوف في كل علم وفي كل فن .

* * *

ثم إن الاستشهاد يختلف باختلاف المستشدين أو المحتجين ، وباختلاف الموضوعات التي يستشهد عليها بآيات القرآن ، فإن آيات الاستشهاد مفرقة في أنحاء المعرفة وآثارها فهناك آيات استشهد بها في المسائل الفقهية ، واستخراج الأحكام ، وآيات استشهد بها على سلامة اللغة وصحة دلالتها ، وهناك آيات استشهد بها على بلاغة القول ، وفصاحة البيان ، وهناك آيات استشهد بها على صحيح الأخبار وهكذا تتعدد الشواهد ، وتكثر الآيات التي يتأكد بها كل غرض من الأغراض التي وفاها الكتاب الكريم حقها.

* * *

وفي العلماء من أشار إلى هذه المسألة ، وكان رأيه مثل ما رأينا في عموم بلاغة القرآن وفصاحته ، منهم « الباقلاني » الذي يقول :

« وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد في حسن النظم ؛ وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا . »

وإذا أردنا أن نطبق تلك المزية التي بينها الباقلاني — على عدد من الآيات لوجدنا كل آية بعينها تصلح لأن تكون شاهداً على ما ذكره من سمات حسن النظم والتساوي في براعة التأليف ، ولكن لذلك موضعه من هذه الدراسة ، فلنمض مع الباقلاني إذ يقول : « وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه

الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف . وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً بيناً ، ويختلف اختلافاً كبيراً ، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة ... « (١) » .

وما ذهب إليه الباقلاني وغيره صحيح لا يقبل الجدل ، وإن كان هنالك تفاوت أو اختلاف فليس محله النظم أو التعبير القرآني ، وإنما موطنه في الأغراض والمقاصد ، لأن هذه الأغراض ، وتلك المقاصد خضم زاهر في الكتاب الكريم الذي وصف أحوال النفس الإنسانية وبين نظام الحياة وقواعد الآداب والسلوك ، وأصول الإيمان بالله سبحانه ، وملائكته وكتبه ورسله ، وكرر أصناف الثواب وأنواع العقاب ، إلى غير ذلك من الأغراض المختلفة التي لا نحاول إحصاءها في هذا المجال وإنما نكتفي بالإشارة إلى بعضها وذلك اختلاف طبيعي كالاختلاف الذي يكون بين عمل أدبي في الحكمة ، وعمل أدبي آخر في الفخر أو الرثاء أو في الوصف . أو غير تلك الأغراض التي تعرض للأديب ، والله المثل الأعلى في كل شيء .

وفي جملة من فند رأى القائلين بالتفاصيل ورده « شمس الدين الحويبي » الذي نقل خلاصة رأيه « بدر الدين الزركشي » في كتابه « البرهان في علوم القرآن » وأورد ما قاله : من أن بعض العلماء جوز أن يقال : بعض كلام الله أبلغ من بعض . وذلك لقصور نظر من ذهب إلى مثل هذا ، وينبغي أن يعلم أن معنى قول القائل : هذا الكلام أبلغ من هذا الكلام . أن هذا في موضعه له حسن ولطف ، وذاك في موضعه له حسن ولطف ، وهذا الحسن في موضعه أكمل من ذاك في موضعه ، فإن من قال : إن « قل هو الله أحد » أبلغ من « تبت يدا أبي لهب » يجعل المقابلة بين ذكر الله ، وذكر أبي لهب وبين التوحيد ، والدعاء على الكافرين ، وذلك غير صحيح . بل ينبغي أن يقال : « تبت يدا أبي لهب » دعاء عليه بالخسران ، فهل توجد عبارة للدعاء بالخسران أحسن من هذه ؟ وكذلك في « قل هو الله أحد » لا توجد عبارة

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٧ ، ٣٨ ط الثالثة بتحقيق أحمد صقر .

تدل على الوحدانية أبلغ منها ، فالعالم إذا نظر إلى « تبت يدا أبي لهب وتب »
في باب الدعاء والخسران ، ونظر إلى : « قل هو الله أحد » في باب
التوحيد ، لا يمكنه أن يقول : أحدهما أبلغ من الآخر ، وهذا القيد يغفل
عند بعض من لا يكون عنده علم البيان « (١) » .

— ٢ —

وإذ قد اتضح لنا عموم بلاغة القرآن ، وأن لا تفاوت بين آية في درجة
البلاغة والفصاحة ، وبديع النظم والتأليف ، فما خصائص النظم في سورة
الرعد ؟ ذلك ما سنعرض له في هذا المقام .

لقد تكلمنا عن هيكل سورة الرعد ، وقلنا : إن هذه السورة كغيرها
من سور القرآن في بناء هيكلها فهو من افتتاح ، وموضوع ، وخاتمة ،
وإذا نظرنا في فاتحتها وجدنا أربعة أحرف : « الألف » و « اللام »
و « الميم » و « الراء » وقد مرت الإشارة إلى اجتهادات المجتهدين في تفسير
هذه الحروف .

والذي يلفت النظر هنا « تضمناها » إشارة انتباه السامع لما سيلقى إليه
ويمكن القول : بأن من خصائص نظم سورة الرعد ما تضمنته فاتحتها من إثارة
انتباه السامع ، وتهيئة ذهن القارئ ، وتحقيق التناسب بين هذه الحروف وبين
الكثير من آيات السورة ، وما اتسمت به من توازن في المخرج بين القرب
والبعد ، والتوسط .

أما عن خصائص النظم في موضوع هذه السورة فيحسن أن نرجى الحديث
عنه ، لاشتماله على الإطار والمضمون ، وهذا يتطلب شيئاً من البسط يحسن
الإتيان به بعد الحديث عن الخاتمة لصلتها بالفاتحة .

(١) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي الجزء الأول ص ٤٤٠ تحقيق محمد أبي الفضل
إبراهيم الطبعة الثانية مطبعة الحلبي ، والإيتقان للسيوطي ص ١٥٦ الجزء الثاني الطبعة الثانية ١٣٤٣ هـ
المطبعة الأزهرية .

إن من خصائص نظم القرآن الكريم مجيء خواتم سورة كفوائها بجماع الحسن ، لأن فاتحة السورة أول ما يقرع الأذن ، ويثير الانتباه وخاتمة السورة آخر ما يقرع السمع ويحسم الموقف .

ولذا جاءت خاتمة سورة الرعد متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقى معه تشوف إلى شيء سيذكر بعد ، ويمكن القول بأن من خصائص نظم الخاتمة هنا :

١ - تميزها بأسلوب الحوار كما في قوله : « ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم » .

٢ - التقابل العجيب بين انتصار فاتحة السورة لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبين دحض إنكار الكفار لها في الخاتمة .

٣ - الأسلوب المقنع من غير ما جدل أو مشاقة وذلك بين من خلال قول الله تعالى : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم » .

٤ - ذلك النغم الممتد في جرس آخر كلمة من هذه الخاتمة الرائعة والتي هي لفظة « الكتاب » من قوله تعالى : « ومن عنده علم الكتاب » وينشأ عن هذا تأثير روحي يبق النفس مرتبطة بهذا القرآن وبمن أنزله ، وبمن نزل عليه . ولنأخذ الآن في بيان خصائص النظم في العنصر الثالث لهيكل سورة الرعد وهو موضوعها .

إن اللبنة الأولى التي تكونت منها تلك السورة هي الحروف والألفاظ فالتركيب ، أو الآيات ، لأن ما نعنيه بالآية القرآنية من السورة هنا هو ما نعنيه بالجملة المركبة على وجه التقريب . إذا تقرر ذلك فلا بد من مراعاة عنصر آخر هام ذلك هو المعنى . فتكون جزئيات النظم في هذه السورة وغيرها من السور أربعة أشياء :

أولها : الحروف .

ثانيها : الألفاظ .

ثالثها : التركيب .

رابعها : المعاني .

ويتبع تلك الجزئيات نظام الفاصلة ، والتلازم بين أجزاء النظم فيها ، والأمثال ، والتشبيهات ، وأثر ذلك في تلاحم الأجزاء (١) .

• • •

والإطار العام لسورة الرعد ينتظم ثلاثاً وأربعين آية ، وقبل ينتظم خمساً وأربعين آية في ثمانمائة وخمس وخسين كلمة في ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف (٢) .

وليس لباحث مهما بلغ من قوة الاستنباط أن يدعى الإحاطة بخصائص النظم كلها في هذا الإطار ، ولا أن يحكم قائلاً : إن هذه هي خصائص النظم القرآني في تلك السورة ، أو غيرها من السور ، لأن كلام الله سبحانه لا يقف عند حد في بلاغته ، وفصاحته ، وإعجازه .

وحسبي أن أشير إلى تلك الخصائص قدر الطاقة ، وإن كان الحديث يغري بالإفاضة ، وما يستعذب التكرار في كلام كما يستعذب في كلام الله تعالى .

خصائص نظم الحروف والألفاظ

إذا أنت تلوت سورة الرعد كلها أو بعضها ، ألنيت لفيها من الحروف المتسمة باللين ، والتقارب في المخرج مما يشكل إيجاء صوتياً يبقى الجرس معه رتيباً لا يعمل ، ولست بواجد في نظم حروف هذه السورة — وكذلك غيرها من السور — حرفاً نائياً يكسد اللسان ، بل تلمس ظاهرة التناسب ، والمشاكلة بين الحروف جميعها في عموم الآيات .

أما ألفاظ تلك السورة الكريمة : فن خصائص نظمها التنويع في اللفظة المفردة من اسم إلى حرف إلى فعل ، ولكل موضعه وصلته بسابقه

(١) انظر الفصل الثاني من هذه الدراسة .

(٢) انظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ص ٦٠ الجزء الرابع عشر بهامش الجزء الرابع عشر من تفسير الطبري الطبعة الأولى مطبعة بولاق .

ولاحقه . اقرأ قوله تعالى : « ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . . . » وقوله تعالى : « هو الذى يرىكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقيل . . . » الآية .

فهناك مشهذان متشابهان من غير شك فكلاهما علويان ، والمقام واحد فى الجملة لاستدعائهما الإيمان بالله الواحد الأحد « ولكن الأسلوب والألفاظ فى الأول غير الأسلوب والألفاظ فى الثانى لا يستطيع أحد أن يزعم أنها ألفاظ متفقة أو متحدة مكررة » (١) .

ولعل من أبرز خصائص نظم الألفاظ فى سورة الرعد . استخدام الألفاظ الموحية المعبرة ذات التناسق العجيب ووضوح الدلالة على المعنى المراد كما مر معنا فى « أسر » « وجهر » ، ومستخف وسارب ، وسراً وعلانية ، ويذهب جفاء ، ويمكث فى الأرض .

وتخير الألفاظ ذات الإيحاء ، والتعبير بالصيغ الفعلية المختلفة من أبرز الخصائص فى تلك السورة . خذ مثلاً قوله تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » وقوله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » انظر كم صيغة للفعل المضارع فى الآية الأولى ، يقابلها عدد من صيغ الفعل الماضى فى الآية الثانية ، نظم وإبداع عجيب .

وإن لتوالى المد والغنة واختلاف الحركات والسكنات فى حروف الألفاظ لمزية فى نظم السورة مما يعطى كل لفظ هيئة تختص بها حروفها : فحرف ينقر وحرف يصفر وثالث يهمس وآخر ذو مد يحدث نغماً وترينماً . كما مر معنا فى لفظ السيئة والحسنة ، والناس ، والمثلثات والعقاب وغيرهن .

* * *

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه لمحمد الصادق عرجون ص ١٦٢ .

ومن أبرز خصائص النظم في سورة الرعد فيما يتعلق بتراكيبها تلك
الخصائص التالية :

- ١ - الترابط المحكم بين الآيات .
 - ٢ - التناسق البديع بين كل جملة وأختها .
 - ٣ - التلاؤم بين الآيات والجملة من حيث المعنى .
 - ٤ - تنوع آيات السورة ، واختلافها بين الطول والقصر .
- ويكفي أن نسوق شاهداً واحداً لإحدى هذه الخصائص ، إذ قد فصلنا
القول في نظم سورة الرعد في الفصلين السابقين .

فتلا عن الترابط المحكم بين الآيات نلاحظ تلك الخاصية في قوله تعالى :
« قل من رب السماوات والأرض ، قل الله ، قل أفألتخذتم من دونه أولياء
لا يمكنون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم
هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه
الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .

هذه الآية تربو جملها على إحدى عشرة جملة ، فلتبين وجوه الترابط
بين بعض هذه الجمل .

لما قال سبحانه : « قل من رب السماوات والأرض » تبين أن الجملة
هنا توحى بسؤال ولا بد له من جواب ، ولذا قال عقبها مباشرة « قل الله »
وفى هذا إفحام للخصم من أول وهلة لإقراره بأن رب السماوات والأرض هو
الله ، ولكن نكرانه محض سفه وعناد يستلزم تقريره بهذا الجواب المباشر ،
وأنه لا محل لجدل يسبق هذا الجواب .

وبعد جملة الجواب المفحم يجيء السياق بما ينكر على المشركين فعلتهم
حيث يقرون في بواطنهم بالوهمية الله لكنهم يشركون معه غيره . ولذا جاء
« الإنكار » بـ « قل أفألتخذتم من دونه أولياء » ولأمر ما جاءت لفظة أولياء منكراً
ففي ذلك تحقير لأولياء المشركين تحيىء الجمل بعده في سرد لصفات الأولياء ،

وأنها جمادات لا تنفع ولا تضر بل لا تنفع نفسها ولا ترد الضر عنها ، نعم
« لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا » .

ويبين السياق على جل الآية بهذه الخاتمة المهيمنة « قل الله خالق كل
شئ وهو الواحد القهار » .

وأما عن خاصية التلازم في التركيب فقد سبق أن أشرنا إليه بشئ من
التفصيل ، ولعل في ذكره هناك ما يغني عن تكراره .

وعن تنوع آيات السورة بين الطول والقصر ، فتلك ظاهرة تتميز بها
كافة سور القرآن الكريم على حسب المعنى الذي تتحدث عنه السورة
وتسوق الآية ، ولعل من أقصر آيات سورة الرعد قول الله تعالى : « عالم
الغيب والشهادة الكبير المتعال » وقوله سبحانه « سلام عليكم بما صبرتم فنعم
عقبى الدار » ومن طوّلها قوله تعالى : « قل من رب السماوات والأرض قل
الله ، قل أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قل
هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا الله
شركاء خلقوا كخلقهم فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شئ وهو
الواحد القهار » . وقوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية
بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية
أو متاع زبد مثله : كذلك يضرب الله الحق والباطل » « فأما الزبد فيذهب جفاء ،
وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الأمثال » إلى غير ذلك
من الآيات الأخرى في السورة الكريمة اللواتي على غرار ما مر ذكره
طولا وقصراً .

— ٣ —

ومن خلال تلك الألفاظ والتراكيب التي تحدثنا عن بعض خصائص
نظمها ، ومن خلال كافة ألفاظ السورة وتراكيبها ، نلمح المعاني البديعة
الشريفة التي ليس فيها معنى غريب ، وإنما هي واضحة وضوح موضوعها
الذي تهدف إليه وهو غرس عقيدة التوحيد .

وهذه المعاني جاءت متناسقة مرصوفة رصف الألفاظ والتركيب وتجلت في أجمل معرض وأحلى بيان وشاهد ذلك قول الله تعالى :
« الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ، ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب النهار » .

المعنى في الآيات الثلاث عن مدى إحاطة علم الله بما يجري في هذا الكون الفسيح ظاهراً كان أم خفياً ، وقد جاءت معاني الآيات متناسقة يأخذ كل معنى بحجز الآخر بين الإجمال والتفصيل . نلمس ذلك من خلال قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى » فهنا معنى مجمل يأتي بعده معنى مفصل من خلال قول الله بعده « وما تغيض الأرحام وما تزداد » ثم يأتي بعد ذلك معنى مجمل عن عظيم قدرة الله ، وواسع علمه المحيط بكل شيء . فيقول جل ثناؤه : « وكل شيء عنده بمقدار » .

ثم هذا الشيء ماكنه حقيقته ، وما مدى ظهوره بين الناس ؟ إنه بين خفي مستور ، وظاهر مشاهد ، وعلم الله محيط به في الحالين . فهو سبحانه لا غيره « عالم الغيب والشهادة » .

ثم لما فصلت الآيات وأجملت تلك المعاني ، زادت هذا الإجمال وهذا التفصيل وضوحاً فقال سبحانه : سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » .

ومثل تلك الآيات من القرآن كثير من ذلك قوله تعالى في سورة أخرى :
« وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » وقوله تعالى : « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » .

وتلك آية من السورة الكريمة تتضمن معنى الوعد والوعيد على حد قوله تعالى : « ويستعجلونك بالسينة قبل الحسنة . وقد خلت من قبلهم المثلثات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب » .

انظر كيف تتلاحم المعاني ، وتتصل على الرغم من طول سياق الآية فبعد أن قال سبحانه : « ويستعجلونك بالسبئية قبل الحسنة » جاء الوعيد بقوله : « وقد خلعت من قبلهم المثلاث » ، وعند ذكر الحسنة يأتي قوله : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » . وفي معرض ذكر السبئية يأتي قوله : « وإن ربك لشديد العقاب » تقابل بديع في المبنى والمعنى .

ونظير تلك المعاني في النسيج والإبداع قول الله تعالى في سورة أخرى : « نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » وقوله تعالى : « ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون » إلى غير ذلك من الآيات الأخرى في سور أخرى .

• • •

خصائص نظم الفواصل القرآنية في السورة

مر معنا في مبحث الفاصلة القرآنية في سورة الرعد إحصاء للحروف التي بنيت عليها فواصلها ومن خلال هذا الإحصاء يمكن أن نجمل خصائص نظم الفواصل فيما يلي :

١ - التباين والتنوع في مبنى الفاصلة كما مر معنا في فاصلة . يتفكرون - يعقلون - خالدون . وبعد هذا النسق تأتي فاصلة مبنية على حرف آخر كما ذكرنا في فاصلة : العقاب - هاد - الكتاب - مآب - وغير ذلك كثير في فواصل السورة .

وفي هذا التنوع تمكين من الترنيم الذي يعين القارئ ، ويشوق السامع ، ويدفع عنهما السأم والملل ، الذي قد تؤدي إليه الرتابة الملزمة ، ولذا جاءت فواصل السورة الكريمة ، وغيرها مما يشبهها من السور على أعذب المقاطع ، وأسهل المواقف .

٢ - ومن خصائص نظم الفواصل في هذه السورة حذف حرف أصلى من آخر بعض الكلمات ، كما مر معنا في هاد - ووال - وواق - فإن الأصل - هادى - ووالى - وواقى .

• • •

٣ - واختلاف مبنى الفاصلتين في موضعين ، والمحدث عنه واحد لنكتة لطيفة من سمات خصائص النظم في فاصلة سورة الرعد من ذلك قول الله تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

فالمحدث عنه المؤمنون وما هم عليه من ثبات واطمئنان في الحياة الدنيا ، وما أعد لهم في الآخرة من جزاء . وقد بنيت الفاصلة الأولى على حرف الواو يعقبها حرف الباء الساكن للوقف . وبنيت الفاصلة الثانية على حرف الألف وبعدها حرف الباء الساكن للوقف أيضاً ، لكن الجرس الصوتي في الأولى مديد في انقطاع سريع ، وفي الثانية مديد من غير ما انقطاع ، وفي ذلك تعبير عن نعيم الدنيا وأن مآله الانقطاع والانهاء ، وتعبير عن نعيم الآخرة الذي لا ينقطع ولا يزول .

• • •

خصائص نظم الأمثال والتشبيهات في السورة

وقد حفلت سورة الرعد بطائفة من الأمثال والتشبيهات الرائعة التي كان من أبرز خصائص نظمها : اشتغالها على عناصر قوية من ظواهر الكون والحياة مما يمكن لها البقاء والاستمرار مع تماسك التصوير في إطار التشبيه والمثل .

ولظاهرة تخير الألفاظ لتأليف هذين اللونين سمة بارزة مما جعلهما محدثان التأثير في العواطف ، ترغيباً وترهيباً .

ولجريان الأمثال والتشبيهات في السورة على طرف من الإيجاز والإطناب خاصية في النظم على حسب استدعاء المقام ، وشاهد ذلك قول الله تعالى : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى السماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » . وفي الآية هنا تشبيه تمثيلي انتزع وجه الشبه فيه من المتعدد ، وطال إطاراه لأجل اكتمال الصورة ووفائها بالمعنى ، لكن اقرأ قوله تعالى : « خاققوا كجفله » .

ففي الآية تشبيه سبق لمجرد المماثلة وكفى في إطاره ثلاثة ألفاظ هي الفعل « خلق » ،
والاسم « مخلق » وكاف التشبيه .

أما عن الأمثال فالإيجاز ظاهر في قوله تعالى : « مثل الجنة التي وعد
المثقون . . . » الآية ، والإطناب ظاهر في قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء
فسالت أودية بقدرها . . . » الآية .

• • •

هذه بعض خصائص النظم القرآني في سورة الرعد ، وما فات على
المحصل أكثر ويمكن تلخيص هذه الخصائص فيما يلي :

- ١ - تحقيق التناسب بين افتتاح السورة وبين أكثر آياتها .
- ٢ - التوازن في مخارج الحروف بين القرب والبعد والتوسط .
- ٣ - أسلوب الحوار في أكثر آيات السورة ، واعتماد الخاتمة عليه .
- ٤ - التناسب في المعنى بين الافتتاح والخاتمة .
- ٥ - التغاير في الألفاظ والتراكيب .
- ٦ - استخدام الألفاظ المعبرة الموحية ذات التناسق العجيب بين
المدلول والمعنى .
- ٧ - التكرار المفيد والتناسق بين الألفاظ .
- ٨ - ظاهرة التقديم والتأخير والحذف وفقاً لمقتضيات المعاني .
- ٩ - الدقة في اختيار الألفاظ ، والتعبير بالصيغ الفعلية المختلفة .
- ١٠ - التناسب الصوتي في مقاطع الألفاظ والتراكيب .
- ١١ - الترابط المحكم بين الآيات والجمل في داخلها .
- ١٢ - التناسق البديع بين كل جملة وأخرى .
- ١٣ - ظاهرة التلازم في الألفاظ والمعاني وفي جو السورة العام .
- ١٤ - تنوع الآيات ، واختلاف إطارها بين الطول والقصر .

- ١٥ - وضوح المعاني ، وتناسقها بين الإجمال والتفصيل .
- ١٦ - تلاحم المعاني مع طول السياق وقصره .
- ١٧ - كثرة المقابلات الفنية بين الألفاظ والمعاني .
- ١٨ - التنويع في مبنى الفاصلة القرآنية في السورة .
- ١٩ - حذف أو اواخر الكلمات في مقاطع بعض الفواصل .
- ٢٠ - اختلاف مبنى الفاصلتين في موضعين والمحدث عنه واحد .
- ٢١ - رتابة الجرس الصوتي في غالب الفواصل .
- ٢٢ - اشتغال السورة على الكثير من الأمثال ، والتشبيهات وأثر ذلك في تلاحم أجزائها .
- ٢٣ - أسلوب الإيجاز والإطناب على حسب ما يستدعي المقام .
- ٢٤ - دقة التصوير في أسلوب الحقيقة والمجاز .
- ٢٥ - تنوع الأسلوب في أداء المعاني مرة بطريق الاستعارة ومرة بطريق التشبيه ، أى مرة بالحقيقة وأخرى بالمجاز .

• • •

وتلك الخصائص لا تنفرد بها سورة الرعد على غيرها من السور فإن القرآن الكريم معين لا ينضب ، وما يجده الباحث في سورة ما يجد مثله باحث آخر في سورة أخرى ، وفوق تلك الخصائص خصائص أخرى من بديع النظم القرآني في كافة سائر السور ، وهذا ما سنعرض له في الصفحات التالية من هذا المبحث .

• • •

خصائص النظم القرآني بين سورة الرعد ، وغيرها من السور

لقد سبقت الإشارة في أول هذا الفصل إلى خصائص النظم في سورة الرعد ، وفي هذا المبحث سنتعرض لخصائص النظم بين تلك السورة وغيرها من سور القرآن ، لا على سبيل موازنة أو مفاضلة ، فثل هذا الصنيع مما لا يجدى الباحث ، فالقرآن كله آية في السمو ، والإبداع في النظم ، وقد أشرنا إلى أقوال بعض القائلين بالتفاوت في بلاغة القرآن وفصاحته وبيننا فساد ما ذهبوا إليه .

فلنبحث الآن في خصائص نظم القرآن الكريم مشيرين إلى الأوجه التي تتقارب في النظم بين سورة الرعد ، وغيرها من الآيات في سور أخرى من حيث الإطار والمضمون على سبيل المثال لا الحصر .

• • •

أما موضوع سورة الرعد ، والإطار الذي ينتظم هذا الموضوع فكثيرة تلك السور القرآنية التي تشبهها في ذلك . فهذه سورة فاطر مثلا عدد آياتها خمس وأربعون آية ، ومن موضوعاتها إثبات عقيدة التوحيد وإقامة الأدلة على وحدانية الله سبحانه وعظيم قدرته ، والدعوة إلى عبادة الله ، والإيمان برسالة محمد ، يتضح ذلك من خلال الكثير من آياتها التي منها قول الله تعالى :

« يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون » « في الآية هنا دعوة إلى الإيمان بالوهمية الله في أسمى معاني الدعوة الخالصة ، ويأتي عقب هذه الآية قول الله تعالى : « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور » « تدعو الآية هنا إلى إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتهدة نفسه بأنه

(•) سورة فاطر الآية ٣

(•) سورة فاطر الآية ٤

سبق في الأعم قبل أمته من كذب الرسل ، فلا تذهب نفسك حشرات على من كذب ولم يؤمن . ويقارب تلك الآية في الإطار والمضمون قول الله تعالى في سورة الرعد : « ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب » .

وقد تطول بعض السور التي تشبه سورة الرعد في الموضوع ويقصر البعض الآخر . فما طال في السياق مثلاً سورة يوسف إذ آياتها إحدى عشرة آية ومائة « ١١١ » ومما عالج موضوع العقيدة مع القصر في السياق غالب سور الفصل من ذلك « سورة الكوثر » و « الإخلاص » فمجموع آياتها أربع آيات فقط ، والكوثر ثلاث ، والسور التي تتراوح بين الطول والقصر كسورة الرعد كثيرة ، من ذلك أيضاً سورة الكهف ومريم وإبراهيم ، وغيرهن .

وسبق أن أشرنا إلى سمات الحروف في ألفاظ سورة الرعد من حيث المخارج ، والأصوات ، ونظير خصائص نظم هذه الحروف آيات كثيرة تتسم حروف ألفاظها بالهمس والجر والترقيق والتفخيم ، إليك قول الله تعالى في سورة « الفجر » : « يا أيها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

تأمل ما ضمته تلك الآية من الحروف ، وما تميزت به من صفات المد والتفخيم والترقيق ، والغنات والحركات والسكنات فهناك من المد « يا - ها - جعي - إلى - را - خلى - في - عبا - دى - خلى - تي - » ومن التفخيم تلك الحروف المشددة « أيها - النفس - المطمئنة - ربك - راضية مرضية - وكذلك ما ضمته من حركات الكسر مما يشكل نغماً مديد الصوت كالكسر في العين من إرجعي واللام في أدخلي - والdal في عبادي - والتاء في جنتي « (١) .

ومما نلاحظه في نظم القرآن الكريم ظاهرة أسلوب الحوار ، مما يساعد

(١) التعبير الفني في القرآن للدكتور بكرى الشيخ أمين ص ١٨١ مطبعة دار الشروق
الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ .

على نشاط السامع والقارئ ، ولفت نظرهما إلى مايتلى ، فمن سورة الرعد اقرأ قوله تعالى : « قل من رب السماوات والأرض قل الله » وقرأ أيضاً خاتمتها تحس بما للأسلوب الحوارى من روعة فى الأداء وجودة النظم ، وأضف إلى ذلك قول الله تعالى منها : « وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً ، ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية ، قل دل يستوى الأعمى والبصير ، قل الله خالق كل شئ » .

ولكن هل هذه الخصوصية لا توجد إلا فى سورة الرعد ؟ ، لا ، فليس الأمر كذلك ، وإنما هناك سور كثيرة نهجت هذا النهج فى التعبير . إليك قول الله تعالى فى سورة الكهف : « وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً » . ومن الأسلوب الحوارى فى هذه السورة قوله تعالى : « وإذ قال موسى لفتهاه لا أبرح . . . فلما جاوزا قال لفتهاه آتنا غداءنا . . . فوجد عبداً من عبادنا . . . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معى صبراً » .

ويمضى السياق فى هذا الحوار الحركى المتكرر حتى قوله تعالى : « قال ستجدنى إن شاء الله صابراً . . . قال فإن اتبعتنى . . . قال ألم أقل ؟ .. » قال لا تؤاخذنى » ومن بين الأمثلة البديعة لهذه الخاصية ، ذلك الأسلوب الحوارى فى سورة سبأ ، عن حال المستكبرين ، والمستضعفين ، بياناً أن الله تعالى لم يرض فى سننه لأحد من عباده بذل الاستضعاف ، ومهانة الاستسلام للباطل وأهله مهما علوا واستكبروا فى الأرض . . . يقول تعالى : « ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . . . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم

مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً . . . » .

هذه المحاورات تختلف اختلافاً يدفع عنها سمة التكرار ، ويتشاجع فيها المستضعفون فيلقون بالالوم والمسئولية في وجه المستكبرين فيقول جل ثناؤه في سورة الأحزاب : « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » . إنه أسلوب حوارى بديع تستشف من خلاله روائع النظم المحكم بين الألفاظ والمعاني السامية التي أراد الله فيها أن لا يذل المستضعفون ، ولا أن يطغى ويتجبر المستكبرون (١) .

وإذا أنعمت النظر في الأساليب القرآنية من حيث النظم وجدت التغاير في الألفاظ مع اتحاد المعنى . من ذلك قول الله تعالى : « ولكل أمة رسول » فإن لفظة « رسول » هنا بمعنى هاد مرسل من عند الله لدلالته الناس إلى ما ينفعهم في أولاهم وأخراهم ، والحيلولة دون ما يضرهم مما نهى الله عنه . ومثل تلك اللفظة تأتي مغايرة لهذه ، من ذلك قوله تعالى في سورة الرعد : « ولكل قوم هاد » - أي رسول .

وعند الكلام مثلاً على شأن السماوات والأرض تقول الآيات من سورة الرعد : « الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها . . . » الآية ، وقوله تعالى : « وهو الذي مد الأرض . . . » الآية .

ويقول جل ثناؤه في سورة « ق » أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها إلى قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي » فالمعنى متحد في الآيات جميعها ، لكن الألفاظ متغايرة متنوعة ، فقد جاء التعبير في سورة الرعد برفع ، ومد ، وفي سورة « ق » بنينا - وزينا - ومددنا .

وعن شأن الجبال أتى التعبير « بجعل » في سورة الرعد ، وبألقينا في

(١) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن لحمد الصادق عرجون ص ٤٦ ، ٤٧ الطبعة الأولى
الدار السعودية للنشر - جدة .

سورة « ق » وهذا ليس للتصرف في فنون القول فحسب بل تصرف في المعاني على حسب قوالب الألفاظ حتى لا تشذ لفظة عن معناها ، ولا ينبو معنى عن لفظه .

والتغاير في مبنى الفواصل من خواص نظم القرآن الكريم ، وتأتي هذه الظاهرة تنشيطاً للسامع والقارئ ، وللملاءمة والاتساق ، ومراعاة المعنى ، فليس لمجرد الحلية اللفظية ، وتحقق تلك الظاهرة في كثير من السور .

إليك قوله تعالى في سورة مريم : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً . قال رب إني وهن العظم فني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً » إلى قول الله تعالى : « قال كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » .

ويستمر هذا السياق على حرف واحد هو الألف إلى نهاية قوله تعالى : « وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حياً » .

ثم تبدأ قصة مريم وعيسى عليه السلام على نفس النسق المنتهى بفاصلة الألف فيقول تعالى : « واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً » إلى قوله سبحانه في شأن ابن مريم : « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » .

وفجأة يتغير مبنى الفاصلة فيأتي على نظام حرف آخر هو النون كما في قوله تعالى : « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمتنون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » إلى قوله تعالى : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » .

وعندما نقف على نهاية كل فقرة من هذه الفقرات المشتركة في حرف الفاصلة نجد أن الفقرة وحدة مستقلة من حيث المعنى ، فحرف الفاصلة قد روعي فيه المعنى والغرض .

ففي القصتين كان حرف الفاصلة الألف وقبلها ياء مشددة أو حرف آخر وعندما انتهى سرد حوادث القصة ، وأريد تقرير الحكم والتعليق عليه ،

اختلف الحرف تبعاً لاختلاف الموضوع ، لأن لهجة الحكم تقتضى أسلوباً
ذا نغم رخيم غير نغم وأسلوب الاستعراض ، وتقتضى إيماء صوتياً قوياً رصيناً
بدل الصوت الرخى المسترسل الذى تنهجه القصة .

وتنوع حرف الفاصلة ليس للاستمرار فى شكل التغير ، وتنغم الصوت
وإنما هو فوق تلك السمات لخدمة المعنى وتقريره ، كما أوضح لنا فى سياق
الآيات السالفة الذكر .

وبمجرد الانتهاء من إصدار الحكم ، وإلقاء ذلك القرار عاد نظام
الفاصلة فى هذه السورة إلى طريقتة الأولى ، التى هى بناء الفاصلة على حرف
الألف ، لأن السياق عاد إلى قصص جديد على حد قوله تعالى : « واذكر
فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيّاً ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد
ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً » إلى قوله تعالى « لا تعبد
الشیطان إن الشيطان كان للرحمن عصباً » .

وشبيه بنظام هذه الفاصلة فى سورة مريم ، نظام الفاصلة فى سورة الرعد .
فهناك حرف الألف فى أواخر كثير من الآيات ، وفجأة يتغير نظام
الفاصلة فتبنى على حرف الباء كما قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .
ثم يعود السياق إلى الألف وبعدها حرف آخر وهكذا حتى نهاية السورة .

ومن عجيب نظم الفواصل « مناسبتها لآياتها ، يدرك ذلك كل من يملك أدنى
ذوق باللغة ، فقد روى ما يؤكد تلك الخاصية فى نظم القرآن ويثبتها فإن أعرابياً
سمع قارئاً يتلو قول الله تعالى : « فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا
أن الله غفور رحيم » ولم يكن الأعرابى يقرأ القرآن ، فقال : إن هذا
ليس بكلام الله لأن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه (١)
وسمع آخر يقرأ قول الله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما . . . »

(١) مترك القرآن للسيوطى ص ٣٨ نقلاً عن رسالة فى الإعجاز للدكتور مصطفى مسلم
ص ١٣٦ وما بعدها .

وختم الآية بـ « والله غفور رحيم » . فاعترض الأعرابي وقال : ما هذا بقرآن فانتبه القارئ فقرأ : « جزاء بما كسبنا نكالاً من الله والله عزيز حكيم » فقال : أما هذا فنعم ، عز ، فحكم ، فقطع ، وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق الشعبي عن زيد بن ثابت قال :

« أملئ على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية » . « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . . . » إلى قوله : « خالقاً آخر » . قال معاذ بن جبل « فتبارك الله أحسن الخالقين » فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال معاذ : ضحكت يا رسول الله . قال صلى الله عليه وسلم « بها ختمت » .

فانظر إلى قوة الإحكام في صياغة الآيات ، وكيف تستحوذ على العقول وتحرك الشاعر ، وتشجذ الأذواق ، حتى يدرك السامع بفطرته السليمة ختام الآية وأن من يخالفها في النسخ والصياغة ليس بقرآن .

ومن بدیع نظم الفواصل ، اختلاف الفاصلتين في موضعين والمحدث عنه واحد لنكتة لطيفة ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذه الظاهرة وسقنا الأمثلة عليها من سورة الرعد وغيرها من السور ، والذي يعيننا في هذا المقام وهو ما يأتي على العكس من ذلك . « أى اتفاق الفاصلتين والمحدث عنه مختلف كقوله تعالى في سورة النور : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم . . . » إلى قوله سبحانه « كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » .

ثم قال : « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم » . فقد اتفق مبنى الفاصلتين في لفظة « حكيم » من الآيتين السابقتين « (١) » .

(١) انظر الإتيان للسيوطي الجزء الثاني ص ١٠٣ الطبعة الثانية ٣٤٣ المطبعة الأزهرية بمصر.

ومما يستوقف الناظر في صياغة الآيتين هنا : أن جاء لفظ الآيات معرفاً في الأولى « بآل » وفي الثانية بضمير الغائب من قوله تعالى : « يبين لكم آياته » وهذا من التنويع في الصياغة ، ولعل مما دعا إليه قرب السياق بين الآيتين إذ لو جاءت لفظة « الآيات » معرفة بآل في الآيتين لحدث ما يذهب بروق التعبير . فتعالى الله الحكيم العليم .

• • •

ومن بدائع نظم القرآن الكريم ظاهرة التكرار الذي يجعله البلاغيون من أقسام الإطناب . الذي هو من محاسن الفصاحة خلافاً لبعض من غاظ وله فوائد كثيرة ، منها التقرير فقد قيل : « الكلام إذا تكرر تقرر » وقد نبه الله تعالى على السبب الذي لأجله كرر القصص ، والإنذار في القرآن ، إذ يقول تبارك اسمه : « وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً » .

وفي معرض سياق نعم الله وتسخيرها لعباده ، وتفضله بها عليهم أقرأ قوله تعالى : « الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء . وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » .

« وقف قليلاً عند التعبير بكلمة « لكم » لقد ذكرت مرتين .. »

« جعل لكم الأرض فراشاً .. » « أنزل لكم من السماء ماء ... » .

ذلك لتكون أبلغ في التذكير بنعم الله الظاهرة في خلق السماء والأرض .. وعلى هذا النسق قوله تعالى في سورة النحل « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ... » « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها ... » وقوله : « والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ... » الآيات ، والكلام من حيث الصحة يستقيم أمره مع حذف المكرر من هذه الجملة « جعل لكم » والاكتفاء بحرف العطف الذي يدل عليها .. ولكن بديع نظم

القرآن لا يقف عند مجرد أن يكون الكلام صحيحاً من الناحية التركيبية ، وإنما يترقى في الإعجاز بمراعاة هذه اللفظات التي لا يتيسر لصناع الكلام أن يوفقوا إليها بهذه الدقة البالغة (١) .

ومن فوائد التأكيد ، وزيادة التنبيه على ما ينشئ المهمة ليكمل تلقى الكلام بالقبول ، من ذلك قوله تعالى في سورة غافر : « وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع » .

فقد كرر في الآية لفظة « النداء » ولفظة « قوم » وفي ذلك تقرير للمعنى وتأكيد وتطرية لنشاط السامع .

ومن ذلك قوله تعالى : « ثم إن ربك لعلل الذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحو إن ربك من بعدها » الآية (٢) . فقد كرر لفظ « ثم » ولفظ « ربك » وليس في هذا التكرار ما يعيب الأسلوب ، أو يخلش المعنى .

بل هناك سور كرر غالب إطارها أو كله ، من ذلك سورة الرحمن « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وسورة المرسلات « ويل يومئذ للمكذبين » والحاقة ما الحاقة » والقارعة ما القارعة » . وخاصة التكرار لنحفظها في ثانيا سورة الرعد من قوله تعالى : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر » « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء » « الذين آمنوا وتطئن قلوبهم بذكر الله » « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم . . . » الآية ..

ولتخير الحروف على غيرها - فضلا عن تخير الألفاظ - مزية في النظم عجيبة ، من ذلك تخير حرف الجر « في » على غيره في سورة النساء ، وتخير حرف الجر « من » على غيره في نفس السورة ، والموضوع متشابه .

(١) انظر من بدائع النظم القرآنى للدكتور السيد عبد الفتاح صجاب ص ١٣٥ مطبعة الجندي .

(٢) الإتيان للسيوطى الجزء الثانى ص ٦٦ ، ص ٦٧ الطبعة الثانية ١٣٤٣ - المطبعة الأزهرية

فالأول قول الله تعالى : « ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ، وارزقوهم فيها » .

والثاني قوله تعالى : « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه » .

وسر الاختيار الدال على بديع النظم « أن كلا من هذين الحرفين قد دل دلالة تخالف ما يدل عليه الآخر ، ففي الآية الأولى المال لليتامى الذين لم يبلغوا الحلم ، وإنما أضيف إلى المخاطبين في قوله « أموالكم » ليلفت أنظارهم إلى العناية بهذا المال كما يعتنى الموصى بماله الخاص وهذا من دقة لفت النظر في الأسلوب القرآنى — ولا يجوز دفع المال إلى اليتيم الذى لم يبلغ الرشد حتى يختبره الموصى بإسناد بعض الأموال التجارية إليه ، وغيرها فإن ظهر له حسن تصرف فى المال دفعه إليه دون تباطؤ ، وهذا ما أشارت إليه الآية التالية : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا » (٥) .

ولكن أثناء الوصاية على المال ، وقبل بلوغ النكاح من أين يأكل اليتيم ؟ وما مصدر نفقاته ؟ — هنا بيت القصيد — إذ يبرز للتأمل سر التعبير — « ارزقوهم فيها » ، ويستنبط العلماء من هذا التعبير أن الموصى ، عليه أن يشغل هذا المال فيما يترجح ربحه ، ونفعه ، ويطعم ويكسو اليتيم من الربح لا من رأس المال ، لأن ذلك يكون عرضة للزوال بالإتيان على الأصل ، ولهذا السر اختيار التعبير « بنى » دون « من » .

* * *

أما الآية الثانية فالمال لورثة الميت ، وقد حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، واستشرفت نفوسهم وتطلعت إلى هذا المال الذى كان بين ظهرانيهم وهم يعلمون أنه لا استحقاق لهم فيه بغرض مقدر .

(٥) سورة النساء الآية ٦ .

ولقطع هذا التطلع ، ولأن تطيب القلوب أمر الله سبحانه بأن يرزق هؤلاء من هذا المال على سبيل البر والسخاء ، وكان التعبير الذي يؤدي هذا الغرض هو قوله : « فارزقوهم » منه لا فارزقوهم « فيه » وهكذا يبرز لاختيار الحروف ما يبرز لاختيار الألفاظ من روعة في النظم والتأليف (١) .

وللترابط المحكم بين الآيات والجمل روعة في إحكام النظم ، فإن ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام ببعضه ببعض أو لعدم تمام الأولى إلا بالثانية ، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان .

ولما أن يظهر الارتباط ، بل يسبق إلى الذهن أن كل جملة مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلاف النوع المبدوء به ، ومن هنا إما أن تكون الثانية معطوفة على الأولى وفائدة ذلك العطف « جعلهما كالنظيرين والشريكين (٢) » على نحو ما درسه علماء البلاغة وضربوا له الأمثلة الكثيرة .

لكن الذي يلفت النظر أن الجملة تكون معطوفة على ما قبلها فيشكل وجه الارتباط من ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » إلى أن يقول تعالى : « وآتيناه موسى الكتاب » .

فقد يقال : أى ارتباط بين الإسراء وبين ، « وآتيناه موسى الكتاب » . ووجه الاتصال هنا : أن التقدير : أطلعنا محمداً صلى الله عليه وسلم على الغيب عياناً وأخبرناه بوقائع من سلف بياناً لتقوم أخباره على معجزته برهاناً أى سبحانه الذي أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكراً ، وأخبرك بما جرى لموسى وقومه من الكرتين لتكون آيتهما قصة أخرى .

أو أنه أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى ربه كما أسرى بموسى من مصر حين خرج منها خائفاً يترقب ثم ذكر بعده « فورية من حملنا مع نوح

(١) انظر رسالة في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) البرهان للزركشي ص ٤٢ وما بعدها تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي .

إنه كان عبداً شكوراً » ليتذكر بنو إسرائيل نعمة الله عليهم قديماً حين نجاهم الله من الغرق ، إذ لو لم ينج أباهم من أبناء نوح لما وجدوا وأخبرهم أن نوحاً كان عبداً شكوراً ، وهم ذريته والولد سر أبيه فيجب أن يكونوا شاكرين كأبيهم .

* * *

تأمل كيف أننى الله على نوح ، وكيف لاقت صفته بالفاصلة ، وتم النظم بها مع خروجها مخرج المرور عن الكلام الأول إلى ذكره ومدحه بشكره . واعجب لهذا التدرج العجيب في الموعدة العظيمة من قوله تعالى : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها » ، ولم ينقطع بذلك نظام الجمل إلى أن خرج السياق إلى قوله تعالى : « عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا . . . » .

وتلك الخاصية من أنواع الارتباط نلاحظها في الآية الكريمة من سورة الرعد هي قوله تعالى : « أفن هو قائم على كل نفس بما كسبت ، وجعلوا لله شركاء . . . » فقد يقال : أى ارتباط بين صلب الآية من قوله تعالى : « أفن هو قائم على كل نفس » ، وبين قوله تعالى بعده ، « وجعلوا لله شركاء » ؟ .

« وجوابه أن المبتدأ « من » خبره محذوف أى أفن هو قائم على كل نفس ترك عبادته ؟ أو « معادل الهمزة » والتقدير أفن هو قائم على كل نفس كمن ليس بقائم .

ووجه العطف على التقديرين واضح ، أما الأول فالعنى أترك عبادة من هو قائم على كل نفس ، ولم يكف الترك حتى جعلوا له شركاء ؟ وأما الثانى فالعنى : إذا انتفت المساواة بينهما فكيف يجعلون لغير المساوى حكم المساوى ؟ « (١) » .

(١) البرهان للزركشى ص ٤٣ ، ٤٣ ، ٤٦ تحقيق أبي الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي .

والشواهد على تلك الخاصية كثيرة لم نأت على شيء منها سوى ما ذكرنا
منعاً للاستطراد . والتكرار . ففي كتاب الله تعالى من عجائب أسرار النظم
وبدائعه ما لا يحصى له عد .

• • •

وما مر ذكره من الخصائص ما هو إلا ملامح جزئية يتسم بها النظم
القرآني في سورة الرعد وغيرها ، وهذه الملامح تتوج بها لفظة مفردة ،
أو جملة مركبة في ثنايا سور القرآن الكريم ، أو حرف أوثر التعبير به
على غيره .

وإن أردنا الإلمام بخصائص النظم القرآني على وجه العموم ألفينا خصائص
للنظم عجيبة تجل عن الحصر . منها :

« أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه - خارج عن
المعهود من نظام كلام البشر ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله
أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد (١) » .

• • •

وأن نظم على كثرة سورة وطولها وقصرها قد تميز بتناسب في الفصاحة
على ما وصفه الله تعالى به إذ يقول تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً
متشابهاً مثاني تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم
وقاوبهم إلى ذكر الله » (٢) وقوله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافاً كثيراً » (٣) أما كلام الآدي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال .

وهناك خاصية في النظم عجيبة يتميز بها أسلوب القرآن الكريم . وهي
أن هذا الكتاب المبين ، على اختلاف فنونه ، وما يتصرف فيه من الوجوه

(١) انظر الفصل الأول من هذه الدراسة .

(٢) سورة الزمر آية ٢٣ .

(٣) سورة النساء الآية ٨٢ .

الكثيرة ، والطرق المختلفة ، يجعل المختلف كالموثلف ، والمتباين كالمتناسب ، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد ، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة ، وتظهر به البلاغة ، ويخرج معه الكلام عن حد العادة ، ويتجاوز العرف .

• • •

ولكتاب الله تعالى ميزة في حسن الرصف ، وجودة التأليف . يدرك هذه الميزة كل من يملك أدنى ذوق يحتكم إليه في حسن الأسلوب وقوته ، ووضوحه ، وجماله . فإذا سمع أحد آيات الله تتلى في بيت من بيوت الله ، أو في متدى قوم ، أو على قارعة طريق أحس من أعماقه أن هذا الكلام الذى يسمعه ما هو إلا قرآن عظيم ، وإذا فبديع تأليفه يميزه على غيره من كل كلام مسموعاً كان أو مكتوباً ، وشاهد تلك الخصوصية شهادة أعدائه الألداء من قريش . كما ورد في قصة الوليد بن المغيرة التى أفادت أنه لم يملك إلا أن يقول : « إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وأنه ليعلو وما يعلى » . ولا أرى داعياً لاستعراض مثل تلك المواقف التى حدثت بين ظهرائى السادة من قريش ، سواء ممن آمن ، أو ممن أعرض .

ومن خواص نظم القرآن أن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الأسماع ، وتنشوف إليها النفوس ، ويرى وجه رونقها بادياً غامراً سائر ما نقرن به كالدرة التى ترى في سلك من خرز ، وكالياقوتة في واسطة العقد .

وتكون غرة جميعه ، والمنادى على نفسه بتميزه وتخصيصه برونقه وجماله ، واعتراضه في حسنه ومائه .

ومن أروع خصائص نظم القرآن أنه سهل سبيله فهو خارج عن الوحشى المنكر ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وجعله قريباً إلى الأفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب ، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس

وهو مع ذلك ممتنع المطلب ، عسير المتناول غير مطمع مع قربته في نفسه ، ولا موهوم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه ، أو يظفر به (١) .

« ونظم القرآن لا يلزم السجع فقد نجد سوراً قصيرة مسجوعة ، وقد نجد صفهاً من السور الطوال كذلك ، ولكن هذه الظاهرة لا تطرد فيه ، فكثيراً ما ينتقل من السجع إلى الكلام المرسل (٢) » .

ومما يمتاز به النظم والأسلوب في القرآن الكريم ، أن الذي ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار ، والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والتجوز والتحقيق ، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلام الناس موجودة في القرآن ، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلام البشر المعتاد في الفصاحة ، والبلاغة ، والإبداع (٣) .

فانظر مثلاً إلى بديع التشبيهات ، والتمثيلات ، وما حققته من الأغراض في قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بنس مثل القوم الذين كفروا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين » فقد يترأى للنظر في صورة هذا المثل « أنه يكفى في التشبيه أن يقال مثلهم كمثل الحمار الذي لا يعقل ، ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقاً والتحاماً حتى يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة فلم ينتفعوا بما فيها وبين الحمار يحمل أسفار العلم ، ولا يدرى مما ضمته شيئاً ، فتمام الصورتين يأتي من هذا القيد الذي جعل الصلة بينهما قوية وثيقة ، وإذا فالتشبيهات القرآنية والأمثال في صياغة نظمها « تصف وتفيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة » .

* * *

(١) انظر هذه الخصائص مفصلة في إعجاز القرآن للباقلاني الطبعة الثالثة ص ٣٥ وما بعدها تحقيق أحمد صقر مطبعة دار المعارف بمصر .

(٢) انظر بحث جديد عن القرآن الكريم لمحمد صبيح ص ١٠٤ الطبعة السادسة .

(٣) انظر إعجاز القرآن للباقلاني الطبعة الثانية ص ٤٢ تحقيق أحمد صقر الطبعة الثالثة مطبعة دار المعارف بمصر .

ولأجل أن يزداد الأمر وضوحاً هذه آيات قصار في إطارها يسوقها القرآن في شأن أبي جهل ، وكل كافر ، وما يلقاه من عذاب يوم القيامة يقول الحق تبارك وتعالى : « إن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون ، كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . . . » الآيات (٥) .

لقد اشتمل إطار هذه الآيات على أكثر من تشبيه ، في صورة ترسم هول العذاب الذي يلقاه الكافر في جهنم ، تعجز كل وسائل التعبير الأخرى عن بلوغ مدى هذه الصورة في التأثير القوي الذي لا يقف عند جوانب الحس ، وإنما يتعداها إلى كل أبعاد النفس البشرية ، فيزلزل قوى الشر فيها ، وتقوم كل كلمة في هذه الآيات بأداء دورها في تحقيق الغرض ، وإبداع هذه الصورة القرآنية المعجزة مع تناسق تام والتثام عجيب .

صحيح قد ندرك جانباً من هذه الأدوار لكل كلمة في الآيات ، وذلك بمقدار ما نملك من وسائل نقد الكلمة ، وحسن البصر بالأساليب ، والذوق المثقف الذي به يمكن أن ندرك خفي الفروق بين التراكيب ، ولكن على الرغم من ذلك تبقى جوانب من الإعجاز مستورة ، ولآلئ مكنونة بغوص من أجلها علماء جيل فيستخرجون منها على حسب ما توهمهم له قدراتهم المتفاوتة - بعضاً من بدائع النظم المحكم في القرآن الكريم .

والذي يهمننا في هذا المقام أن نقف على شيء من بدائع نظم التشبيه الذي أوردته الآية في قوله تعالى : « كالمهل » ، « كغلي الحميم » .

إن أول ما يدعو إلى التأمل رصف تلك الألفاظ في إطار التشبيه « الزقوم » « الأثيم » « المهل » « يغلي » « الحميم » ، وإذا كان الزقوم من أحبث الشجر المر الذي يعرفه القوم من بين ما يعرفونه من نبت الصحراء ، وتنفر منه نفوسهم ، فإن النظم القرآني لا يقف عند حدود هذه المعرفة على ما فيها من قدر كبير عن بشاعة هذا الشجر المر ، بل يضيف إليها عن طريق التصوير

البياني ما يزيد النفس منها نفوراً ، فاعتصار هذه الشجرة الحبيثة ومصلها المر
« كما بهل يغلي في البطون » أى كدردى الزيت الأسود المغلى ، أو كالمعدن
المصهور المذاب يلتقى به في البطون ، فهي أوعيته ، ياللهول !! وبالبشاعة
المنظر ، وقبل أن تفيق النفس من هول هذه الصورة ، وتثوب إلى رشدها
تسلمها الآيات إلى صورة أخرى تدفع بها في طريق الخوف إلى مدى أبعد ،
فيأتى قوله تعالى : « يغلي في البطون كغلي الحميم » .

إن الآيات هنا تصور مشهداً مفزعاً مما سوف يحدث للكافر يوم القيامة ،
ولكننا مع بدائع هذا النظم المعجز ، ومع ما اكتنف الآيات من سابق ولاحق
نقف أمام أحداث تلك القوارع التي لم يزل يتفوه بها الزمن وتزول الفواصل
بين ماض وحاضر ومستقبل ، حتى ليخيل إلينا أن الآيات هنا تحكى أحداثاً
وقعت بالفعل ، ومضت عليها القرون ، مع أنها في الواقع أمور مستقبلية
سوف تحدث بعد أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد اخترقت بنا الآيات حجب الغيب البعيد ، وطوت الآباد من الزمن
طياً لتضع بين أيدينا مشاهد متعددة الألوان ، ترد بأسلوب الماضي وكأنها
تحكى لتؤخذ منه العبرة ، وهذه الطريقة التي انفرد بها النظم القرآني تؤكد
الثقة في وقوع هذه الأحداث ، فكأنها حدثت بالفعل ولا مجال للشك فيها
فقد أخبر عنها علام الغيوب (١) .

وبين أيدينا في الآيات السابقة كثير من الألفاظ التي تستحق الوقوف
طويلاً للتأمل في طريقة نسجها وتأليفها ، ونكتفي في الاستدلال على ذلك بواحدة
منها ، تلك لفظة « اعتلوه » من قول الله تعالى : « خذوه فاعتلوه إلى سواء
الجحيم » إن لهذه الكلمة من التأثير ما ليس لغيرها مما نفسرها به . إذ تجسد
صورة جر الكافر إلى وسط النار بأقصى العنف والغلظة . وهذا من بديع نظم
القرآن إذ تقرر في تأليفه كل لفظة لا تبغى حولا عن مكانها من حيث حسن

(١) انظر من بدائع النظم القرآني للدكتور السيد عبد الفتاح حجاب ص ١٤ وما بعدها

مطبعة الجندی .

النظم وقوة المعنى ، « وهذا ما تنبه إليه الجاحظ من حيث الدقة في مواقع الألفاظ في الذكر الحكيم ، وكيف أن الكلمة المرادفة لأخرى لا يصح أن تستخدم مكانها ، بل إن صيغة الكلمة ينبغي أن لا تتغير ، وأن تظل على صورتها من الإفراد والجمع ، وأيضاً فإن الكلمات كأفراد الأسرة أو على الأقل منها ما تقوم بينها واشجة الرحم .

• • •

وقد يستخف الناس ألفاظاً ، ويستعملونها ، وغيرها أحق . بذلك منها ألا ترى أن الله تبارك وتعالى : لم يذكر في القرآن « الجوع » إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام . والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث .

ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين ، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعاً ، والجاري على أفواه العامة غير ذلك لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر ، وأولى في الاستعمال (١) .

وتلك الخصائص للنظم القرآني ثابتة أصيلة فيه ، وليست وليدة تنقيح وتكلف وتهذيب لأن القرآن منزل من عند أحكم الحاكمين .

وتلك الخاصة في النظم نلاحظها في التشبيه القرآني من سورة الرعد إذ يقول تعالى : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف ص ٥٠ ، ٥١ الطبعة الثانية مطبعة دار المعارف بمصر .

فقد يقال : يمكن أن يتم التشبيه على نحو من قولنا « إلا كظمان يريد الماء ، وهو لا يستطيع الوصول إليه » .

ولكن الأمر هنا على خلاف ما ذكرته الآية من حسن الصياغة ودقة النظم فقد قيد هذا الظمان بأنه ييسط كفيه إلى الماء عن قرب لعلها تصيب شيئاً منه ، وهيات ذلك ، كما هو حال المشركين يدعون من دون الله وأنى يستجاب لهم .

• • •

ومن سمات النظم أن المعانى التى تضمنها القرآن الكريم فى أصل وضع الشريعة ، والأحكام ، والاحتياجات فى أصل الدين ، والرد على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة ، وموافقة بعضها بعضاً فى اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع .

وذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة ، والأسباب الدائرة بين الناس ، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مؤسسة مستحدثة ، فإذا برع اللفظ فى المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول المتكرر ، والأمر المتقرر المتصور ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعانى ، والمعانى وفقها لا يفضل أحدهما الآخر فالبراعة أظهر ، والفصاحة أتم (١) ، حتى يرتقى الإبداع فى النظم إلى طريقة لا يستطيع حذاق الكلام مجاراتها بل لو ضمنوا كلامهم لفظة واحدة من غرر الألفاظ القرآنية — وكل ألفاظه غرر — لتبين بريقها للنظر وأوغلت فى البعد عن أساليبهم المعتادة .

ومثل هذا النهج لا يتحقق إلا فى نظم القرآن الكريم . وهذا شاهد على تلك الخاصية . يقول جل ثناؤه فى سورة البقرة : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » .

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ص ٤٢ تحقيق أحمد صقر الطبعة الثالثة مطبعة دار المعارف بمصر .

لاحظ لفظة « حرث » وما لها من مزية في نظم الآية الكريمة فإن لوجودها وربطها مع قرينتها ، وتعيين موضعها من العبارة تأثيراً في الإيحاء الصوتي ، والقيمة والأهمية في أداء المعنى البلاغي ، وفخامته وعدوبته ، بل لاختيارها على غيرها دلالة على كمال المعنى وتشخيص له .

« إن هذه اللفظة جيء بها لتشبيه النساء بها دون الأرض مثلاً أو الحقل أو الزرع ، أو غير ذلك من مترادفات اللغة ، ولعل في إثارتها على غيرها لما فيها من لطف الكناية في ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه ، وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص ، وبين ذلك النبت الذي يخرج الحرث ، وذلك النبت الذي تخرجه الزوجة ، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح . بينما هذه اللطائف لا تستفاد من كلمة « الأرض » أو الحقل » ونحوهما ، فالأرض قد تكون جدباء سبخة لا تصلح للحرثة والزرع ، وكذلك الحقل إذ لا يدل على عمل المالك فيه (١) .

من أجل تلك المعاني واللطائف آثرت الآية الكريمة لفظة « حرث » على غيرها من مترادفات اللغة التي تدل على المعنى لكنها لا تصل إلى براعة لفظ حرث في مدلولها الواسع وإيحائها وجمال وقعها في النفوس .

وأمثال تلك الفرائد في القرآن كثيرة خذ مثلاً قوله تعالى : « والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس » أليست كلمة « عسعس » توحى بدنو الليل وتهاديه في آفاق الكون وتؤدي هذا المعنى أكثر من لفظة « قرب أو دنا » وكذلك تنفس ، أي إشراقة لرواء هذه اللفظة . بجانب ذكر الصبح ، لكان الصباح مخلوق ذو رثة وروح ينفث في الآفاق بصيصاً من النور والإشعاع ، تحسه وتعيشه وتملاه في قريب وبعيد .

(١) انظر رسالة إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص ١١٩ ، ١٢٠ .

ولو أردنا استقصاء الأمثلة والشواهد على تلك الخاصية لأفضى بنا ذلك إلى الإطالة ، ولكن كما قلنا : « لا يستعذب التكرار في كلام كما يستعذب في كلام الله تعالى : فإليك مثال آخر على تلك الخاصية : يقول الحق سبحانه : « فما استطاعوا أن يظهره ، وما استطاعوا له نقباً » .

إن لفظة « استطاعوا » توحى بحركة الانزلاق السريع كلما حاول القوم اعتلاء سد ذى القرنين وصعوده ، ولفظة « استطاعوا » تعبر عن القوة التي يمارسها القوم لهدم هذا السد أو إحداث خلل فيه . فأى بلاغة وأى نظم تجارى مثل هذا التأليف والأسلوب .

ومما يميز القرآن الكريم « خلو حروفه مما يخرج الكلمة عن حد الفصاحة فقد تجنب القرآن في تأليف ألفاظه ، وتراكيبه - الحروف المستهجنة مما يجرى في لغة الأنباط ، والأعاجم . والأكراد لما فيها من الركاقة والتواء اللسان ، ومما يجرى في لغات بعض العرب على نحو ما روى من كشكشة بنى تميم ، وكسكسة بنى بكر ، وطمطمانية حمير ، وكالغمغمة في لغة قضاة ، والقراية والخلخانية في لغة أهل العراق ، وكل هذه اللغات نجد في حروفها عاهة ولكنة ، وقد جاء الكتاب الكريم مزهاً في تأليفه عنها (١) » .

ومن سمات النظم القرآني وفوائده « مزج المقاصد والأغراض التي يهدف إليها ، وتفريقها في السور الكثيرة ، والطويلة منها والقصيرة ، بالمناسبات المختلفة ، وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة في القلوب ، المحركة للشعور ، النافية للسمامة والملل من المواظبة على ترتيبها بنغمات نظمه الخاص به ، وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من الإيحاءات الصوتية التي تحرك في القلب وجدان الخشوع ، والرغبة والرهبة ، والعرفان بكمال الله جل ثناؤه (٢) » .

ولغة القرآن الكريم في مادتها الصوتية تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر ، وخشونة لغة أهل البادية ، وتجمع - في تناسق محكم - بين رقة الأولى وجزالة الثانية ، وتحقق الروعة بفضل التوفيق والاتساق البديع .

(١) انظر الطراز للملوى الجزء الثالث ص ٢٢١ ، ٢٢٢ لطبعة المقتطف بمصر تصحيح

سيد بن علي المرصني .

(٢) انظر الوحي للمحمدي محمد رشيد رضا الطبعة الثامنة ص ١٤٤ .

إنها ترتب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكاً من النثر وأبعد في الحسبان من نظم الشعر ، ويتنوع في خلال الآية الواحدة لجذب نشاط السامع ، ويتجانس في آخر الآيات لكن لا يختل الجرس العام للوقوفات في كل سورة (١) .

• • •

ومن جملة خصائص النظم القرآني ما أشار إليه الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه « أثر القرآن في تطور النقد العربي » فقد أورد عدة خصائص يتميز بها أسلوب القرآن في التأليف والصياغة نقلاً عن رسالة « الخطابي » « بيان إعجاز القرآن ومما ذكره في هذا الصدد » . إن نظرية النظم تقوم على صلة الألفاظ بعضها ببعض في العبارة أو الآية ، وأن الكلام على هذا الاعتبار ثلاثة أقسام :

١ - لفظ حامل .

٢ - ومعنى به قائم .

٣ - ورباط لها ناظم .

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاوفاً وتشاكلاً من نظمه .

وكان من خصائص النظم القرآني إخضاع الألفاظ للسياق ومقتضى الحال ، من ظروف الكلام والمتكلم ، والمعاني التي أريد التعبير عنها . فليس غريب اللفظ - مثلاً - بليغاً في ذاته ، ولا تصح تسمية لفظ بأنه بليغ ، يقول الخطابي : « وأما ما ذكرناه من قلة الغريب في ألفاظ القرآن ، بالإضافة إلى الواضح منها فليست الغرابة مما اشترط في حدود البلاغة ، وإنما يكثر

(١) انظر .مدخل إلى القرآن الكريم لمحمد عبده الله دراز ص ١١٥ الطبعة الثانية طبعة دار القلم بالكويت .

وحشّي الغريب في كلام الأوحاش من الناس ، والأجلاف من جفافة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخير له ، وليس ذلك معدوداً في النوع الأفضل من أنواعه ، وإنما المختار منه النمط الأقصر الذي جاء به القرآن وهو الذي جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة . ولا اجتماع تلك الخصائص في النظم القرآني اتسم أسلوبه الفريد بكل صفات الأسلوب من الجمال ، والقوة ، والوضوح . « وكان من أسرار جمال التعبير القرآني إثارة الأحاسيس النفسية المختلفة . كالرحمة ، والحب ، واللذة ، والألم ، والغضب ، والخوف ، والانتقام .

وفي معرض تلك الأحاسيس يقول الحق سبحانه : « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » (٥) .

وفي سياق آخر يقول تعالى : « سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ كلما أتى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » (٥) .

تأمل في الآية الأخيرة لفظة « شهيقاً » وانظر لجمال الاستعارة وما أدته من كمال المعاني ، إذ حقيقة « الشهيق » هنا الصوت الفظيع كشهيق الباكى ، فالاستعارة أبلغ منه ، لأن مقدار شدة الغيظ في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل ، وفي ذلك أعظم الزجر ، من أجل تلك المعاني يخاطب القرآن الكريم الغرائز الإنسانية ، يستثيرها كاستثارة غريزة الغيظ ، وشعور الغضب في النفس ، ويخلع تلك الغرائز على النار لتدل على حقدتها ونهبوها للانتقام من الكافرين بابتلاعهم حتى تثبت الخشية ، والرغبة ، والخوف في النفوس فتدعن للخير وتبتعد عن المعصية » (١) .

(٥) سورة الإبراء .

(٥) سورة الملك .

(١) انظر أثر القرآن في تطور النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام الطبعة الثانية دار

المعارف بمصر ١٩٦١ م .

ونخلص من كل تلك الخصائص « إلى أن القرآن الكريم في أسلوب تأليفه كان له أثر واسع النطاق في الميدان الأدبي ، لا بما فيه من أهداف أخلاقية فحسب ، ولكن بما فيه أيضاً من أسلوب جميل معجز في الجمال . أى أن الصورة الأولى وحدها منه هي التي قامت بدور كبير في تكييف الوضع الفني ، والاعتبارات الفنية الشكلية » (١) .

وطبيعي أن جمال الصورة يتبع جمال جزئياتها في الحرف وتأليفه واللفظة المفردة ، وانتقائها ووضعها في مكانها اللائق بها ، وفي التركيب وأحكامه في الرصف من حيث تلاقى أول منه بآخر .

ومن براعة النظم القرآني ما يسميه البلاغيون : بالتغاير ، والمماثلة ، والانسجام .

أما التغاير فيعني : مغايرة المعنى لمغايرة اللفظ - وهو غير التناقض - ومثال ما جاء النظم فيه متغايراً بين اللفظ والمعنى قول الحق سبحانه : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » فإن معنى هذه الآية بهذا النظم يغير قوله تعالى : في نفس المعنى لنظم آخر : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

ففي الآية الأولى قدم الله تبارك وتعالى - وعده بالرزق للآباء عن وعده برزق الأبناء ، وفي الآية الثانية يأتي العكس ، وسبب المغايرة بينهما أن الخطاب في الآية الأولى للفقراء بدليل قوله تعالى : « من إملاق » فاقتضت البلاغة تقديم وعد الآباء المملقين بما يغنيهم من الرزق ، واقتضت تكميل المعنى بعدة الأبناء بعد عدة الآباء ليكمل سكون الأنفس ولم يبق لها تعلق بشيء .

وفي الآية الثانية الخطاب للأغنياء بدليل قوله تعالى : « خشية إملاق » فإنه لا يخشى الفقر إلا الغني ، أما الفقير ففقره حاصل . فاقتضت البلاغة

(١) انظر الأسس الجمالية في النقد العربي للدكتور عز الدين السيد ص ١٨٧ الطبعة الثانية

لعام ١٩٦٨ م طبعة دار النصر بالقاهرة .

تقديم وعد الأبناء بالرزق ، ليشير هذا التقديم ، إلى أن الله وحده — هو الذى يرزق الأبناء ليزول ما توهمه الأغنياء ، من أنهم يأنفاقهم على الأبناء سيصبرون إلى الفقر بعد الغنى ، ثم كمل الطمأنينة بعدتهم بالرزق بعد عدة أبنائهم .

وأما المائلة : فعناها تماثل ألفاظ الكلام كلها أو بعضها فى الزينة دون التقفية كقوله تعالى : « والسما والطارق . وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب . إن كل نفس لسا عليها حافظ » فالطارق ، والثاقب ، وحافظ مماثلات فى الزينة دون التقفية .

وقيل : المائلة تماثل الألفاظ فى المعنى مع اختلاف اللفظ .. ويكون مثل هذا فى الكتاب العزيز « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » .

وأما الانسجام : فهو أن يأتى متحدراً كتحد الماء المنسجم بسهولة سبك ، وعلوبة ألفاظ ، وسلامة تأليف ... وهو على ضربين : ضرب يأتى مع البديع الذى لم يقصد ، وضرب لا بديع فيه ، فن الضرب الأول قوله تعالى : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون »

فأنت ترى سهولة هذا النظم ، وعلوبة هذه الألفاظ ، وما فى هذا الكلام من الانسجام ، مع ما وقع فيه من التعطف . فى قوله تعالى : « إلى الله » ، « وأعلم من الله » فإنه إنما عدل عن قوله : « وأعلم منه » وهو أوجز من الأول ليأتى فى الكلام تعطف يزيد حسناً ، وفيه زيادة خضوع ، وترقق مع تمكين فاصلة الآية .

ومثلها الآية التى بعدها . وهى قوله تعالى : « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » لوقوع التعطف فيها كالأول .

ومثال الضرب الثاني من الانسجام - وهو الخالي من البديع - قوله تعالى :
« خذ العفر وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وقوله عز وجل :
« ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده ، وتوكل
عليه وما ربك بغافل عما تعملون » وأكثر آى القرآن من شواهد هذا الباب « (١) .

وتلك الخصائص في نظم القرآن الكريم - أعنى التغيرات ، والمائلة
والانسجام ، قد امتدى إليها البلاغيون بذوقهم المستنير ، وأدرجوها تحت
اصطلاحاتهم البلاغية ، وألحقوها بفن البديع ، ولاشك أن وجودها في
النظم القرآنى أصل فيه من غير تكلف ، ووجودها في كلام غيره ، إما عن
تكلف ، أو غير تكلف لكنه في الحسن دون درجة القرآن .

ومن روائع نظم القرآن : اجتماع الحسن له « حول حرف واحد في
الآية يثير في النفس ألواناً من المعانى لا تجدها إذا استبدلت به حرفاً آخر
واستمع إلى قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة
كذلك كانوا يوفكون » وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب
الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون » .

ألا تشعر بما حول هذه ألفا من استفهامات تثيرها ، فكأن الذين أوتوا
العلم والإيمان يقولون لمنكرى البعث : ألا تزالون مصرين على إنكاره ؟
وماذا أنتم فاعلون ؟ وكيف تلقون رباً أنكرتم لقاءه « (٢) ؟

* * *

وبما أن القرآن الكريم قد بلغ الذروة في البلاغة والإعجاز حرفاً ولفظاً
وتركيباً فقد جوى في نظمه « جميع قواعد البيان والبديع دون أن يترك قاعدة

(١) انظر بايع القرآن لابن أبي الأصم ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٦٦ وما بعدها ، وإعجاز
القرآن البياني للدكتور حفي محمد شرف ص ٣٦٥ .

(٢) من بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٥٦ الطبعة الثانية مطبعة نهضة مصر .

واحدة منها ، ولم يستطع بليغ من بلغاء العرب وغيرهم من أمم الأرض أن يصل إلى هذا الكمال مهما كان نبوغه .

ولشدة تماسك أجزاء الآيات وتراكيب الجمل داخلها وتناسق بعضها مع بعض في حسن النظم خيل لبعض من وهم بل غلط حتى قال إن في بعض آيات القرآن شعراً جاء موزوناً مقفى من غير قصد . ولم يكتف بمثل هذا القول الفاسد بل دعاه اجتهد السقيم إلى أن يدخل بعض الآيات أو جملاً منها تحت محور الشعر فيعد هذه من الطويل وتلك من الوافر ، وأخرى من البسيط .

وما دعاهم إلى ذلك إلا الاتساق بين الألفاظ ، والاتلاف بينها وبين المعاني ، ولا أرى داعياً لذكر ما استشهدوا به من الآيات فحاشا القرآن الكريم أن يخضع في نظمه ، لقواعد الشعر ومصطلحاته ، وأوهام قائله ، وخيالاتهم « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . تنزيل من حكيم حميد (١) » .

• • •

ومن أرق خصائص النظم القرآني « أن الباحث فيه حينما قلب نظره وجد أسراراً من الإعجاز اللغوي ، منها ما يمكن في نظامه الصوتي البديع بجرس حروفه ، ومقاطع فواصله ، ومنها ما هو في ألفاظه التي تبنى بحق كل معنى في موضعه ، لا ينبو منها لفظ يقال إنه زائد ، ولا يعثر على موضع يقال إنه بحاجة إلى لفظ ناقص ، ومنها ما هو في ضروب الخطاب التي يتقارب فيها أصناف الناس في الفهم ، مع إقناع وإمتاع العاطفة في تكافؤ واتزان ، فلا تطنى قوة أحد هذين على الأخرى (٢) » .

وأمثلة تلك الظاهرة في نظمه البديع تصدق على جميع سورته الطويلة منها

(١) راجع إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥١ وما بعدها الطبعة الثانية تحقيق أحمد صقر مطبعة دار المعارف بمصر ، وإعجاز القرآن لحفي محمد شرف ص ٣٦١ ، ٣٦٢ واللغة الشاعرة لعباس العقاد ص ٣٧ .

(٢) انظر مباحث في علوم القرآن لمنايع القطان ص ٢٦٧ الطبعة الخامسة مؤسسة الرسالة بيروت .

والقصيرة ، وخاصة في بعض الآيات التي تستثير العواطف ، ويحتسّم أسلوبها إلى دعوة العقول للتدبر ، والاتعاظ ، كأسلوب الوعد والوعيد والترغيب والترهيب .

ومن أجل خصائص الإبداع في النظم القرآني ، ظاهرة التجدد التي لم يزل القرآن معها حياً متجدداً يفوق طاقة الدارسين ، ولا يزال كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، لا تبديل لكلمات الله ، فهما سطا على أسلوب القرآن وتأليفه ملحد - بالتغيير والتبديل - فإن أسلوبه الطري وتأليفه الرائع لا يمكن من تسول له نفسه وتمنيه ، أن يصل إلى ما يريد وحسبك فضل مدعى النبوات ، ومن سار في ركبهم ممن قادم .

والقرآن بتلك الخصائص سيبقى المثل الأعلى لكل فن من فنون البيان الذي اشتهر به العرب ، وهم أهل الفصاحة واللسان .

• • •

ومعنى ذلك أن كتاب الله كان مجتمع الخصائص الممتازة التي عرفها العرب وزاد عليها القرآن الكريم ما أعجزهم عن معارضته ، والإتيان بمثله مع تحديه البالغ لهم ، بعشر سور ، بل بسورة ، بل بآية أو جملة إذ التحدى عام في الجميع بدليل قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله . . . » الآية فقوله بمثل هذا القرآن دليل على التحدى عامة وكان القرآن نمطاً رفيعاً ، ونظاماً فريداً ، فيه من القوة والجمال ما قد يخفى على غير أهل الذوق وأرباب البصيرة بالفن الأدبي .

ولذلك لا يعرف فضل القرآن إلا من كثر نظره ، واتسع علمه وفهم مذاهب العرب ، وافتنانها في الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع

فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة ، والبيان ، واتساع
المجال ما أوتيت العرب « (١) .

• • •

والأمر كما يقول ابن قتيبة « وللعرب المجازات في الكلام ، ومصدر طرق
القول وماأخذها ، ففيها الاستعارة والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ،
والحذف ، والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ،
والكناية ، والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب
الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى
العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص ، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ،
ولذلك لا يقدر أحد من التراجع على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل
الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية ، وترجمت التوراة والزيور ،
وسائر كتب الله تعالى بالعربية ، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب .

وإنما ذكر ابن قتيبة هذه الفنون لورودها في الكتاب الكريم ولأنه
رأى جماعة يطعنون على الكتاب ببعض ما خفى عليهم مما فيه من فنون القول
وأساليب الكلام ، فأراد أن يبين أن القرآن نزل بألفاظ العرب ، ومعانيها
ومذاهبها في الإيجاز والاختصار ، والإطالة ، والتوكيد ، والإشارة إلى
الشيء وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللحن ، وإظهار بعضها
وضرب الأمثال لما خفى .

ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً ، حتى يستوى في معرفته العالم
والجاهل لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت الهنة ، وماتت الخواطر ،
ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة ،
وكل باب من أبواب العلم من الفقه والحساب والفرائض والنحو ، فنه ما يجمل
ومنه ما يدق ليرتقى المتعلم في رتبة بعد رتبة حتى يبلغ منتهاه ، ويدرك أقصاه

(١) انظر البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ص ٣٢ الطبعة السادسة .

ولتكون للعالم فضيلة النظر ، وحسن الاستخراج ولتقع المشوبة من الله على حسن العناية .

ولو كان كل فن من العلوم شيئاً واحداً ، لم يكن عالم ولا متعلم ، ولا خفي ولا جلي ، لأن فضائل الأشياء تعرف بأضدادها ، فالخير يعرف بالشر ، والنفع بالضر ، والحلو بالمر ، والقليل بالكثير ، والصغير بالكبير والباطن بالظاهر «(١)» .

* * *

(١) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٦٢ طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٤ م .

خاتمة

وبعد ، فقد طال بي السير في صحبة هذه السورة الكريمة ، والتأمل فيما اشتملت عليه من آيات الروعة والإعجاز . ومع ذلك أشعر بأنني أمام هذا الفيض الزاخر من آيات الحسن والإبداع الذي يمتاز به كلام الله العلي القدير وكأنني أمام بحر لا شاطئ له ، كلما حسبت أنني وصلت إلى المراد من هذه الرحلة الطويلة ألفتني في شوق إلى الاستزادة من هذا المعين الذي لا ينضب . ولكن لكل شيء غاية وأمداً ينتهي إليه . وقد بذلت من الجهد ما رأيت أن ثمرته تكفي لتكون معلماً من معالم عظمة « النظم القرآني » وروعته وأسرار إعجازه .

وكان أهم ما توجهت إليه العناية في هذه الدراسة :

١ - الإبانة عن معنى النظم ومفهومه عند أصحاب اللغة ، وعند علماء البيان الذين عرضوا له ، وارتضوه أهم وجه من وجوه إعجاز الكتاب الكريم . وأشارت إلى سائر وجوه الإعجاز لبيان منزلة هذا الوجه منها وذلك ما تضمنه الفصل الأول من هذه الدراسة .

٢ - ثم تناولت النظم في سورة الرعد ، فاحصاً عن عناصر هذا النظم في جزئياته وكملياته مبتدئاً بالألفاظ المفردة ، ومشيراً إلى اختلاف العلماء والنقاد في تقدير قيمة اللفظ المفرد ، وانتهيت إلى مظاهر إحكام التأليف في هذه السورة وفقاً لمقتضيات المعاني التي تضمنتها . وكذلك بحثت عن مظاهر التلازم والاختلاف بين أجزاء النظم في هذه السورة ، وعن الفواصل ونسقتها وأكثر الحروف التي بنيت عليها هذه الفواصل وخصائص كل منها . ولم تفتني الإشارة إلى اختلاف العلماء حول ورود « السجع » في القرآن وإيثارهم لفظة « الفاصلة » على لفظة « السجع » وأدليت بوجهة نظري في ذلك الاختلاف وبسطت الرأي الذي اطمئن إليه .

وكان البحث في هذه المسائل موضوع الفصل الثاني .

٣ - ثم خصصت الفصل الثالث لدراسة التصوير البياني في سورة الرعد وتعرضت للآيات التي تعالج أهم الأغراض فيها والمعاني التي وردت للإبانة عنها ، وعن متانة الأداء ودقته وروعته في التعبير عن هذه المعاني .

٤ - ثم عمدت إلى شيء من المقارنة بين خصائص النظم في هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن مشيراً إلى خصائص المفردات والتراكيب والمعاني ونسق الفواصل ، وذلك حتى أستطيع وصل هذه السورة الكريمة بسور القرآن الكريم وذلك ما تضمنه الفصل الرابع .

وإذا كنت قد أشرت إلى شيء من الجهد الذى بذلته فى هذه الدراسة فى هذه الكلمات السريعة التى تقتضيها هذه الخاتمة الموجزة فإنى أرى أن هذه الإشارة لا تكفى عن الرجوع إلى ما فصلته فى تلك الفصول ، وما ناقشته من الآراء ، وما استخرجته من بدائع النظم القرآنى فى هذه السورة ، وما بسطته من آراء اطمأنتت إليها بما وسعنى من المعرفة والذوق الفنى .

ومع كل هذا لا أستطيع أن أزعم أننى قلت كل شيء فإننى كما ذكرت فى تقديم هذه الرسالة قد اجتهدت ما وسعنى الاجتهاد وحسبى أننى مهدت الطريق لمن يريد أن يخوض هذا الخضم الزاخر باحثاً عن لآلئه التى حاولت أن أفتح شيئاً من أصدافها .

ويستطيع الذين تتاح لهم السبيل للغوص على أسرار الجمال فى النظم القرآنى أن يسلكوا الطريق التى سلكت ، ولعلمهم يوفقون إلى ما هو خير منه ، فى خدمة كتاب الله تعالى حتى تتكامل هذه الدراسة الفنية للقرآن الكريم الذى هو المعجزة الكبرى لنبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ومجتمع شريعتنا وأحكام ديننا الحنيف .. والذى هو منطلق الآداب السامية الرفيعة ، وقواعد السلوك التى ينبغى أن يتحلى بها من يريد خير الدنيا والآخرة .

ولا أحب أن أنفى عنان القلم قبل أن أزجى الشكر خالصاً لأستاذى الدكتور بدوى طبانة على حسن رعايته وعنايته بهذا الجهد وصاحبه فجزاه الله خير الجزاء وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

• • •

ثبت المراجع :

- ١ - الإتيقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطى المطبعة الأزهرية بمصر -
الطبعة الثانية - ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م .
- ٢ - أثر القرآن في تطور النقد العربى : الدكتور - محمد زغلول سلام مطبعة
دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية - ١٩٦١ م .
- ٣ - أساس البلاغة : جار الله محمود بن عمر الزمخشري طبعة دار صادر -
بيروت ١٣٨٥ هـ .
- ٤ - الأسس الجمالية في النقد العربى : الدكتور عز الدين السيد - مطبعة دار
النصر - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٦٨ م .
- ٥ - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المحجاز : عز الدين عبد العزيز
ابن عبد السلام مطابع دار الفكر - دمشق - الناشر المكتبة العلمية
بالمدينة المنورة .
- ٦ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين الشنقيطى مطبعة
المدنى - ١٣٨٦ هـ .
- ٧ - إعجاز القرآن البياني : الدكتور - حنفى محمد شرف مطابع الأهرام -
١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
- ٨ - إعجاز القرآن : محمد بن العلي الباقلانى مطبعة دار المعارف بمصر -
الطبعة الثالثة - ١٩٧٢ م تحقيق أحمد صقر .
- ٩ - إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعى مطبعة الاستقامة القاهرة
الطبعة - الثانية - ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م .
- ١٠ - الإعجاز البياني : الدكتورة - عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء »
مطبعة دار المعارف بمصر - الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
- ١١ - الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال أحمد محمد بن المنير
الإسكندرى المالكى طبعة دار الفكر - بيروت .

- ١٢ - بحث جديد عن القرآن : محمد صبيح طبعة دار الثقافة العامة - القاهرة الطبعة السادسة .
- ١٣ - بديع القرآن : عبد العظيم بن عبد الواحد المعروف « بابن أبي الأصبع » مطبعة دار نهضة مصر - الطبعة الثانية - تحقيق حنفى محمد شرف .
- ١٤ - البرهان فى علوم القرآن : بدر الدين الزركشى مطبعة الحلبي - الطبعة الثانية - تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ١٣٩١ هـ .
- ١٥ - البلاغة تطور وتاريخ : الدكتور - شوقى ضيف مطبعة دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية .
- ١٦ - بيان إعجاز القرآن : حمد بن محمد الخطاى مطبعة دار المعارف - الطبعة الأولى - تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام .
- ١٧ - البيان العربى : الدكتور بدوى طبانة المطبعة الفنية الحديثة بمصر - الطبعة الرابعة - ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م :
- ١٨ - البيان والتبيين : عمرو بن بحر الجاحظ طبعة دار الفكر .
- ١٩ - تأويل مشكل القرآن : عبد الله بن مسلم بن قتيبة مطبعة الحلبي - شرح وتحقيق أحمد صقر .
- ٢٠ - التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن : كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد المعروف بابن الزملكاني مطبعة العاني - بغداد - الطبعة الأولى - ١٣٨٣ هـ تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي .
- ٢١ - التبيان فى شرح الديوان : ضبط وتصحيح مصطفى السقا وإبراهيم الايبارى - وعبد الحفيظ شلبي - مطبعة الحلبي ١٣٩١ هـ .
- ٢٢ - التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب طبعة سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
- ٢٣ - التعبير الفنى فى القرآن : الدكتور - بكرى الشيخ أمين مطبعة دار الشروق - الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ .
- ٢٤ - التعابير القرآنية والبيئة العربية : ابتسام مرهون الصفار الطبعة الأولى - مطبعة الآداب النجف - ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- ٢٥ - تفسير أبى السعود : أبو السعود محمد العادى الحنفي مطبعة السعادة بمصر - تحقيق عبد القادر أحمد عطا .

- ٢٦ - التفسير البياني : الدكتورة - عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطيء » مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م .
- ٢٧ - تفسير الطبرى ، جامع البيان فى تفسير القرآن : محمد بن جرير الطبرى طبعة دار المعرفة بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- ٢٨ - تفسير الفخر الرازى : للإمام الفخر الرازى المطبعة البهية - بمصر - الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .
- ٢٩ - تنوير المقياس من تفسير ابن عباس : لأبى طاهر محمد بن يعقوب الفيروز ابادى مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٣٨٠ هـ .
- ٣٠ - تهذيب اللغة : أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى تحقيق إبراهيم الاييارى - دار الكتاب العربى ١٩٦٧ م مطابع سجل العرب القاهرة .
- ٣١ - التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى : الدكتور - بدوى طبانة مطبعة لجنة البيان العربى - الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ ١٩٦٣ م .
- ٣٢ - الجمان فى تشبيهات القرآن : عبد الله بن محمد المعروف بابن ناquia البغدادى المطبعة العصرية بالكويت - الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ تحقيق عدنان محمد زرزور - ومحمد رضوان الدايه .
- ٣٣ - جوهرة اللغة : محمد بن الحسن بن دريد الطبعة الأولى - الناشر مكتبة المثنى ببغداد .
- ٣٤ - الحيوان : عمرو بن بحر الجاحظ - مطبعة شركة الكتاب للبناني بيروت الطبعة الأولى - ١٣٨٧ هـ تحقيق فوزى عطوى .
- ٣٥ - درر البيان فى تفسير أمثال القرآن : محمد بن أبى بكر المعروف « بابن القيم » المطبعة العربية بمكة المكرمة .
- ٣٦ - دفاع عن البلاغة أحمد حسن الزيات . طبعة الاستقلال - الطبعة الثانية ١٩٦٧ م
- ٣٧ - دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى طبعة الموسوعات بمصر - الناشر محمد رشيد رضا .
- ٣٨ - رسالة فى إعجاز القرآن : الدكتور - مصطفى مسلم ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- ٣٩ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى : شهاب الدين محمود الألوسى مطبعة إحياء التراث العربى بيروت .

- ٤٠ - سر الفصاحة : عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي مطبعة محمد علي صبيح - ١٣٨٩ هـ شرح وتصحيح عبد المتعال الصعدي .
- ٤١ - سنن الله في المجتمع من خلال القرآن : محمد الصادق عرجون الدار السعودية للنشر - جدة - الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ .
- ٤٢ - سورة الرعد - دراسة أدبية وفكرية ولغوية : عبد الرحمن حبنكة الميداني الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م .
- ٤٣ - شروح التلخيص : لسعد الدين التفتازاني وابن يعقوب المغربي وبهاء الدين السبكي مطبعة الحلبي .
- ٤٤ - الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها : لأبي الحسين أحمد ابن فارس - مطابع بدران بيروت - تحقيق مصطفى الشويبي .
- ٤٥ - الصبغ البديعي في اللغة العربية : الدكتور - أحمد موسى - الناشر دار الكتاب العربي ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .
- ٤٦ - الصحاح : لإسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطا - مطابع دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧٧ هـ .
- ٤٧ - الصنائع : أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله مطبعة الحلبي - الطبعة الثانية تحقيق علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم .
- ٣٨ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة العلوي مطبعة المقتطف بمصر ١٩١٤ م تصحيح سيد بن علي المرصفي .
- ٤٩ - عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية : الدكتور - أحمد أحمد بدوي الطبعة الثانية - الناشر مكتبة مصر .
- ٥٠ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان : الحسن بن محمد النيسابوري مطبعة دار المعرفة - بيروت ١٣٩٢ هـ .
- ٥١ - في ظلال القرآن : سيد قطب الطبعة الثالثة - دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٥٢ - في الميزان الجديد : الدكتور - محمد مندور دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٧٣ م .
- ٥٣ - القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الطبعة الثانية - مطبعة الحلبي ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .

- ٥٤ - قدامة بن جعفر والنقد الأدبي : الدكتور - بدوى طبانة المطبعة الفنية الحديثة بمصر - الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ٥٥ - القرآن العظيم هدايته وإعجازه : الدكتور محمد الصادق عرجون الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
- ٥٦ - الكشف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل : جار الله محمود بن عمر الزمخشري طبعة دار الفكر بيروت .
- ٥٧ - لسان العرب : جمال الدين محمد بن منظور مطبعة دار صادر بيروت .
- ٥٨ - اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد مطبعة الاستقلال - القاهرة .
- ٥٩ - مباحث في علوم القرآن : مناع خلیل القطان مطبعة مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الخامسة - ١٣٩٨ هـ .
- ٦٠ - المثل السائر : ضياء الدين نصر الله محمد بن الأثير مطبعة الحلبي - تحقيق محي الدين عبد الحميد - ٣٥٨ هـ .
- ٦١ - مدخل القرآن الكريم : الدكتور - محمد عبد الله دراز - طبعة دار القلم الكويت - الطبعة الثانية .
- ٦٢ - مشاهد القيامة في القرآن : سيد قطب طبعة بيروت .
- ٦٣ - معترك الأقربان : جلال الدين السيوطي طبعة دار الفكر العربي .
- ٦٤ - المعجم الوسيط : إخراج - إبراهيم مصطفى - أحمد حسن الزيات - حامد عبد القادر - محمد علي النجار .
- ٦٥ - المغنى : عبد الجبار الهمداني الاسترأبادي مطبعة دار الكتب بمصر - الطبعة الأولى ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .
- ٦٦ - من بدائع النظم القرآني : الدكتور - السيد عبد الفتاح حجاب مطبعة الجندي .
- ٦٧ - من بلاغة القرآن : الدكتور - أحمد أحمد بدوى مطبعة نهضة مصر - الطبعة الثانية ١٩٥٠ م .
- ٦٨ - من مهمل الأدب الخالد : محمد المبارك طبعة دار الفكر بدمشق - الطبعة الثانية - ١٣٨٣ هـ .
- ٦٩ - النبأ العظيم : محمد عبد الله دراز طبعة دار القلم الكويت - الطبعة الثالثة - ١٣٩٤ هـ .

٧٠ - نظرية عبد القاهر في النظم : الدكتور - درويش الجندى مطبعة الرسالة - ١٩٦٠ م .

٧١ - نند الشعر : قدامة بن جعفر طبعة دار السعادة - القاهرة - تحقيق كمال مصطفى - ١٩٦٣ م .

٧٢ - النكت في إعجاز القرآن : علي بن عيسى الرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن لخطابي والرماني وعبد القاهر الجرجاني مطبعة دار المعارف بمصر - الطبعة الأولى - تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام .

٧٣ - الوحي المحمدي : محمد رشيد رضا الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت الطبعة الثامنة .

* * *

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

مقدمة :

موضوع البحث - أهميته - منهجه - خطة الدراسة ... ٧ - ١١

تمهيد :

الدراسات القرآنية ومظاهر العناية بها قديماً وحديثاً ... ١٣ - ٢٦

الفصل الأول :

معنى النظم - بعض وجوه إعجاز القرآن - النظم وجه
من وجوه الإعجاز استعراض طائفة من أقوال العلماء في
ذلك - فكرة النظم عند عبد القاهر الجرجاني معناها -
ومفهومها ... ٢٧ - ٥٧

الفصل الثاني :

عناصر النظم في سورة الرعد - الألفاظ المفردة
وقيمتها - الاختلاف في تقدير اللفظ المفرد - التركيب
وأحكامه وفقاً لمقتضيات المعاني - مظاهر التلاؤم بين أجزاء
النظم في سورة الرعد - نسق الفواصل في سورة الرعد - أكثر
الحروف التي بنيت عليها هذه الفواصل وخصائصها ... ٥٩ - ١٢١

الفصل الثالث :

التصوير البياني في سورة الرعد - حصر لبعض الآيات
التي تعالج غرضاً واحداً - المعاني التي أدت هذه الأغراض -
كيف عبر عن هذه المعاني ... ١٢٣ - ١٦٥

الفصل الرابع :

خصائص النظم بين سورة الرعد وغيرها من سور القرآن
الكريم - دراسة لبعض الألفاظ القرآنية ، والتراكيب ،
والمعاني ، والفواصل ، وخصائص هذه العناصر ١٦٧ - ٢١٢

خاتمة :

خلاصة البحث - ما فيه من جديد ٢١٣ - ٢١٦
ثبت المراجع ٢١٧ - ٢٢٢
المحتوى ٢٢٣ - ٢٢٤

* * *

رقم الايداع ١٩٨١/٣١٢١

الترقيم الدول ١٩٧٧-٧٣٢٨-٩٢-٣

دارالنصر للطباعة الإسلامية

١٢ ششامى - شبرا مصر

ت : ٩٧٠٢٢١